الفرد الانسان

✳

المحبة مفتاح لكل قلب ولكل عقل . وبهذا المفتاح نستطيع ان نعرف اسرار البشرية جمعاء .
دون محبة لن يتحدث عقل الى عقل ، ولن ينصت قلب لقلب ، ولن تقع عين على عين .
راقبت الناس فردا فردا في شتئ الاوضاع . وفي شتى الاوضاع كانت المحبة مقياسا لنجاح الفرد ولمدى تأثيره في ما حوله من الناس والطبيعة ان اديبا وان عالما .
المحبة قوة جبارة تذيب الحواجز وتصنع العجائب .
المحبة وحدها تميت الوحوش الضارية الموغرة في صدور البشر كانها النار الهائلة تكوي جلود التماسيح لتصل الى قلوبهم .
المحبة لا تعني شيئا دون انسان ، كل شيء لا يعني شيئا دون وجود الانسان .
فالانسان هو الفاعل الاول لكل موجود . لا وجود دون وجوده !
المحبة ليست شيئا هوائيا روحيا سابحا في الهواء كما يدعي بعض الناس ، فالمحبة قوة عظيمة نستمد منها اقباسا ، تدخل كل عرق منا لتتجسّد فينا ، لان غاية الحياة هي المحبة ، ومن المحبة تنطلق غاية واحدة في حياتنا : ان يسهم كل فرد في الحياة البشرية للمصلحة العامة على السواء .
ان تسلح الفرد الانسان بالمحبة فكل ما يفعله لن يؤذي احدا من الناس .
علتنا في هذه البلاد اننا نبغض ونكره ، نحقد ونحسد ، لا نحترم الفرد الانسان ان لم ترقنا احاسيسه ومشاعره او عقائده وافعاله .
علتنا في هذه البلاد اننا لا نحترم الفرد الانسان . وعلتنا هذه شر العلل .
لو احترمنا الفرد الانسان لاحسسنا بفقره ان كان فقيرا ، وبضلته ان كان ضالا ، وبجهله ان كان جاهلا ، وبآلامه ان كان متألما .
لو احترمناه لسعينا وراء الحرية نطلبها له . بذلك نكون قد حررنا أنفسنا .
علتنا ـ وهي شر العلل ـ اننا لا نحترم الفرد الانسان لاننا لا نحبه .
والمحبة وحدها تعطي وما أعظم عطاءها ! والمحبة وحدها تطمئن وما اجل اطمئنانها !
في شتى الاوضاع نحتاج الى المحبة ، ولعل المعلم اشدنا احتياجا اليها .
والمعلم الفاشل يقف بين تلاميذه دكتاتورا ، يجعل من الحرف قيدا ومن التلميذ عبدا .
وما ان ينتهي المعلم حتى يتحول الافراد حوله الى عبيد او الى ببغاوات .
ومن يسلم تتقزز نفسه من صوت المعلم ، ومن وجهه الفولاذي ، ويقسم ان يحطم العبوديّة بألف مخبط ومخبط .
اذكر انني سألت الدكتورة نجاريان ، وهي استاذة علم النفس في الجامعة الاميركية ، ما هي صفة المعلم الناجح او الانسان الناجح ، فاجابت بابتسامة تريح كل نفس : « اقول لك باختصار ، حفنة من محبة ، القضية كل القضية ان يتزود المعلم وغير المعلم بحفنة من محبة . »
والمعلم الناجح من يمزج كل حرف من حروفه بنور المحبة ، يصغي الى تلامذته ، الى قلوبهم وعقولهم ليفهم ميولهم ، وينمي شخصياتهم لتترعرع وتتماوج خلقا وابداعا .
اذا خلت المحبة من قلب المعلم ، وتيبّست عروقه وتصلّب وجهه اخطأ المفتاح الذي يوصله الى قلوب الغير وعقولهم .
كل ما قلناه عن المعلم نقوله في غير المعلم لان غاية الحياة القصوى أن نفهم أسرار النفوس البشرية ، وندعو الى اعلاء شأنها واحترامها ، نغذيها بمعارفنا وننميها ، لتعود الينا ثقتنا بأنفسنا وثقة الناس بنا .
لو احترمنا الفرد الانسان واحببناه لجعلنا الهدف الاول ان نتكلم بلسان الانسانية ، لا ان نتاجر باسمها .
لا نحفر اسسا للكنائس والجوامع قبل أن نحفر اسسا للمدارس والمعاهد .
ولا ننقلب وعاظا نلبس لباس الحمل وفي قلوبنا سمُّ الافاعي .
لو احترمنا الفرد الانسان لكنا آباء واخوة واصدقاء غير انانيين ، يسعى كل منا لاعلاء شأن الانسان واحترامه بالمحبة التي لا تعرف غاية ولا مصلحة ، لانها فوق كل غاية وكل مصلحة .

ثريا ملحس

الاتزان النفسي

بقلم الدكتور جميل صليبا

٥

اذا وقعت اعينكم على رجل يغضب لادنى سبب ؛ ويثور لايسر كلمة ، فيرفع صوته تارة ويحرك يديه اخرى ويشوش على الناس مجالسهم — واذا شهدتم طالبا يتعب اعصابه بكثرة المطالعة ، فيقطب حاجبيه ويزداد قلقه وخوفه ، ويتوهم انه مصاب بضعف في ذاكرته ، ولا يدري وهو يحدق ببصره في كتابه ما يقرأ ام غابت عنه اشياء لم يفهمها — واذا رايتم موظفا مرتبكا في عمله ، مخلطا في معاملاته ، اوراقه مبعثرة ، واضباراته مشتتة ، يقف الناس على بابه ينتظرون حل مشكلاتهم فلا يعرف كيف يصرف امورهم ، ولا يستطيع ان يحكم بالعدل بينهم لغلبة الهوس على عقله — واذا سمعتم ان انسانا يبرم امرا قبل ان يفكر فيه ، او يفكر في امر تفكيرا طويلا ولا يبرمه ، او اخر فظا غليظ القلب ، بغيضا الى الناس ، يفكر في نفسه اكثر مما يفكر في غيره ، ويخاف في كل لحظة هبوب العاصفة عليه ، وشغب الناس به — واذا ابصرتم فتاة مرهفة الحس متقدة الذكاء زاد حياؤها حتى انقلب الى انكماش وخوف او رايتم امراة تشتم اولادها وزوجها كل يوم ، وتعادي اهلها ، وتصادق خادمتها — واذا قيل لكم ان هناك رجلا يخاف المخاطرة . ويخشى مقابلة الناس ، فيشك في قدرته على الكلام ، وفي قدرته على العمل — واذا رايتم فتى مترددا محبا للعزلة ، كثير الهم والغم ، عديم الجراة متشائما ، شديد الحرص كثير الانفعال — اذا رأيتم كل هذا فاحكموا على من اصيبوا به انهم اعداء الاتزان النفسي .

عرّفوا الاتزان النفسي بقولهم انه انسجام العقل والارادة والعاطفة ، فاذا سيطرت العواطف على العقل او سيطر العقل على العواطف حتى ايبس القلب ، او ضعفت الارادة حتى افقدت صاحبها كل جراة واقدام ، اضاع الانسان اتزانه وفقد ثقته بنفسه . ومن مظاهر فقدان الاتزان النفسي اضطراب الحركات ، وسرعة الانفعال ؛ واختلال الافكار ، وشدة الخجل والخوف ، وكثرة الغضب ، والانتقال السريع من الفرح الى الحزن او من الحزن الى الفرح ، والعجز عن ضبط النفس ، والانكماش والتردد والشك وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل ، واتهام الظروف عند الاخفاق في الحياة .

اذا استولت عليك هذه الانفعالات الهدامة افقدتك اتزانك ، واوقعتك في الاضطراب ، وجردتك من سلاحك وعاقتك عن التقدم والنجاح .

انك تشبه وانت في هذه الحالة قاربا صغيرا ليس له ملاح ، هبت عليه الريح فاخرجته من الساحل الى عرض البحر ، ثم تقاذفته الامواج ، فاخذ يعلو ويهبط ، ويذهب ذات اليمين او ذات الشمال ، ويدنو من الساحل او يبتعد عنه ، كانه ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال من القلق والاضطراب .

هذا القارب هو نفسك ، وهذه الامواج المحيطة به هي خطوب الزمان ومشكلاته . فاذا كنت كهذا القارب الصغير لا يسيرك ملاح ماهر ، ولا يثبتك على سطح اليم مجداف قوي فقدت اتزانك النفسي ، وجرفك التيار ، ووقعت في اللج المظلم . واذا كنت على العكس من ذلك قوي الارادة قادرا على قيادة نفسك ، مسيطرا على ميولك واهوائك ، كنت كسفينة بخارية يسيرها ملاح ماهر ، فتقطع امواج البحر ، وتسير الى الامام بلا تردد ولا اضطراب حتى تبلغ غايتك .

لنفرض الان انك كالقارب الصغير ، سريع الاضطراب كثير القلق ، وانك تفقد في بعض الاحيان اتزانك وتجاوز طورك ، ولنفرض انك تريد ان توتى القدرة على ضبط نفسك، فهل في وسعك ان تكتسب الاتزان العقلي والعاطفي واذا كان ذلك في وسعك فكيف السبيل اليه ؟

قد تكون حالتك من الحالات التي تستلزم استشارة الطبيب ، وقد تكون ايسر من ذلك واسهل علاجا . وها نحن اولاء ذاكرون لك هنا بعض القواعد التي يحسن بكل انسان اتباعها لضبط نفسه وحفظ اتزانه .

١ — ان اولى هذه القواعد هي العناية بصحتك . الجسم الة الفكر ، ولا سبيل الى النجاح في الحياة الا اذا كان الجسم سليما . فعليك اذن ان تهتم دائما بصحتك ونشاطك ، وان تهجر حياة السكون والخمول وتمتنع عن الاغراق في الشهوات . ان الاضطراب النفسي كثيرا ما ينشأ عن الافراط في الطعام او ادمان الشراب، او ارهاق الاعصاب بالعمل الشديد . ومن شرط الاتزان النفسي الاعتدال في كل شيء ، والعمل على تنظيم حياتك ووقاية اعصابك وحواسك من التعب والضنى .

٢ — والقاعدة الثانية ان تعرف حياتك معرفة صحيحة وان لا تكلف نفسك الا وسعها . ما اكثر الناس الذين يتصورون انهم في غيابة الجب بلا معين ينقذهم . انهم ينظرون الى انفسهم فيجدونها محاطة بكثير من الاعباء والمنغصات . ويظنون انه يجب عليهم ان يحلوا جميع مشكلاتهم في لحظة واحدة . فاذا وجدوا انها لا تحل في يوم واحد كثر غمهم وازداد قلقهم . ولو انهم تصوروا حياتهم تصورا صحيحا لصانتهم من القلق والاضطراب . انظر الى الساعة الرملية . ان بين طرفيها المكورين انبوبة لا ينفذ منها سوى حبة واحدة من الرمل في وقت واحد . فاذا هجمت عليك المشكلات واردت حلها فاذكر انبوبة الرمل واعلم ان المشكلات لا تجيء اليك الا واحدة بعد واحدة . فابدأ اذن بحل مشكلة واحدة من مشكلاتك ، ثم

بعض معاني الجدل او الديالكتيك

بقلم الدكتور عبد الكريم اليافي

استاذ فلسفة التاريخ وعلم الجمال بالجامعة السورية

جاء في كتاب « دستور العلماء » للقاضي الاحمد نكري : « الجدل ، القوة والخصومة، وفي اصطلاح المنطقيين قياس مؤلف من قضايا مشهورة او مسلمة لانتاج قول آخر. والجدلي قد يكون سائلا ، وغاية سعيه الزام الخصم وافحام من هو قاصر عن ادراك مقدمات البرهان ، وقد يكون مجيبا وغرضه ان لا يصير مطرح الالزام (١) ». للجدل اذن معنى لغوي ومعنى منطقي . وهذا المعنى المنطقي الذي ذكره المؤلف هو احد معاني الجدل الفلسفية . وقد دخل الى فلسفة العرب مع ما دخل اليها من عناصر فلسفة اليونان .

الجدل حركة الفكر الحي ، فوجوده متصل بوجود الفكر ؛ ولكنه اتخذ معاني متعددة في تاريخ الفلسفة . ولعل اقدم الفلاسفة الذين انتبهوا الى حركة الفكر هذه ونوهوا بالجدل الفلسفي وتبينوا خصائصه هو الفيلسوف اليوناني هيراقليط الذي عاش قبل الميلاد بنحو خمسة قرون . لقد استرعى تامل هذا الفيلسوف تبدل الاشياء الدائم وتغيرها المستمر فعارض الفيلسوف الايلي بارمنيدس حين الح هذا على الوجود او الكينونة وجعله اصل الاشياء السرمد ، ومنع التغير فيه والتبدل . فراى هيراقليط على خلافه ان كل شيء موجود ، ولكنه في الوقت نفسه غير موجود ، لانه لا يبقى على حالته بل يتبدل ويتغير ، فالصغير يكبر ، والكبير يهرم ، والحي يموت ، والمتجمع يتفرق ، والمتفرق يتجمع وهكذا . « كل شيء يمضي ، ولا شيء يبقى » . الزمان عنده كلاعب الشطرنج ، ما ينفك يبدل رقعة الشطرنج تبديلا دائما . والانسان عنده لا يستطيع ان يستحم في النهر ذاته مرتين لان قطرات الماء تجري وتمضي فهي تتبدل ولان الانسان نفسه تتغير مشاعره وتتبدل حالته النفسية ايضا . هنالك تغير يسيطر على الاشياء والظواهر يحدث فيها تفاوتا واختلافا وتناقضا .

في آراء هيراقليط هذه عناصر الجدل المأخوذ بالمعنى الفلسفي الحديث ولا سيما فكرة التغير المستند الى اختلاف الحدود وتناقضهما .

ولكن جدل هيراقليط لم يبق هو نفسه ، بل كان هو ايضا عرضة للتغير ، اذ انتقل الى بعض الفلاسفة الذين اتوا من بعده . فقد اصبح عند السفسطائيين تفننا في المحادثة ومهارة في المناقشة وقدرة على تصريف الآراء وحذقا في تهديم اقوال الاخرين بالكشف عن تناقضاتهم . وبرع سقراط وهو اخر السفسطائيين واعظمهم في المناقشة وفي ابراز التناقض في اقوال خصومه ومخاطبيه محاولا في ذلك ان ينتهي بهم الى المعاني الكلية على خلاف

(١) طبع الهند ج ١ ، ص ٣٨٥

انتقل منها الى غيرها ، ولا تؤجل عملا الى الغد ، فقد يكون عليك مثلا ان تقوم بمائة عمل في النهار ، ولكن هذه الاعمال لا تنجز كلها دفعة واحدة . تصور نفسك دائما شبيها بالساعة الرملية التي لا ينفذ من انبوبها الا حبة واحدة من الرمل . هكذا تستطيع أن تحل مشكلاتك كلها في هدوء ونظام . ان لكل لحظة من حياتك عملا واحدا ، فلا تفكر الا فيه ، ولا تخف من تبعات المستقبل .

٣ ـ والقاعدة الثالثة ان لا تهتم بما يقوله الناس ، وان لا تجعل غايتك من الحياة الفوز بثنائهم عليك والتفاتهم اليك . انك اذا فعلت ذلك كنت كالاطفال الصغار الذين لا يهتمون الا بثناء الناس عليهم . انك لا تطيق ان يغفل الناس ذكرك ، وتريد ان يمدحوك ويذكروا مزاياك . فهل تفوز دائما بتقدير الناس لمواهبك هل تستطيع ان تتجنب الذم ؟ ان الواقع الاليم يكذب ذلك . فاذا ذمك الناس اعتراك الاضطراب . واذا لم تفز منهم بما ترى نفسك اهلا له عشت في قلق وغم . والسبيل الى اتقاء هذا الاضطراب ان تتوقع دائما قلة الثناء وعدم التقدير ، وان لا تبالي بما يقوله الناس عليك .

٤ ـ والقاعدة الرابعة ان تتصور الصحيح مكسورا والمكسور صحيحا . فاذا كنت تملك سيارة جميلة ، فتصور انكسار احد اجزائها . انك اذا تصورت ذلك في بداية الامر لم تحزن عليه عند وقوعه . واذا انقطعت اوتار العود الذي تعزف عليه فتصور دائما امكان اصلاحها . واياك ان تقف ساعة واحدة عن العزف حتى لو انقطعت جميع اوتارك .

حاذر ان تتضاءل حياتك مهما يكلفك ذلك من جهد . ان المتقاعدين عن العمل اشقى خلق الله لانهم يعتقدون ان قوتهم قد ضعفت ، وانه ينبغي لهم ان يخففوا تبعاتهم ، ومن اجل هذا يتخلون عن معظم وجوه نشاطهم ، ويأبون ان يقوموا بأي عمل جديد . وهكذا تصبح حياتهم مركزة في ذواتهم ، ويؤدي ذلك الى شعورهم بالقلق والاضطراب . ولو ترصدوا الفرص لاستثمار ما عندهم من قوى كامنة لتابعوا نشاطهم ووسعوا آفاقهم .

واخيرا ان كثيرا ممن تتعبهم مشكلات الحياة تصبو نفوسهم الى حياة اسمى من حياتهم الواقعية . انهم يتطلعون الى عالم لا تعصف به الريح ، ولا تتقاذفه الامواج ، فيسيرون دفة سفينتهم في امن وسلام حتى يبلغوا مغرب الشمس ، هؤلاء الرجال بلغوا من الاتزان النفسي درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد ، انهم ينتصرون على مشكلات الحياة ، ويستقبلون الموت جذلين فرحين ، لانهم يؤمنون بالمثل الاعلى ، ويثقون بانفسهم ، ويحملون نصيبهم من العبء المشترك . وهذا الايمان بالمثل الاعلى يحمي عقولهم من الاضطراب ونفوسهم من القلق . فاذا شئنا ان نكون كهؤلاء الابطال ، فلنؤمن بالمثل الاعلى ، ولنملأ قلوبنا رجاء ، ولنتدرع بالصبر ، اننا اذا فعلنا ذلك لم نخش الامواج والعواصف المحيطة بنا ، ولم نيأس من النجاة ، بل سرنا على هامة الزمان بخطى متئدة حتى نبلغ الشاطىء الامين .

دمشق — جميل صليبا

السفسطائيين الذين كانوا يرون الافكار فردية شخصية نسبية لا كلية عامة مطلقة . كان سقراط على حد تعبيره يولد بجدله افكار الناس فكان الجدل عنده عبارة عن توليد الافكار او المايوتيك Maïeutique

ثم انتقل الجدل الى افلاطون . ولقد تأثر افلاطون بالفلسفات التي كانت قبله فأخذ عناصرها وركبها تركيبا جديدا ، واضفى عليها حلة قشيبة من نسجه فالتبدل والتغير جاريان في هذا العالم المحسوس الذي تملؤه الاشياء المتبدلة المتغيرة . ولكن فوق هذا العالم المحسوس عالما معقولا اقوى حقيقة واعلى قيمة تعمره المعاني الكلية التي نوه بها سقراط ، وهي ذات وجود فيه ازلي وابدي اي ذات وجود على الشكل الذي يتصوره بارمنيدس . وبهذا الاعتبار يقع الجدل في العالم المحسوس ليس غير ، ولا يبلغ الى العالم المعقول . ويطلق مؤرخو الفلسفة لفظ الجدل عند افلاطون على اعتماد الآراء المتعارفة حول الاشياء الحسية المتبدلة والانتقال منها الى آراء وقضايا اعم شيئا فشيئا حتى يرتفع الباحث الى العالم المعقول الذي هو نهاية بحثه وجهده واستقصائه ويتأمل عندئذ تلك المعاني الكلية او « المثل » السرمدية الخالدة التي لا تتبدل ولا تتغير .

والجدل عند افلاطون نوعان : جدل الفكر وهو الرياضيات التي كشف في اتساقها وترتيبها ومعقوليتها عن نظام تلك المثل ؛ وجدل القلب وهو الحب وولع النفس بالصور الجميلة وتجاوزها الى المعاني الكلية الجميلة والبلوغ في النهاية الى تأمل الجمال الخالص في ذاته . ويتضح ان الجدل ذو مكانة في المعرفة والاطلاع عند افلاطون ، ولكنه يبقى ضمن العالم المحسوس الذي هو عنده وهم وسراب وظلال بالنسبة الى العالم المعقول الحقيقي . هو وسيلة توصلنا الى العالم الفكري الخالد ولكنها تنحسر دونه ولا تستطيع النفوذ اليه .

واتى ارسطو فانخفضت مكانة الجدل عنده اذ اعتبره نوعا من الاستدلال يعتمد على القضايا والمقدمات الاحتمالية التي لا تفضي الى اليقين .

ثم اصبح الجدل عند اليونان وفي العصور الوسطى يفيد المنطق الصوري .

ولقد شاع معنى الجدل عند العرب ، كما ذكرنا في بداية البحث ، بمعنى القياس المعتمد على القضايا المشهورة او الاحتمالية او المسلمة ؛ ولكن طبيعة الجدل وهي اعتماد الفكر على الاضداد ما برحت تظهر عند المفكرين ولا سيما المتصوفين .

وظهر الجدل بهذا الاعتبار عند الشاعر العربي المشهور ابي تمام اذ نجده قد انتبه قبل هيغل بكثير الى ان الفكر يعتمد في نشاطه على حدين ضدين لا يلبث ان يتجاوزهما الى حد ثالث هو تركيب لهما . انظر الى قوله :

من سجايا الطلول الا تجيبا   فصواب من مقلتي ان تصوبا
فاسألنها واجعل بكاك جوابا   تجد الدمع سائلا ومجيبا

الا ترى الى الشاعر كيف التمس سؤال الاطلال ثم جعل سؤاله البكاء ثم ركب هذين الحدين المتقابلين وهما السؤال والجواب فانتهى الى الدمع الذي هو السائل والمجيب اذ سال الشاعر الاطلال بدمعه واجاب عن سؤاله بدمعه ايضا . هنا يتجاوز هذا الشعر القيمة البلاغية التي هي الطباق ويحقق قيمة فلسفية حين يعتمد اعتمادا اصيلا على هذه الحدود الثلاثة التي هي الاطروحة والطباق والتركيب كما سوف نجد في الجدل الحديث .

وكذلك قوله مادحا :

شرست، بل لنت ، بل قانيت ذاك بذا   فانت لا شك فيك السهل والجبل

هذا البيت الذي لا يحبه لتعقيده علماء البلاغة مع ما اشتمل عليه من محسنات بديعية ، ذو اهمية من الوجهة الجدلية لان الحدود الثلاثة بارزة فيه .

وكذلك نجد عند كثير من المتصوفين المسلمين اقوالا تسفر فيها حركة الفكر الجدلية اسفارا، ولا نريد ان نتعرض لهذه الاقوال خشية لزوم شرحها وما يتبع ذلك من استطراد وتطويل .

ثم نجد في الفلسفة الحديثة ان الفيلسوف الالماني «كانط» قد خفض الجدل كما صنع ارسطو قديمافاطلقهعلى منطق الظاهر والاستدلال الوهمي ودراستهما وانتقادهما .

حتى جاء هيغل . وعندئذ يبرز الجدل من جديد قويا رفيع المكانة، لانه يغدو في راي هذا الفيلسوف القانون المنطقي الذي يتبعه الفكر في حركته ويسلكه الواقع في تبدله ونشوئه . يرى هيغل ان ما هو واقعي عقلي وان ما هو عقلي واقعي . فيستطيع الانسان اذن قبل ان يعمد الى التجربة الحسية ان يشرح ويفسر بقواه الفكرية الخاصة ما هو موجود في العالم وما هو خارج عنه ايضا . وافكارنا تطابق الواقع وتشف عنه اذا ركبت بمقتضى الجدل . وهو منطق حي يجري مع حركة الفكر كما قدمنا فيكشف في جريه هذا عن تناقضات لا يلبثان يؤلف بينها وان يتجاوزها والكون كله يتيسر تفسيره بسلسلة متراكمة متراكبة كل جزء منها ذو ثلاثة حدود ، حيث يثبت الفكر اولا فكرة هي الاثبات ثم يقابلها بالنفي ثم ينفي النفي . وندعو اليوم الاثبات اطروحة ، والنفي الاول طباقا ، ونفي النفي تركيبا . وابسط الفكر واكثرها تجريدا الموجود او الكينونة . وهي تستدعي بالضرورة نقيضها وهو اللاوجود او اللاكينونة ، لان كلا الحدين لا يفهم الا بالاخر . وبين الوجود واللاوجود تناقض نتجاوزه بتركيبهما الذي هو الصيرورة اي التبدل وهلم جرا ... ومن اجل ذلك كانت فلسفة هيغل تشبه فلسفة هيراقليط في الالحاح على التبدل والتغير مع الزمان . وتدعى فلسفة هيغل بالجدلية المثالية لانها تعتبر الاصل الفكر لا المادة .

وخلف هيغل تلميذه ماركس فتأثر بآرائه ولكنه خالفه في المثالية اذ اعتبر اصل الجدل في المادة لا في الفكر . وبعاونه في ذلك انغلز . يقول ماركس : « طريقتي الجدلية تختلف في اصلها عن الطريقة الهيغلية ، بل هي عكسها تماما . هيغل يشخص حركة الفكر ويجعلها البناء الحاذق الذي يبني الواقع ثم يعتبر الواقع الشكل الظاهر لذلك الفكر ، وانا على عكسه انما ارى حركة الفكر انعكاسا للحركة الواقعية نقلت الى ذهن الانسان ووضعت فبه » .

يعوّل ماركس على الجدل ولكنه يمنع التلاعب الماهر بالافكار كما صنع هيغل ، ويحاول الكشف عن التناقض في الطبيعة وفي التاريخ وفي الواقع النابض . الاصل عنده المادة لا الفكر خلافا لهيغل ، ولذلك سميت طريقته المادية الجدلية .

الطبيعة عند ماركس مترابطة الاجزاء يؤثر بعضها في بعض ، فبين الاطروحة فيها والطباق تبادل في التأثير، وليست حاصلة من تراكم الاشياء تراكما عرضيا ولا من

ترادف الحوادث ترادفا مشتتا .

والطبيعة ايضا في تغير مستمر وتجدد لا ينقطع ، وتبدل لا يهدأ . بعض الامور ينشأ فيها وينمو ، وبعضها يضمحل ويبيد . هي في حركة سرمدية .

والنشوء في الطبيعة حادثة انتقال من تغيرات كمية خفيفة تافهة الى تغيرات كيفية ظاهرة مهمة . وهذه التغيرات سريعة فجائية تحصل بالضرورة وتطفر من حال الى حال .

ثم ان الماهيات والظواهر في الطبيعة تشمل تناقضات حميمة لان لكل منها جانبا سالبا واخر موجبا . جانبا يطل على الماضي وجانبا يطل على المستقبل ، جانبا يضمحل فيه بعض العناصر ، وجانبا تنشأ فيه عناصر اخرى . فالنزاع بين هذه الاضداد هو كنه حادثة النشوء ومضمون انقلاب التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

والمجتمع الانساني خاضع للجدل ايضا ولاصطراع الاضداد . وعندما تدخل المادية الجدلية ميدان الحياة الاجتماعية تتخذ اسما خاصا لها فتدعى المادية التاريخية .

ويستشهد فلاسفة الجدل بامثلة كثيرة في العلوم على صحة آرائهم . ولكن تقدم الفيزياء الحديث وقد غدت في العصر الحاضر سيدة العلوم قد جعل العلماء ايضا ينوهون بنوع من الجدل يدعونه الجدل العلمي (1) عناصره تشبه تقريبا العناصر التي الفيناها عند هيغل وعند ماركس

فمن المعلوم ان الفيزياء الحديثة قد كشفت عن صفتين متناقضتين للنور وهما الصفة الموجية والصفة الجسيمية . فلا تلوح للباحث احداهما الا وتحتجب الثانية ، كان الصفة الاولى اطروحة والثانية طباقها وهما قد اجتمعتا في النور ، ومثل هذا قائم في طبيعة المادة ايضا بحسب نظرية الميكانيك الموجية التي نوه بها العالم الافرنسي لويس دوبروي وبحسب نظرية الكوانتا الجديدة التي نوه بها العالم الالماني هيزنبرغ .

ومثل هذه التقابل في صفات النور والمادة نجده في صفات المعرفة العلمية . ذلك ان المعرفة العلمية الحديثة ذاتية وموضوعية معا لانها تتعلق بمناهج الدراسة كما تتعلق بالاشياء المدروسة . اصبح المجرب لا يستطيع ان يجرب في الجسيمات الدقيقة التي يدرسها في الميكروفيزياء دون ان تؤثر تجربته هذه في صفات هذه الجسيمات أي في نتائج القياس .

وكذلك من الصفات الجدلية التي للمعرفة العلمية الحديثة انها لا تستقي اصولها من الامور العينية المشخصة وحدها ، ولا من الامور المجردة وحدها بل من هذين النوعين من الامور كان ثمة محاورة دائمة بينهما ترفد العلم بمعينها . كان الباحثون قبلا يرون ان الادراك يعطينا الشيء في هويته ، وفي حقيقته العينية المشخصة ثم يعول الفكر على هذا الادراك لينشىء الفكرة المجردة او المعنى العام من صفات ذلك الشيء المدرك الاساسية . ولكن هذا الاعتبار نظري محض لان حدس المشخص الصرف كتخيل المجرد الصرف كلاهما افتراض . ذلك ان الحدس ليس في الحقيقة الا ضربا من المعرفة تقريبيا مختزلا ، مشوبا ببوادر التجربة العفوي ، وبالمقابل لا بد للفكر في تجريداته من مستند حسي في الحين بعد الحين يصدر عنه او يؤوب اليه ، وان كان يتجاوزه ويبتعد عنه في غالب الاحيان . فهو يعتمد على المشخص ، ولكنه يتجاوزه . وهو ايضا ينشيء المجرد ولكنه لا يمكث فيه بل سرعان ما يلتمس له صورا عينية اوتحقيقاتمشخصة عملية .

ومثل هذه المحاورة المتواصلة بين المشخص والمجرد محاورة الاشكال القبلية à priori أي قبل التجربة والاشكال البعيدية à posteriori ، أي بعد التجربة فلقد طالما تناقش الفلاسفة والعلماء من قبل في اصل المعرفة . فكان فريق من الفلاسفة ينسب الى الفكر الانساني فكرا او اطرا مستقلة عن التجربة موجودة فيه ملازمة له قبل ان يتصل عن طريق الحواس بالاشياء التي تعمر العالم الحسي . وكان بعض العلماء على العكس يردون اصل المعرفة الى تجربة هذه الاشياء ، فالمعرفة تاتي بعد هذه التجربة .

لكن العلم الحديث يرى ان المعرفة ليست كلها قبلية ولا كلها بعدية . ليس ثمة محاكمة عقلية تشتغل على فراغ كما ليس ثمة معلومات تجريبية صرف مشتتة مفككة . وليس هنالك مقولات ذهنية لم تستفد قط في الاصل من الواقع ، ولا هناك حدث فطير لم يمسه الفكر ولا تناوله بشيء من التهيئة والتنشئة .

واذا صح هذا التأثير المتبادل بين الفكر والتجربة كانت المعرفة العلمية الناشئة عنهما رهينة بالوقت الذي حصلت فيه ، وكانت رهينة التطور الدائم . وهذا شبه ايضا بين الجدل الفلسفي وبين الجدل العلمي الحديث . المعرفة العلمية اذن ذات صفة تاريخية بمعنى انها تابعة لعصر معين وبمعنى انها من اجل ذلك قد صدرت عن مرحلة سابقة مرت بها ، واعتمدت على المعلومات التي كانت مكتسبة في ذلك الوقت ، ولكنها قد داخلت فيها بعض التعديل والتبديل ولاءمت بينها وبين الاستعمالات الطارئة والتجارب المستحدثة والافكار المستجدة .

واذا كانت المعرفة العلمية تاريخية وجدلية بهذا الاعتبار كانت غير مكتملة ، لانها متعلقة بالزمان وتابعة للعصر الذي تحصلت فيه . ان العلم على حد تعبير الفكر الفرنسي الحديث بشلار لغز يتجدد او هو حل لمشكلة لا يلبث ان يفضي الى مشكلة جديدة . ويجب ان نشير الى ان هذا لا يقدح شيئا في قيمة العلم لان صحة المعرفة مرتبطة بصحة التحقيقات العلمية ومتصلة بنجوع التجارب . فهي تشتمل حتما على جانب من اليقين وان كان غير نهائي ولا ابدي .

والصفة التاريخية للمعرفة وعدم اكتمالها يقتضيان اتجاها فكريا جديدا ، وهو ان الفكر ينبغي ان يبقى مفتوحا اي متهيئا لالتقاط اي فكرة جديدة ولو غايرت الفكرة التي كانت مقبولة ، بل اكثر من ذلك ينبغي ان يبتدر هذه الفكرة الجديدة ويسعي اليها سعيا .

وخلاصة الراي ان الجدل العلمي الحديث زيادة على عناصر الجدل الفلسفي التي رأيناها معناه ان يبقى الفكر مستوفز النشاط ، متيقظ الانتباه ، متشوقا الى التقدم والكشوف الجديدة ، لا يكاد يطمئن الى مرحلة الا ويحاول مغادرتها ، ولا يخلد الى معلومات مكتسبة الا ويتبين ما فيها من عدم اكتمال فيسعى الى تجاوزها . ان الجدل معناه التجدد الفكري الدائم .

دمشق — **عبد الكريم اليافي**

(1) انظر كتابنا الفيزياء الحديثة والفلسفة .

بردى

لخليل مردم بك

★

عاطيتني السحر أم مشمولة الراح
لله كم أسكرت عيناك يا صاح
لو شئت ان يصحوَ المخمور جدت له
مما بخديك من ورد وتفاح
تشفي المراشف والالحاظ جارحة
يا دين قلبي من آس وجرّاح
هل المشيب وان شاعت طلائعه
اذا التقينا لأحلام الصبا ماح
دع العذول يمت من غيظه كمدا
ماذا يقول لحاه الله من لاح
رثيت للطيف من عيني ومن خلدي
يبيت ما بين خفاق وسفاح
ان هاجت الريح اشواقي فلا عجب
فالنار تورى بأنفاس وارياح

★ ★ ★

يا يوم بحبوحة الوادي على (بردى)
شفيت غلة صادي القلب ملواح
نهر عرائسه من عبقر عزفت
له ولاحت بارواح واشباح
اهلٌ كالطفل وضاء مخايله
دلت على مائر العطفين طماح
قامت حواضنه من جانبيه على
اغر ازهر نضر الوجه نضّاح
يحبو وينمو وما ينفك مطردا
بغرة ذات لألآء واوضاح
حتى يصير الى ملآن من صلف
صعب القياد جهير الصوت رحراح
شاكي السلاح من القصباء حيث جرى
يصول منها باسياف وارماح
ما ارتدّ مذ سار في سهل ولا جبل
كذاك يبلغ ان لم ينكص الناحي

★ ★ ★

يريك في جريه من مائه صورا
تبدو على ثبج منه وضحضاح
ما بين منسرب او مزبد لجب
او مستدير كظهر الترس مِنداح

اذا تموج مختالا بجريته
عجبت من قابض كفا ومن داح
ما مر في بقعة الا وخاطبها
طورا بغمغمة طورا بافصاح
في كل مرحلة لحن فمن هزج
الى هدير الى ترنيم نوّاح
يجد في ضيقه حتى اذا انفرجت
ضفافه سار رهوا سير ممراح
ان دغدغته الصبا آبت بعبسته
لكنها عبسة السكير للراح
وان تلاطم او جاشت غواربه
سمعت من موجه تصفيق مفراح
وان تململ في الوادي وضاق به
سمعت همهمة من صدر طلّاح

★ ★ ★

سَمْح فان عارضته هوة قذف
اراك اقدام وثّاب ودلاّح
هوى وعج ولم يرفع ذلاذله
من تيهه ورمى عن قوس نضّاح
يرغو ويزبد منهلاً بكوكبه
من نابل اثر سياف ورمّاح
رشاشه وهو مبثوث هنا وهنا
مثل الفراش تهاوى حول مصباح
او سرب نحل مثار في خليته
او وابل في مهب الريح سحّاح
او عقد در وهي من نحر غانية
او منتحى اكر يرمي بها الطاحي

★ ★ ★

اذا تشعب في الوادي حسبت يدا
مدّت اصابعها من كف سماح
وان تغلغل في روض كساه حلى
فمن وشاح الى عقد الى داح
يختال في موكب جذلى بلابله
يحكي بشاشة اعراس وافراح
وكم تمطى باعطاف مرنحة
في رفرف كجنان الخلد فيّاح
تخاله ذيل طاووس اذا لمعت
ازهاره بين مخضر وميّاح
والشمس ترسل من خيطانها شبكا
على كرائم در منه لمّاح
تفنن النور في تلوين بردته
صبغا ونفضا بامساء واصباح

اذا الاصيل تراءى فوق زرقته
فالفجر في الافق من خلف الدجى ضاح
أين المجرة من نهر يشع سنا
كم بين جهم وطلق الوجه وضاح
ما نجمها مثل نجم في جوانبه
من كل لون بديع النظم نفّاح

* * *

حيته من عذبات البان الوية
ومن هواتفها ترجيع صدّاح
اذا ترنح غصن تحت ساجعة
لم تدر ايهما النشوان والصاحي
ترى الفراش على ازهاره مرحا
يعبّ منها باكواب واقداح
فان تهافت حول الزهر رفرفة
حسبته شررا من زند قدّاح
ورب صفصافة قد اطرقت خجلا
اذ شمّر الحور عن ساق كسبّاح
جم التلفت ذو وجهين يدفعه
اذا تمايل زند التين بالسراح
والزهر يلوي باعناق ويبسم عن
در ويرنو بعين ذات تلماح
نشوان انفاسه نمّت عليه فمن
زاك ومن عبق بالسر بوّاح
يا ايها الشارب النشوان كم نفس
وان حرصت على الكتمان فضّاح
تمر بالزيزفون الريح رواية
عن طيب النشر والانفاس فوّاح
(والجلنار) اذا مال النسيم به
نار مؤججة او عرف صيّاح
جنات عدن بها من كل فاكهة
ومن ثمار واعناب واطلاح

* * *

بثّ الحياة وبث الحسن حيث جرى
وانساح بورك من جار ومنساح
هذي (دمشق) بما فيها هديته
اكرم بها منحة اكرم بمنّاح
في (الغوطتين) وفيها منظر عجب
بحر تعوم عليه ذات الواح
يا من راى قبل نهرا انشأت يده
بحرا يموج باشجار وادواح

* * *

كم وقفة في ظلال الايك من (بردى)
وبين ادغاله والجزع والساح
كنا كزوجي حمام ناعمين ضحى
هذي تزق وذا مستطعم شاح
كلاهما طالب بالدين صاحبه
ملحاحة تقتضي من عند ملحاح
اذا تلاحم منقاراهما اختلجا
وامتد عنقان من عطشى وملتاح
ورفرفا غبطة واهتز راسهما
رفعا وخفضا ومن ناح الى ناح
تبادلا الزق معسولا بريقهما
ومازجا بين ارواح وارواح
لا يشبعان ولا يروى غليلهما
والعذب يغري بافراط والحاح
تحز في كبدي الذكرى وتوهجها
وربما فرّجت همي واتراحي
وتبعث الوجد حيا والتشوق في
قلب لعهد الصبا والحب مرتاح
قف موقفي بضفاف النهر تلق به
بحرا من الشعر عجاجا لمتاح
يا ناعما بحماه انت في ملأ
ترى وتسمع فيه الملهم الواحي

* * *

قل للذي كدّر الصافي رويدك لا
تبغ الفساد به من بعد اصلاح
وردت اعذب ورد من مشاعره
فكف عنه اذى باغ ومجتاح
لم ترع حرمة وادٍ بت تقذفه
بكل خطب يشيب الطفل فدّاح
مرعى انيق لاسراب الظباء فلا
تجعله دمنة نعّار ونطّاح
وارفق بزغب على الاعشاش جائمة
من كل اسود ذي نابين فحّاح
ولا ترع وادع الحملان راتعة
بظفر ذئب ولا سكين ذبّاح
فالمنزل الخصب ما لم ترع حوزته
يؤول معشبه يوما لمنصاح
يا معطي القفل اعيا من يعالجه
ما نفع قفل عصى من غير مفتاح
سفينة عصفت هوج الرياح بها
ليلا فخفت عليها جور ملّاح
ارى الكنانة تشقى في مواطنها
والرمز ابلغ من شرح وايضاح
عليّ ان ارسل السهم المصيب وما
علي ان لم يغب في جلد تمساح

دمشق — **خليل مردم بك**

ماهية التطور الاجتماعي في نظر جينزبرج

بقلم اميـل توفيـق
مدرس اول العلوم قسم الدرجة الخاصة بجامعة لندن

° ° °

يعتبر العلامة جينزبرج Ginsberg ان التطور الاجتماعي (١) ينطوي على عملية تغير ، ينتج عنها حدث جديد ، ولكنه في الوقت نفسه حدث متسق في نظام مستمر دائم التحول . فالتطور ليس هو بالضرورة الحركة المتقدمة من البسيط الى المركب (وهي فكرة ما تزال جدلية) فالنظم الاجتماعية كاللغات البدائية ، او انظمة القرابة مثلا ، ليست بالضرورة ابسط منها في مجتمعاتنا الحديثة . ان ما يمكن ان نتأكد منه هو ان التطور ينطوي على تجدد مستمر ، او استمرار متجدد .

« فالجديد » يقال انه كامن او مقدر potential في « القديم » ولكي تتضح هذه الفكرة نقول ان الشيء يوجد كامنا أي ان وجوده مقدر عندما تكون الظروف المحيطة قابلة لان تبعث من العوامل النوعية ما يعمل على اظهاره . وليست كل الظروف الاضافية قابلة بالضرورة لاظهار الحدث الجديد . فالظروف المضافة ينبغي الا تكون قوتها بدرجة تحطم معها فردية الحدث الجديد المقدر حدوثه ، او بدرجة تهلك معها الاستمرار الاجتماعي المنطوي على حدوث هذا الحدث المنبثق مع الاحداث الجارية . فالواقع انه لا بد ـ في معنى التطور ـ ان يوجد شيء جديد ، ومع ذلك فلا بد ان يكون هذا استمرارا لشيء قديم ، عن طريق عملية التقدم فهنا نلحظ شكلا من العلاقة بين الاستمرار والتغير permanence & change

ولكي نقترب من فهم تلك العلاقة بين الاستمرار والتغير ، ينبغي ان نشير الى انهما (الاستمرار والتغير) لا يدلان على وحدات كلية مكتفية بذاتها self-sufficient entities بل انهما في الحقيقة مظهران من مظاهر الوجود الحسي .

فالشيء المستمر The continuant هو سلسلة من المظاهر التي ترتبط جميعها بعلاقة واحدة او بعبارة اخرى انه اذا ارتبطت المظاهر بعلاقة واحدة تجمعها في كل او في وحدة ، فهذه السلسلة من المظاهر تكون الحدث المستمر . وتدرك هذه العلاقة بصفة مبدئية على انها نوع خاص من السببية المترابطة اعني السببية المنتظرة او المقدرة (أي العلة ذات النتيجة المرتقبة) . ويصف جونسون هذا الاستمرار فيقول ان هناك كل الدرجات المتدرجة التي تمثل هذه الوحدة من الاحداث المستمرة . وتتدرج او تختلف هذه الدرجات تبعا لتعقد العلاقات التي تمثلها هذه السببية المرتقبة immanent causality او السببية التي تحدث عن نتائج غير مباشرة transeunt Causality وهي العلاقات التي تمثلها هذه الاحداث الجارية .

ونحن الان نستطيع ان نصف التطور بالقول انه العملية التي يتحقق بها وجود المقدرات potentialities لهذا المستمر بواسطة السببية المرتقبة وكذلك ـ باحتمال اقل ـ بواسطة السببية غير المباشرة (او المتحولة) .

فالشروط او الظروف المضافة والضرورية لتحقيق وجود هذه المقدرات ينبغي ان تنتمي الى حد كبير الى النماذج الاولى لهذا الشيء المستمر بواسطة السببية المرتقبة بمعنى ان شرط اظهار تلك المقدرات هو ان يكون بين الظروف والاحداث الاولى ـ للشيء الواجب استمراره ـ علاقة سببية مرتقبة . على ان التقدم الاجتماعي المستمر لا تقتصر تحديده على ذلك فحسب ، اذ ينبغي لهذا المستمر continuant ان يتفاعل في بيئة ان كان له ان يستمر .

ويمكنا ان نجمل فنقول ان المصادر الاولى للتغير الاجتماعي ترجع الى قوى مرتقبة immanent forces فهناك عوامل مرتقبة تتضمنها عمليات التغير الاجتماعي ، ولكي يفهم التطور الاجتماعي علينا ان نبحث طبيعة هذه العوامل المرتقبة ونتحقق من علاقاتها بالعوامل الخارجية كالبيئة مثلا .

ومن دراسة الاشكال المختلفة للتقدم الحضاري يمكنا ان نستنتج قاعدتين هامتين :

(١) يسير التقدم الاجتماعي بحيث ان «الوحدة» التي يمثلها الحدث المستمر . . . تتمايز فيها اجزاؤها ، اي تصبح متميزة او متناضلة ، على رغم ان الوحدة الكلية تبقى في نظامها المتسق . ان هناك وحدة او كلا . . . والتقدم ينطوي على تمايز اجزاء لهذه الوحدة ، وتفاضل لصفات هذه الاجزاء التي كانت ذائبة في هذه الوحدة .

(٢) او ان يسير التقدم الاجتماعي بحيث ان تتكامل اجزاء وتنتظم في « وحدة » دون ان تفقد هذه الاجزاء لميزاتها وصفاتها . اي ان تتكامل اجزاء نحو وحدة لم تكن في الاصل موجودة . وهنا عملية تكوين Synthesis ولكن يجب ان يفهم انه حيثما يكون التقدم من هذا الطراز ، فالاجزاء الداخلة في بناء الوحدة كانت اصلا في مستمر اوسع واشمل بحيث كانت لها علاقات تناسبية .

* * *

وهنا ينبغي ان نسأل هل تاريخ الحضارة الانسانية يمثل حدثا مستمرا تتنابه التغيرات الحادثة عن طريق السببية المرتقبة ؟ أي هل عناصر الحضارة كاللغة والدين والعلم تشمل احداثا مستمرة تدخل في وحدة معينة لها طبيعة التفاعل بالسببية المباشرة .

١) مرجع البحث Studies in Sociology: Morris Ginsberg

فاللغة مثلا تعتبر كلا مركبا تركيبا محدداوله شكل معين وهذا الشكل يميل الى الاستمرار في كيانه ، فاذا حدث نوع من الاخلال بالتوازن في اللغة ــ بطريق ما ــ فان هذا الاخلال يصحح بطريق التغيرات التي تمثل التكيف لخلق توازن جديد .

ولكن ينبغي ان يصحح تعبيرنا ، فليس هناك شيء اسمه الحدث المستمر في الدين او في اللغة او في العلم . فليست اللغة كلا يتطور مستقلا عن الناس وعن المجتمع انما الصحيح هو ان التقدم هو تقدم الناس في مجتمعاتها . وهؤلاء الناس هم الذين يتكلمون اللغة ويؤمنون بالدين . ونحن انما نستخدم تعبيراتنا لمجرد الملاءمة عندما نقول تطور العناصر الحضارية ونحن نعني بتطور اللغة او الاخلاق او الدين كمظهر من مظاهر التطور في المجتمع . وعلى ذلك فتقدم ظاهرة من الظواهر انما يفهم في علاقته بالظواهر جميعها .

ويبقى بعد ذلك ان نفهم ان الحدث المستمر للتطور الحضاري انما يفرض فرضا . فالمجتمعات وبالاحرى الانسانية هي التي تمثل حدثا مستمرا . واذا قلنا المجتمعات او الانسانية كنا نعني المجتمعات في اتصالاتها (لا في انعزالها) . وهذا المفهوم هو الذي يجعل فكرة التطور فكرة معقولة . فالمجتمعات في اساس تكوينها وحدات نزوعية اي انها تمثل « الكل » الذي يحفظ ذاتيته بواسطة التبادل والتوافق بين اجزائه وافراده . وطبيعة المجتمعات تسير وفق قوانين العقل الانساني من حيث التأثير والتأثر وكما يقول دريش Dreiesch : ان مصادر التغير الاجتماعي هي موجودة في العقول الفردية . ومع هذا فالفرد لا يتغيا لنفسه الا ما هو مقدر لطبيعته ، ويرغم ان الاحداث الاجتماعية تتكون من تفاعلات متداخلة معقدة بين الافراد (وبذلك تظهر كأنها مفهومة بلغة العلاقات العارضة بينهم) برغم هذا فان اسباب هذه الاحداث الاجتماعية لا يمكن ان يتأثر بها الافراد ما لم تجد صدى في طبيعتهم حتى يستجيبوا للمؤثرات المتبادلة وحتى يجدوا الرغبة في غايات اجتماعية مشتركة تتحقق بها وحدتهم التي هم اعضاء فيها . ويقول تيل Tiele ان تاريخ جماعة من الناس هو في الوقت نفسه تاريخ الانسانية بأكملها .

* * *

يعتبر جينزبرج ان المجتمعات الانسانية تكون وحدة وظيفية في طريق التقدم الحضاري ؛ وهو يعتقد ان هذه الوحدة انما تأتي بالاتصال والاحتكاك والتلاقح والامتزاج والانتشار . ويقول : ان ما يؤخذ على اصحاب مذهب الحضارة الاوروبية انهم يرونها المظهر التطوري الفائق الذي بلغ قمة التطور ــ وان هذه الحضارة هي التي تقاس بها الحضارات الاخرى التي تعتبر ــ في عرفهم ــ انها دونها منزلة واقلها مكانة .

وهذه هي فكرة المستعمر ، او الغازي ، او المبشر بدعوة جديدة وذلك لان كلا من هؤلاء يرى مركز الكون هو مركز الحضارة التي ترعرع في احضانها ونشأ في ربوعها .. وهو ينسى ان اية حضارة انسانية ــ بلغت ما بلغت من السمو والرفعة ــ انما قد ساهم في بنائها عديد من المجتمعات المتباينة ــ ويعتقد ترولتش Troeltsch بوحدة الجنس البشري من هذه الزاوية ــ زاوية التقدم الحضاري وذلك لان الجماعات الانسانية كانت ولا تزال في اتصال دائم مستمر حتى تلك المجتمعات البدائية كقبائل البوشمن Bushmen في افريقية الجنوبية . فهؤلاء مثلا تعلموا من الـ Negro ، والاسكيمو تعلموا من القبائل الهندية والنجريتو من جماعة الملايو Malay وقبائل الفيدا Veddah من قبائل السنجهاليز Singhalese وهكذا. ومن دراسة الاركيولوجيا او الحفريات الاثرية استنتج بعض العلماء الاساس الذي قامت عليه حضارات مصر وبابل والهند وهي الحضارات التي تمثل الاستمرار الحضاري للعالم الشرقي القديم مثلا في انتشار وامتزاج هائلين . وانتساب احدى هذه الحضارات لهذه الوحدة الحضارية قد اصبح امرا مقطوعا به من الوجهة الاجتماعية .

* * *

فاذا اجملنا الراي قلنا انه مهما كانت لكل حضارة نوعية من مقومات وخصائص واسباب خاصة بها وصفات تميزها ، فان كل حضارة تظل تعتمد على غيرها من الحضارات ، كما تظل تؤثر في غيرها ، في سبيل التاريخ الانساني والحضارة الانسانية بأكملها .

فالعلم هو العلم كوحدة ، ومن الخطأ ان نتحدث عن علم هذا المجتمع المعين ، او عن علم ذاك . فان اسمى ما وصلت اليه الانسانية في مجتمعاتها العديدة من اختراعات ووسائل حضارية وحقائق وافكار واتجاهات ... قد عمت الاقطار وغزت الامصار بحيث اتسمت بصبغة انسانية بحتة في جميعها . كما ان تقارب النظم الاخلاقية والديانات الكبرى في نقاط انسانية لدليل ــ ايما دليل ــ على تطور البشرية نحو السبيل لوحدة الخير العام .

لقد اصبح الناس ــ في كل امة ــ يشعرون بوجوب وحدة الغرض والصالح المشترك لخير الانسانية ، ولسنا نغالي اذا كنا نأمل في ان تجد الامم والشعوب عما قريب اشكال التنظيمات الضرورية لتحقيق مثلها ومطامحها عن طريق التطور نحو وحدة الغرض ووحدة الغاية المشتركة .

واذا كانت فكرة البشرية الموحدة ، او فكرة الوحدة في التقدم الحضاري هو ناتج تاريخي فهلا يعني هذا ان هذه الرغبة في الوحدة هي من صميم طبيعة الحاجات الانسانية ؟ او هلا يشير ذلك الى ان هناك قوة كامنة دافقة تدفع الناس نحو الوحدةمن وراء جهودهم الواعية المضنية ؟

ان الاحداثالاجتماعية التي تتضمن معنى الاستمرار، أي التي تكون الاحداث النامية المستمرة continuants.. هي في النهاية تتقدم نحو وحدة unity ، وذلك بفضل التعبير التلقائي الكامن في عملية التاريخ . وهذا هو المعنى الذي ينطوي عليه التطور الاجتماعي .

* * *

وبعد ، فهذه خلاصة لرأي العالم الاجتماعي موريس جينزبرج Morris Ginsberg الذي يؤمن بوحدة الجنس البشري من حيث المساهمة في حضارة انسانية . واذا كان لنظريته منهج خاص في البحث العلمي ، فان لها اصداء تتجاوب لها العقول والقلوب الداعية الى السلام العالمي والقوميــة العالمية . ولعل مذهب التعايش السلمي الذي انبثق عن مؤتمر جنيف للزعماء الكبار او عن الاجتماعات والظروف الممهدة له .. خير مثل يمكن ان

ولي الدين يكن شاعر الانفعالات الفكرية

بقلم الدكتور محمد مندور

٥



الشعر المصري المعاصر شاعران لم يثيرا دويا في عالم الشعر ، ولم يخوضا معارك ادبية ، ولم يحاولا اجتلاب انصار او تكوين مدرسة او مذهب في الشعر ـ هما اسماعيل صبري ، وولي الدين يكن .

واذا كان من النقاد المحدثين من يرى ان اسماعيل صبري يدخل في تيار الشعر التقليدي بالرغم من ثقافته الفرنسية وعمله في القضاء المختلط زمنا طويلا ، بينما يعتبر ولي الدين يكن شاعرا مجددا بروحه واسلوبه ـ فان الحقيقة الاكثر وضوحا هيان هذين الشاعرين لم ينضم اي منهما الى تيار من التيارين الكبيرين اللذين اصطرعا ولا يزالان يصطرعان في عالم الشعر الحديث ـ تيار الشعر التقليدي وتيار المجددين .

والواقع ان كلا من ولي الدين يكن واسماعيل صبري لم يحترف الشعر ، ولم يجعل منه وكده ، ولا اشترك في معارك الشعر والادب ، وان اختلف باعث كل منهما على الموقف الذي وقفه من الشعر والادب .

فاما اسماعيل صبري ، فلا نجد في تحديد موقفه من الشعر خيرا من اصطلاح نقدي انتقل من الايطالية الى غيرها من اللغات الاوروبية الحديثة كالفرنسية والانجليزية وغيرهما ، وهو الاصطلاح الذي يمكن ان نترجمهالى العربية بلفظ « الهاوي » .

فهو لم يكن يقول الشعر ، لان من واجبه ان يقول عندما تعن مناسبة ، ولم يكن الناس يحاسبونه على صحته او يحاسبونه على قوله ، لأنه قد عرف بين الناس بانه شاعر محترف ، كما انه لم يحرص على ان يخوض في مناقشة اصول الشعر ومذاهبه ، ولا في تحديد مكانه من عالم الشعر ، وانما كان يقول الشعر اذا ساقه مزاج الى ان يقوله في غير قصد ارادي ولا تصميم .

وهو الرجل الحاذق المنعم الذي يأخذ الحياة من اسر سبلها ، ولا يعرف الانفعالات العنيفة او المشاعر الجامحة ، ولا يتكالب على الادب وعرش الادب حتى لقد وصفه العقاد في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » بانه شاعر قاهري ، لما لاحظ على شعره من روح المدن ومدينة القاهرة بنوع خاص ، حيث تغلب على امزجة سكانها روح اليسر وعدم التزمت والانفعال .

واما ولي الدين يكن فبالرغم من ان مزاجه العصبي العنيف كان يختلف كل الاختلاف عن مزاج صبري القاهري المرفه الوديع الهادىء الطبع ، الا انه هو الاخر لا يمكن ان يوصف بانه قد احترف الشعر واتخذه غاية في ذاته ، او فنا جميلا قائما بنفسه ، وانما اتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن آرائه واتجاهاته السياسية والاجتماعية ، حتى لنراه يجمع بين الشعر والنثر في كثيرمن ابحاثه ومقالاته التي كان ينشرها في الصحف ، والتي جمعها بعد ذلك في كتبه :

١ ـ الصحائف السود . ٢ ـ التجاريب . ٣ ـ المعلوم والمجهول .

واغلب الظن ان ولي الدين لم يكن يلجأ الى الشعر ليستهل به مقالاته الا لاحساسه العميق بان الشعر يستطيع بفضل موسيقاه واخيلته ان يستنفد ما في افكاره من انفعالات ، حتى اذا هـدات نفسه ، واستراحت من عصبيتها العنيفة الدافقة ، لجأ الى النثر ليفصل القول ، ويعالج المشكلة التي يدور حولها المقال ، مما يدفعنا الى ان نحدد الخاصية الاساسية لشعر ولي الدين في قولنا انه شاعر الانفعالات الفكرية ، كما حددنا من قبل خاصية اسماعيل صبري بانه شاعر الهواية الادبية .

على ان كلا الشاعرين قد كان مقلا نسبيا في انتاجه الشعري ، وذلك لان اسماعيل صبري كان مشغولا بالحياة ونعيمها الميسر عن الشعر ، كما ان ولي الدين قد كان مشغولا بمبادئه السياسية والاجتماعية عن الشعر كفن جميل يقصد لذاته ، وكل ما كان يحرص عليه ـ كما قال في مقدمات كتبه وشعره احيانا ـ هو ان يأتي يوم ينتفع فيه مواطنوه من شعره ، وما فيه من آراء ونزعات اصلاحية وهو يردد هذه المعاني في تقديم كتابه « المعلوم والمجهول » اذ يقول :

يستدل به باحث لتأييد نظرية جينزبرج سواء من الناحية العلمية او من ناحية الامل الذي تدعو اليه .

حقا ان نظريته تقع في مستوى النظريات التي تفسر التقدم كعملية اجتماعية لا دخل للارادة الفردية فيها .

ولكن مهما يكن من امر فان لها صدى عظيما في الارادة الفردية والاجتماعية من حيث ضرورة التعرف على المفاهيم الاجتماعية للمجتمعات المتباينة وتلاقحها في ضوء العلم والعواطف المتبادلة ـ وذلك اذا ما اريد للمجتمعات ان تطور حياتها بفضل الاتصالات الثقافية والاقتصادية وما اليها فان العزلة لاكبر خطر اجتماعي يهدد كيان المجتمع وافراده بالتحلل والجمود .

القاهرة **اميل توفيق**

« بهذا الكتاب اشياء ، وقد فاتته اشياء ، وفي احوال العالم ما يمنع الافصاح بكل ما يدور في الخلد ، على انني لا احب ان اخرج من هذه الدنيا قبل اظهار ما عندي من الخوافي ، فاذا وفقني الله الى امنيتي تلك كنت سعيدا ، حين تذهب دول الظلم ، ويذوق الناس نعيم العدل يقراون مثل كتابي هذا بارتياح ، واذا وهب الله اقوامنا من الترقي اكثر مما نالوه ، وبقيت حيا بينهم ، كلمتهم بما يخالج صدري تصريحا لا تلميحا » .

لا شك ان ولي الدين يكن يعتبر ظاهرة من الظواهر الفريدة بين رجال الادب والفكر ، وذلك لان هذا التركي العنيد يعتبر مثلا قويا في صلابة الرأي ، وجراة الفكر ، وانفعال العصب في كل ما كتب من شعر ونثر .

ولا شك ايضا في ان وضعه الخاص ، وظروف عصره ، وتضارب التيارات السياسية والاجتماعية في ايامه ــ لا شك ان كل هذا قد اثر تأثيرا بليغا على مكانة ولي الدين ككاتب وشاعر ، وعلى ما خلفه من شعر ونثر ، كما أثر على عناية الناس بدراسة تراثه الادبي .

وذلك لان ولي الدين ولد بتركيا ، وهو بحكم هذا المولد لم يكن يستطيع الا ان يتعصب للجنس العثماني ، وان يغار على مجده وسلطانه ، ولكنه من جهة اخرى كان ساخطا على الفساد الذي انتشر في قصر الخلافة وفي حكم الخلفاء العثمانيين ، فاخذ يهاجم هذا الفساد والظلم والطغيان هجوما عنيفا لا هوادة فيه ، وانضم الى جماعة تركيا الفتاة ، وحزب الاصلاح والترقي حتى نفاه السلطان عبد الحميد الثاني الى مدينة (سيواس) حيث ظل في منفاه من سنة ١٩٠٢ الى ١٩٠٩ ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان نجحت الثورة ضد الخليفة وارغمته على اصدار الدستور وتقرير الحكم النيابي سنة ١٩٠٨ ، ومنذ ان اطلق سراحه قدم الى مصر ، وظل بها حتى توفي .

وكانت مصر في ذلك الحين تعج بالتيارات السياسية والدينية والعنصرية المتضاربة ففيها المنادون بالجامعة العثمانية المتحمسون للخلافة ، والمتمسكون باهدابها لكي يستعينوا بها على محاربة الاستعمار الانجليزي ، وكان هذا التيار هو الغالب عندئذ ، حتى لقد اختلط ــ بفضل مصطفى كامل وزملائه في الحزب الوطني ــ بمعنى الوطنية المصرية المتطرفة ، بينما هناك نفر اخرون يذمون حكم العثمانيين وظلمهم ، ويرون الوطنية الواعية ان يوفروا الجهد اولا على تخليص مصر من الاحتلال العثماني ، حتى ولو ادى بهم ذلك الى مهادنة الانجليز والاستعانة بهم على العثمانيين ، وقد استغل هذا النفر شعور العداء الذي ولدته الثورة العرابية ضد العثمانيين والجراكسة وغطرستهم واحتقارهم للفلاحين المصريين ، واحتكارهم للمناصب الكبرى وخيرات البلاد الوفيرة ، ولذلك نادى هذا الفريق بمبدأ « مصر للمصريين » حتى يقضوا على الدعوة القائلة بان « مصر للعثمانيين » . وهذا النفر هم الذين كونوا حزب الامة ، وان يكن هذا الحزب قد ضم الكثيرين من وجوه البلاد وباشواتها واصحاب المصالح فيها ، اي اولئك الذين يسمون انفسهم اصحاب المصالح الحقيقية ، وكانت هذه المصالح تتفق وترتبط بمصالح الاستعمار الانجليزي الاقتصادية ، وكانت هذه الوحدة في المصالح من العوامل القوية التي قربت بينهم وبين الانجليز .

وذلك بينما كان الحزب الوطني يرى ان تبعية مصر لتركيا لا تعتبر تبعية استعمار ، وبخاصة بعد ان ضعفت تلك التبعية ، واصبحت امرا شكليا لا تعدو نتائجه الفعلية الاتاوة السنوية التي كانت تدفعها مصر لتركيا ، ثم بعض المظاهر المعنوية والروحية كالمناداة بالخليفة والدعاء له في خطب الجمعة .

واخذ الانجليز يناصرون المنادين بمبدأ « مصر للمصريين » كما اخذوا يناصرون الساخطين على فساد الخلافة وانحلالها ، وطغيان حكمها ، حتى لنراهم يوحون بفكرة انتقال الخلافة الى العرب واوليتهم بها ، بحكم ان الدين قد نزل على نبي منهم ، كما نزل القرآن بلسانهم العربي .

ولقد ناور معتمدو بريطانيا ــ وبخاصة كرومر ــ مناورات عنيفة لتغليب سياستهم وجمع الانصار حولها ، فنراهم مثلا يوحون ابتداء من سنة ١٨٩٢ بمواد قانون المطبوعات القاسي الذي كان قد صدر من سنة ١٨٨١ ابان الثورة العرابية واباحوا للصحف حرية مطلقة قلما تشهد مثلها ، وظلت هذه الحرية على هذا الاطلاق حتى تغيرت الظروف ، فبعثوا من جديد هذا القانون العاتي سنة ١٩٠٩ وكان بعثه من الاسباب التي ادت الى اغتيال بطرس غالي ، وكانت السياسة البريطانية ترمي من وراء اباحة حرية الصحف اباحة مطلقة الى هدفين .

اولهما تشتيت الرأي العام القومي الى فرق يشغلها تطاحنها وعنف خصوماتها عن التلفت الى الاستعمار الانجليزي والتكتل لمحاربته والتخلص منه .

وثانيهما شغل الرأي العام بمسائل الاصلاح العاجلة وغير العاجلة ، وصرفه عن المشكلة الكبرى .. مشكلة الاستعمار الانكليزي .

والواقع ان الانجليز بهذه السياسة استطاعوا ان يجتذبوا اليهم عددا من الوطنيين المستنيرين الذين طربوا لهذه الحرية ، وآثروها على الاستبداد العثماني ، حتى اصبحت مصر عندئذ موئلا للكثير من الترك والعرب والارمن وغيرهم ممن نزحوا من بلادهم التي كان العثمانيون يسيطرون عليها سيطرة مطلقة وينشرون فيها انواعا من الظلم والارهاب البالغة القسوة .

والواقع ايضا ان الانجليز قد استطاعوا ان يوهموا نفرا من المصريين المستنيرين بأنهم ينقلون الى مصر الحضارة الغربية ، ويساعدون على اصلاح مرافق البلاد ، وتعميم الخدمات الشعبية ، ويستبدلون بظلام الاتراك نور الحضارة الغربية ، بل واستطاعوا أن يقنعوا عددا من المفكرين بان تعصب رجال الدين الاسلامي وجمودهم وتخلفهم عن مجاراة روح الحضارة من الاسباب الاساسية في تخلف مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، وعجزها عن مجاراة الحضارة الحديثة ، واستفحلت هذه الدعاية حتى راينا عددا من المفكرين يدعون الى فصل الدين عن الدولة ، وقصر الدين على تنظيم العلاقة بين الانسان وربه ، بل وتطرف البعض ، فاخذ يشك في صلاحية الاسلام نفسه ليكون دين حضارة .

ولم تقتصر هذه التيارات المتضاربة على المصريين ، بل شملت عددا من اللاجئين والمهاجرين من تركيا او سوريا او

ــ البقية في الصفحة ٨٧ ــ

القاهرة — محمد مندور

نـور

✳

في روض شوقي الساهرِ هـَجـَعت هفاهفُ زائره
فذكا سـراجُ الخاطـر بسنـًا سمـاء عابـره

***

هفـَّت مـن المتناثـر عنـد القباب الزاهـره
حُجبِ الضميرِ الغائر ضيفِ الرؤى المتضافره
يرمى بهـا كالشـاعـر فـَرط العقود الساحره

***

زارت بعـزم فائـر سطحَ المعانى الفـاتره
نشرت بساطَ الناظـر نقـَّابةً عـن آصره
عثـرت بسدٍّ فاجـر رصـَّتـه روحٌ كـاسره
شلاَّلِ ضحك غامـر سَفـَهَ الحياة السادره
عثرت بنخمـة كافـر هِبةَ الشموس الزاخره

***

لقـَطت نـداءَ مقـامر نهـم أذلَّ اظـافـره
يسخو بعمـر الصـابر شحـَّاذَ ومضِ الاخـره
رَهـَفت لهـمٍّ طاهـر طـارت اليـه خائـره

***

في روض شوقي الساهر هجعت هفاهف زائـره
لمحـانُ برقِ الحاضر رمقُ التحايـا الطائره

نزيل بحمدون ١٩٥٥ بشـر فـارس

الغرامفون

بقلم جبرا ابراهيم جبرا

*

امسك يوسف بسبيكة الزنك والقمها فكي الملزمة ، وشدها ، ثم تناول مبردا طويلا واركزه على السبيكة ، ولكنه قبل ان ينصرف الى الصقل التفت الي وقال : « سامع يا يعقوب ؟ »

قلت : « نعم » . وتخطيت كومة من قطع الزنك ، لالقي نظرة على البوتقة المشعشعة بما فيها من معدن ينصهر على مهل وهي وسط الوجاق الملتهب .

واعاد يوسف : « سامع يا يعقوب ؟ استرح شويه . انت ما زلت صغيرا فلا ترهق نفسك . الاسطى حنا مشغول » — وغمز غمزة تعبر عن مدى انشغال الاسطى ، ثم مد ابهامه وسبابته كأنه يمسك كاسا بينهما ، ورفعهما بايماءة معبرة الى شفتيه وقال : « الاسطى مشغول ، بس يا ليتني كنت معه . آه لو تعرف يا يعقوب كيف كنت أعيش في مصر قبل خمس سنوات . خمس سنوات حياتي . كنت مساء كل يوم البس بدلة انيقة مكوية وقميصا ابيض منشا ، وانزل الى مقهى اوبرا مع صديقين او ثلاثة ، ثم نذهب الى كباريه ... فلوس ، فلوس بقدر ما تشتهيه نفسك . شرب وضحك ونسوان ... خمس سنوات غيرت حياتي ... »

ثم اركز المبرد على السبيكة ، وانصرف الى صقلها ، وجعل يغني على ايقاع حركة المبرد . وكنت اطرب لغنائه كما يطرب هو له ، وتتوقف يداه احيانا عن العمل ريثما يمد صوته في نغم يترجرج في حنجرته ، صاعدا الى قمة من النشوة ، هابطا الى بحة من الالم . وخيل الي ان عينيه اغرورقتا بالدموع . ثم استأنفت يداه العمل ، وعاد الى البرد والطرق وقال : « خمس سنين ، من العز الى الهوان . والله ما هذه بعيشة يا يعقوب ... فلوس فلوس واصحاب ونسوان . شقر وسمر، طويلات وقصيرات ربي سبحانك على هذا التنويع العجيب . »

واخرج علبة السكاير من عبه بحذر ، واخذ منها سيكارة ، ثم اعاد العلبة الى عبه ، واشعل السيكارة ونفث الدخان ، وبده على الملزمة ، ونظراته الشاردة تستعيد ايام العز من خلال طيات الدخان .

فقلت : « بالله الق بنظرة على البوتقة يا يوسف . أأضع قطعا اخرى من الزنك فيها ؟ »

فنظر اليها من مكانه وقال : « لعنة الله على البوتقة . قلت لك الاسطى مشغول . سيتأخر اليوم جدا . هل حضرت كل القوالب في الرمل ؟ »

قلت : « نعم . كلها حاضرة . »

واذا الاسطى حنا المواسيري يظهر على غير انتظار ، وفي مشيته ترنح يحاول اخفاءه . ولكنه كان في مرح باد ، وحالما تخطى عتبة المشغل صاح : « ها يا برنس ! انشالله بردتها كلها ؟ اتحسبني لا اعرفك يا برنس ؟ لقد عجنتك وخبزتك ... فما اكاد ادير لك ظهري حتى تتبطأ في العمل ... » وجلس على حافة الرمل الذي كنا نصنع منه القوالب لسبك المعادن ، والتفت الي وقال : « الله يساعد يوسف . شاب ، عجز . شوف ، شوف ، يعقوب شوف !» ثم خفض صوته وهمس في اذني بعد ان ادنى منها فمه العابق بالكحول : « بس دير بالك لا يشوفك ! هاها ، هاها . الله يساعدك يا يوسف . »

وذلك ان بنطلون يوسف كان ممزقا مرقعا من الاعلى والاسفل ، من الامام والوراء ، ولا يذكر احد ، حتى يوسف نفسه ، لونه الاصلي فقد حال وتلوث واضحى مزقا لا يتصل بعضها ببعض الا بقوة الارادة ، ويمسك بها على خصره حزامه الجلدي . ولكن خرقا عند ملتقى الفخذ بالجذع كان في اتساع مستمر عجزت الرقع عن تغطيته . فكان حنا ينبهني لارى من خلال الرقع عورة يوسف المهدلة . غير ان يوسف قال : « ثلاثمائة جنيه صرفتها في شهرين . » وتوقف عن البرد هنيهة . « والله يا حنا ، ثلاثمائة جنيه في شهرين ... » وانصرف الى البرد .

فقال حنا : « احلم ، احلم ، يا برنس ، احلم يا امير . ولكن شد عضلك لشيء من الشغل . يجب ان تنصب هذه القوالب قبل المساء . » ثم التفت الي وقال : « هل القوالب جاهزة ؟ »

فقلت : « نعم يا معلمي . »

فالقى نظرة خبيرة ، رغم ثمالتها ، على المربعات التي في الرمل البني ، وتنقلت عيناه من قالب الى آخر ، ثم قام ونظر الى البوتقة الملتهبة ، ونزع معطفه ، وشمر عن ساعديه وفك ازرار قميصه ، وقال : « يلا يا يوسف ! »

واستغرقتنا عملية صب الزنك المصهور حوالي ربع الساعة . ولكنه ربع يوازي ما فيه من تعب تعب ساعات النهار الاخرى . وكنت ارى كيف تبرز العروق على اذرعنا وسواعدنا حتى لتكاد تنفجر حين نرفع البوتقة بالملقط الافقي الطويل ويقطر العرق من وجوهنا ، ويجري في سيول تصب احيانا في عيوننا . وكلما حدث خطأ او سوء تقدير في السكب في ثقب القالب اخذنا نشتم ونعيد الشتائم ، فتخفف من حدة التوتر الذي يعانيه الجسم في كل جزء منه .

وعندما فرغنا من مهمتنا ووضعنا البوتقة في ركن لتبرد ، بدا لي ان حنا قد صحا من سكرته ، واخذ خرقة مسح بها جبينه ووجهه ، بينما جلس يوسف على صندوق ليستريح ويجفف جبينه هو ايضا ، ثم قال : « ما رايكم في شيء من العشاء ؟ »

غير ان حنا ، دون ان ينبس بكلمة ، تناول قطعة من الصابون وتوجه الى الزاوية القصية حيث نحفظ زيرا مملوءا بالماء ، واغترف منه طاسة مليئة ، وانصرف الى غسل يديه ووجهه .

فقال لي يوسف : « اذهب واشتر لي صحنا من الكرشات . » واخرج من جيب عند الحزام من بنطلونه قرشا ناولني اياه . واذا حنا ، ورغوة الصابون ما زالت على وجهه وحول عنقه ، يصيح :

« هاك يا يعقوب قرشا اشتر لك انت ايضا شيئا

تأكله . » ومر بيمناه بسرعة على المنشفة ثم دسها في جيبه واخرج قرشا ناولني اياه .

وصعدت من « الجورة » الى « طلعة النبي داود » حيث كان طباخ من اهل الخليل يطبخ الكروش المحشوة في دستين ضخمين على نار من حطب في الهواء الطلق . وكانت رائحة المرق ، بما فيها من ثوم وليمون وفلفل ، عدا رائحة الكروش نفسها ، تجتذب الجياع رغما عن انفسهم . ولذا فهو دائما محاط بجمهور من عمال محادد الجورة والفعلة والحمارين وسائقي السيارات ، بعضهم مقرفص ، وبعضهم متربع على الارض ، وبعضهم واقف ، وصحون الكروش بين ايديهم يعبق الجو بشذاها . فلما دنوت من الطباخ — وهو يغترف بالمغرفة الكرشة الواحدة مع مقدار من المرق يكيله كيلا حذرا ويصبه في صحن عميق — لاطلب صحنين ، لمحت بين الاكلين عبد الاعور ، بائع المجلات ، وبقربه رزمة من بضاعته . وقد رآني في الحال ، فهتف : « الاخذت العدد الاخير من « الدنيا » ؟ »

فيممت شطره وقلت : « لا . هل وصل ؟ » وكساحر يخرج فاكهة من كمه ، اخرج نسخة من « الدنيا » من رزمة مجلاته وقدمها الي . ولما تناولتها ، وشممت حبرها الجديد ، ورايت صورها الكثيرة ، لم ادر اعيدها اليه واشتري صحنا من الكروش لنفسي بالقرش الذي معي ، ام اضيف نصف قرش اليه ، واشتري المجلة ، واسمح للعابي بان يسيل عبثا ...

« هات ! »

اخذت المجلة وناولته سعرها ، ١ ١/٢ قرش ، وعدت الى الطباخ وقلت : « صحن كروشات واحد ! »

فاغترف الطباخ بمهارته وحذره المالوفين الكمية المعينة وصبها في صحن ناولني اياه . وقال : « بس ارجع الصحن بسرعة . »

ونزلت « الطلعة » الى المسبك ، موازنا الصحن في يدي لئلا يندلق مرقه الثمين ، والمجلة الشهية تحت ابطي.

« حط عقلك في راسك يا ابني ، حط عقلك في راسك ! » قال ذلك يوسف ، وقد جلس على صندوق خشبي .

فقلت : « اين الاسطى ؟ »

— راح الاسطى . (واعاد حركة رفع الكاس الى شفتيه) . ارجعت بمجلة اخرى بدلا من صحن الاكل ؟

— هاك .

فاخذ الصحن ، وتناول ملعقة من بين المبارد والمطارق، مسحها بابهامه ، وقال وانا اقلب صفحات المجلة بلهفة ، وهو يرشف المرق بصوت هادر :

« أانت عاشق يا يعقوب ؟ اتطعم عقلك ام بطنك ؟ كيف تأمل ان تسمن وتقوى وانت في هذه السن ، وانت كلما حصلت على قرش ، تشتري به مجلة لا تغني ولا تسمن بدلا من هذه النعمة ؟ »

ولكنني لم اجبه ، وقد انشغلت بتقليب صفحات المجلة وقراءة العناوين ، والتمعن في الصور . فاستمر قائلا ، وانا لا اسمعه الا بنصف اذن :

« العز في ذراعك . لن يفيدك في المستقبل الا ذراعك اتراني هنا لابسا من الرقع ، فتحسبني لم اعرف النعمة والمال ؟ مئات الجنيهات حصلتها بهذه اليد . كنت امير عن حق يا يعقوب . « البرنس عاوز كده » كان يقولها كل من حولي ، كلما اردت شيئا . العز في هذه الذراع . ولكن.. النساء ، الشقر والسمر ، الموسيقى والطرب ، ليالي القمر ، ليالي السهر مع الـ... ما زلت صغيرا يا ابني . انقذك الله من الشفاه المحمرة ، والعيون الكحيلة والحواجب المقوسة».

وشفط ملعقته مرة بعد اخرى ، وتناول الكرشة المحشوة باصابعه واعمل بها اسنانه ، وكلماته تتخلل العملية الجارية ، غير انني قاطعته قائلا : « هنا مقال عنوانه : موسيقى القصور في القرن الثامن عشر . »

فقال : « الموسيقى خطر اذا لم تنتبه الى نفسك ، ولا سيما اذا كنت تستطيع الغناء . يلتف حولك عازفو العود والقانون والكمان ، وكحيلة العين بين يديك ، والكاس تدور ، وهواء الليل يهف على النار في القلب ... »

وفجأة وضع الاكل جانبا ، وخبط بقبضته على صدره : « هذا القلب اللعين ، ابن الحرام هذا ، لا يعقل ولا يرعوي ، الى ان يخرب بيت صاحبه . أنت ما زلت صغيرا يا يعقوب . ولكنك ستسمع الكبار يقولون « النساء كلهن سواسية . لا فرق في النهاية بين الواحدة والاخرى . » كذب ، كذب، كذب ! لكل امراة طعمها ومذاقها ، كل منهن اكلة تختلف عن الاكلات الاخرى . وليس في واحدة منهن غنى عن الاخرى . لا تغرنك هذه الرقع على جسدي يا يعقوب . والله رايت من الحياة » .

وانقطع عن الكلام ، فرفعت عيني عن المجلة واذا به ينظر الى الباب . فوجهت عيني باتجاه نظرته ، فرأيت امراة تمشي على مهل وهي تنظر الى المسبك ، كأنها تبحث عن احد فيه . كانت خدودها في حمرة الورد ، ولكن جبينها وبقية وجهها في بياض الطحين ، والكحل حول عينيها كثيف . استمرت في مشيتها المتثنية المتهادية على كعب عال وفي يدها حقيبة جلدية ، فاسرع يوسف الى الباب ، يرنو اليها وهي تتباعد ، وردفاها تتارجحان .

وقال يوسف اخيرا : « اتدري من تلك ؟ »

— لا .

— تلك صبحية .

— صبحية ؟

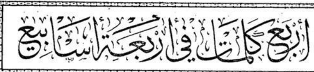
— الله يساعد الاسطى ! انها ذاهبة الان الى دكان ابو شلومو ، حيث حنا في الانتظار ... ابو شلومو يعطيه العرق في الغرفة المتصلة بمؤخر الدكان ، وبعد ذلك ، يا ويلك يا حنا . ربنا يسترنا ، ويستر هذا المسبك .

واخرج صندوق السكائر من عبه ، وتناول منه سيكارة ، واعاده الى عبه بحذر ، واشعل السيكارة ، وقال وهو ينفث الدخان من فمه ومنخريه : « مثل ما قلت لك. كل امراة لها طعمها ومذاقها . سبحانك ربي على هذا التنويع العجيب ! »

صباح اليوم التالي لم يات يوسف الى المسبك . وكان علينا ان نهيء قوالب جديدة لسبائك نحاسية على شيء من التعقيد . فجعل الاسطى حنا ينبش سبائك اليوم

[التتمة في صفحة ٨٨]

بغداد — جبرا ابراهيم جبرا



يكتبها
الياس خليل زخريا

يـوم الجلجلـة

الحجـر العظيم

وكان هناك نساء كثيرات ينظرن من بعد ، وهنّ اللواتي تبعن يسوع من الجليل يخدمنه وبينهن مريم المجدلية ، ومريم ام يعقوب ، ويوسي ، وام ابني زبدى .

فأخذ يوسف الجسد ولفه في كتان نقي ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة ثم دحرج حجرا عظيما على باب القبر ومضى .

وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الاخرى جالستين مقابل القبر [انجيل متى]

الحنـوط

ولما انقضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم ام يعقوب وسالومة حنوطا ليأتين ويحنطن يسوع [انجيل مرقس]

وفي اول الاسبوع باكرا جدا اتين الى القبر وهن يحملن الحنوط الذي اعددنه [انجيل لوقا]

الثيـاب البيض

فلما رأى يسوع امه والتلميذ الذي يحبه واقفا قال لامه « يا امراة هوذا ابنك » ثم قال للتلميذ « هذه امك »

وفي اول الاسبوع جاءت مريم المجدلية الى القبر في الغداة والظلام باق فرأت الحجر مدحرجا عن القبر .

اما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجا تبكي وفيما هي تبكي انحنت الى القبر فرأت ملاكين بثياب بيض جالسين حيث وضع جسد يسوع ، احدهما عند الراس ، والاخر عند الرجلين ، فقالا لها : « يا امراة لم تبكين » فقالت لهما « انهم اخذوا ربي ولا اعلم اين وضعوه ...

... فقال لها يسوع يا امراة لم تبكين ... من تطلبين ... [انجيل يوحنا]

نحن الليلة ، في الفلس ، بين عقد الليل ، وتفتق السحر ، ومريـم المجدلية ومريم ام يوسي في ملف الطريق ، عند بوابة البستان ، بستان الزمن ، واقفتان كأنهما الشبح الواجم في العاصفة الجارفة .

ومسحت المجدلية وجهها بطرف كمّها من غبار الليل المتثاءب ووطأة الموت الهاوية ودوي الاهانة المتجلجل:

مناجـاة

... يا لثقل الحجر العظيم ، على باب القبر ؟ ومن يحرس جسده ... ؟

من يؤنسه في وحدة قبره الجديد ؟

من يفرك قدميه بجدائل الشعر المعطر ؟ من يقبل بالشفتين اطراف اطراف قدمه ؟

من يقبل بالشفتين اطراف اطراف قدمه ؟

من يشبع بعد من يده من غير ان يأكل ؟ من يرتوي بعد من عينيه من غير ان يشرب ؟

من يلفه بوشاح النفس لف المصابيح للهب الضوء ؟

... قويّ هو ضوؤه ...

ما اعظم امتداده ، يشق المصابيح ، ويطفيء المصابيح ، ويضيء الدروب من غير مصابيح .

كان راسه على الجلجلة بين الشوك وصولجان القصب ، شمخة رؤوس وعزمة انطلاق .

ناديته فسمع .. ولم اسمع... اسمع ...

اعيا اذني حشد الهدير في صخب الجلجلة

من هم اولئك الماجنون الساخرون يركعون امامه على ركبهم من غير ان تركع نفوسهم ، ويقفون على اقدامهم من غير ان تقف جباههم ؟

اقتسموا ثيابه واقترعوا على قميصه وانا عارية ، عارية الراس ، يا مريم اشتهيت لجبيني عصبة لجبيني قطعة من ثيابه ، قدة من قميصه .

احببت في حبي له كل ما يملك حتى هذين اللصين يمينه وشماله وجعلت ذاتي في حرارة حبه شيئا مما يملك .

تمنيت لو كنت على خشبة الموت ، وانْ مساميرَ في الخشبة ، انا التي كرمت الحياة وحقرت الموت .

من يبعدني عن نفسي ، عن هذا المكان ، عن شوقي ، عن حنيني ؟

من يبعدني عن هذه الليلة المتمسكة كصخرة القبر بتلابيب صدري

عبثا ارسلت عيني في وجهه ، في قدميه ، في راس الحربة تطعن جنبه ... ، في الماء المنصب في دمه، في دمه المنصب في مائه ،

لم يلتفت الي ...

لم تسقط له نظرة في نظري

لم يقع له لمح من على الصليب في مطاف عيني

نادى امه .. نادى امه وحدها..

... « يا امراة » ...

... او تراه خاف ان يناديها باسمها ، فيفلفل صوته في صوتي ، وتهمس شفتاه ... في حروف اسمي ؟

أعني بها ولم يعن بي ؟

... تبصّر في قلبها ولم يتبصر في قلبي ؟

عطشى ... انا عطشى ، يا مريم حبة ماء... ولو من اسفنجةالخل

... وا ... امسي المندثر على خوابي بابل وخمور انطاكية ونضارة الحياة في وجوه رومة العظيمة .

اشتهيت يا مريم حتى الاصابع التي ضفّرت لراسه اكليل الشوك .

احببت الشوك على راسه في اكليله ، اكليلا لراسي ... انا التي كنت لو تمنيت تاج قيصر ، قيصر كله لحمل لي عشاقي ، قواد قيصر ، من على رأس قيصر ، ياقوت تاجه .

... ناداني ثلاث مرات ... وكأنه واقف امامي ... دائما واقف امامي

... حديثه في فمي

ينظر الى جبيني نظرة تنحـدر معها الواح السماء .

ها هي تنحدر

يا لعظمة تلك العشية، تلك العشية التي قبلت فيهـا قدميه ومسحتهما بشعري .

كان شباب اورشليم ، يا مريـم يقبلون بشفاههم قدمي فصرت ، انا التي اقبل بشفاهي من قدميه أطراف قدميه .

سئلح محبتي بقوة شديدة لاتتغلب عليها كبرياء الالم ولا زهوة الثبات .

كنت قادرة على ان اخلصه

كان قادة بيـلاطس ، وجنوده حراسا مع الكـلاب لاسوار بيتي ، لجدائل شعري ، لقدمي ، لهاتـين القدمين المضطربتين كاجفان عيني .

لم اعد قادرةالساعة علىان اتخلص منه حتى بنفسي المتسلحة بقوته

من يحملني من هنا .. من هـذا البستان الواسع الى المدينة الضيقة

من يدحرج من عيني تلك الصخرة العظيمة الهاوية على باب قبره

من يحرك قدمي من هنا ، قليلا من هنا ، الى باب بيتي .

... وتد مركز في الارض ...

كل شيء في هذا البستان ، في هذه الجلجلة ، وتد مركز في الارض

مات الذي حسبناه لن يموت

ضربوا رأسه يا مريم بالقصبة

بصقوا عليه ... هزأوا به ...

نزعوا عنه الارجوان الذي غطوا به جسده

جدفوا عليه ... صلبوه كما يصلب اللصوص ... دفنوه كما يدفن المتسولون ...

دخل في الارض

ارتفع فوق راسه التراب والحجر .

انشقَّ في صوته الرهيب عند الموت حجاب الهيكل

اهتزت جنبات الارض

تشققت الصخور تفتحت القبور

اما قبره فمقفل

اما الصخرة العظيمة فعلى بـاب قبره . لا يحركها صوت لا يهزها قدر

حتى راسه حناه على اكليله واسلم الروح وغاب

مات يا مريم قبل ان يموت اللصان

انطفأ قبل ان تنطفيء قوة الحياة في جسد اللصين ، اسرع قبلهما الى الموت

.. واليدان المرتجفتان اللتان انزله بهما يوسف عن الصليب

والكتان الابيض الذي لفه به يوسف على ارض الجلجلة

كنت جبانة ، جبانة جدا انت يا مريم

لمَ لم تحملي الجسد المكفن بالطيب ؟

لم لم تدفعي بي فاحمل معكم جسده ؟ لم لم نتلمس راسه ؟

لم لم نمسح بشفاهنا الدم الناشف على جرحه

اين اكليل الشوك .. من اخـذ اكليل الشوك

قولي يا مريم لم طيبه نيقودوس وحده بالمر وعصارات المر

... القبر يا مريم يفتح فوهته ..

ارى جسده يختفي عن عيني شيئا فشيئا على كفي يوسف

.. ارى القبر يغلق فوهته

ارى الصخرة تتدحرج على بـاب القبر ..

ثم ارى يوسف يمسح العرق عن جبينه الكبير ، كأنه قضى كبيرا ..

ناديت ، يوسف ، فابعدني عنـه يوسف جفاء

ناديت نيقودومس ! من هـذا ؟ !

فالتفت الي غضبا

غضبًا عني كلاهما غضا ، مـن علمهما غض الطرف عن مريم المجدلية

ذهبت مريم امه ، ذهبت امه يـا مريم مع تلميذه الجديد

ذهب تلميذه الجـديد مع امـه الجديدة

او سقطت في اورشليم قرابـة الدم ، او انتصرت عند المؤمنين قرابة النفوس ..

اما انا .. انا الخاطئة المهملة فمن يحملني الى المدينة ؟

من يوصلني الى حيث احط جفني وانام واموت ، وانا انام ..

مريم ... لم يبق لي فـي الارض غيرك يا مريم

مات الذي حسبناه لن يموت .

عـودة الى المدينـة

⊛

سارت المريمان مع الفجر ، يوم الجمعة العظيمة .. المجدلية تتوكـأ على كتف ام يوسي وام يوسي صامتة عمياء صماء تتوكا على القدر

والسحر يتفكك عـلى الطريــق واقدام التعب تتعثر بكل شيء

... سارت المريمان الى المدينة

... لم تريا احدا في الطريق

... لم يكن في الطريق احد

... لم يكن في المدينة احد

وانحدر عليهما الليل الاول ثـم انحدر نهار النهـار ، كمـا انحدرت صخرة يوسف على باب القبر ، قبرا على قبر .

ظلمة ... كل لون في المدينـة منبسط عليه خيط ظلمة ، ومريم ام يوسي تسند باليدين جبهـة المجدلية كان السبت كانهلم يكن سبتا

كان السبت كانه لم يكن سبتا

... وهوى الليل ، وفي الليـل يخرج الشبح من الشبح والخيال من الخيال والضمير من الضمير ، ومريم المجدلية من مريم المجدلية .

بستـان القبـر

⊛

وعادت في الصباح المبكر ، فـي اوائل الاسبوع ، هاتان المراتان ، على الطريق من المدينة الى بوابة البستان بستان القبر

محمود ابو الوفا : شعره وشخصيته

بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي

قضى القدر الجائر على شاعر من شعرائنا المصريين الاحرار ان يقيده بقيد لا فكاك منه ، وان تريشه الاحداث في يفوعته وشبابه بسهام وسهام ذلك هو الشاعر المصري الممتاز ابو الوفا .

اوذى في ساقه اليسرى في صفره ، وبترت الساق ، وقضى والده نحبه في يوم اجراء العملية ، وعاد الفتى الى قريته تيريس بمركز أجا ـ فاذا بالدهر يلفه بعباءة سوداء شائكة .

هموم الديون التي التهمت ما خلف الوالد من مال وعقار . مما اضطره الى الفرار من القرية الصغيرة .

واستقر ، المقام في دمياط ، ودرس بمعهدها الديني فخطف الخمس سنوات المفروض قضاؤها في سنتين ، كان يتعلم ويعلم ليعيش كان يشرب كاس المعرفة دفعة واحدة لا على جرعات ليجد الذريعة العاجلة لعيش مستقر .

وحملته عكازاته الى القاهرة ليتمم دراسته بالازهر ، والجيب خال ، ومطالب الحياة كثار ، فاستحال عليه التوفيق بين الدراسة ولقمة الخبز ، والفى ان لا مفر من اشباع البطن الخاوية ، فاشتغل في تجارة متواضعة .

هذه هي حياة ابو الوفا في يفوعته وشبابه في كلمات، وهي سلسلة من الكوارث المتعاقبة لو وقعت لغير محمود لانتابه عصاب شديد ، او قادته الى عالم اخر من الباب الذي يؤدي الى الجنون .

ولكن محمودا ارتفع على آلامه ، انتصر على متاعبه ، وتسامى بنفسه ، وتحول الى دنيا الخلق ، الخلق الشعري، الذي وجد فيه متنفسا لانفعالاته وسعادة لروحه ، فأتم دواوينه أنفاس محترقة ، واشواق ، والاعشاب ، واناشيد دينية وعسكرية ، ثم اتبعها في كهولته ديوانه الاخير « عنوان النشيد » .

ويكشف ديوان اشواق وانفاس محترقة عن مرحلة حياته الاولى في صدق واخلاص ، ويكشف النشيد عن نقلة جديدة في حياته وفي تطور شخصيته ، كما سيجيء.

وديوانه « انفاس محترقة » يكشف عن موهبة غنائية وغنائيته في هذا الديوان ، لم تقف عند الشعر الفزلي ، بل تعدته الى الشعر النفسي، والى قليل من الشعر الاجتماعي والوطني ، والى الاغنية . واغنياته لم تحصر على الاغنية الغزلية كما فعل رامي وصالح جودت وعلي محمود طه وغيرهم من شعراء الاغنية ، وانما الاغنية الانسانية ، والدينية ، والقومية .

ومن شواهد شعره الفزلي . قصيدته « احببتها » :

احببتها احببتها احببتها — واحب في الايام يوم رايتها
وودت لو اني جمعت لها المنى — واتيت بالدنيا لها ووهبتها
تمشي مفاتنها تلحن خطوها — الله فيما لحنت خطواتها
لم تكذب الرؤيا وقد فسرتها — وعن اسم هذا اللحن رحت سالتها
لم ادر ما قالته الا بعدما — كانت بمعصمها يدي ورفقتها
كل المنى في لحظة انا نلتها — لما شعرت بانني كلمتها
وكلامها ان قلت ان كلامها — نغم الكمان فقد اكون ظلمتها

قصيد لطيف ، رفاف اللفظ ، سيال الموسيقى ، عذب الايقاع ، نامٌ على ممارسة حقيقية للحب ، عبر عنه باللمس

طيب ، حنوط ، وهموم ونفس تشتهي الحنوط ، وتتعثر ..
لم يكن في البستان احد
لم يريا في البستان احدا
الفجر يتمدد على مهل وظل المريمين يتطاول على الارض اطول من الارض
هدوء ، وسكون ، وكثير من التراب يتنفس مع الفجر في كثير من السماء
وصرخت المجدلية من الرعدة والدهش ... صوت عظيم كأنها على الجلجلة او كأنها جلجلة الجلجلة
التفاتة في كل مكان زلزلة في كل حركة ... يد بيضاء نازلة من السماء
من هي هذه اليد البيضاء ؟
من هو هذا الضوء المتجمد المتحرك؟
وتحرك الضوء ...
وتدحرج الحجر وتدحرج القبر
ومات الذي يحرس المصلوب ليحيا الذي صلب
وتشددت المجدلية واقتربت تنزل عينها من زاوية القبر في القبر رأت الاكفان والمنديل والقبر وحفرة القبر
اين المعلم ... ؟ اين جثة المعلم ...
ثم رفعت عينها الى البستان الى مداخل البستان الى ارض الجلجلة ، الى الارض الى السماء المتجسدة في الارض .

صولجان الشمس

●

يا لعظمة ما رأت ...
« سلام لكنّ
لا تخفن ...
اذهبن وقلن ... »
ودنت المجدلية تجر وراءها صولجان الشمس ، دنت تلمس قدمه
تسجد له ، تسجد فيه
تنكس وجهها كل وجهها في كل وجهه
... رابوني ... رابوني
« ... سلام لكنّ ...
يا امرأة .. لم تبكين ؟
من تطلبين ... »
لقد علمت المجدلية الساعة من تطلب ... لقد علمت المجدلية الساعة اين وضعوا ربها كيف اخذوه ...
... رفعوه على خشبة الجلجلة بين الجريمة والحربة واكليل الشوك ليرفعهم على نعمة الحياة بين انتفاضة الموت ، وصخرة الحياة وازلية المحبة والف مجدلية ومجدلية واقفات عند طرف البستان في قلب البستان يحملن بخور الدنيا الى مباخر اورشليم العظيمة .

الياس خليل زخريا

وجمال الصوت ، وهما وسيلتان لتوليد الكهرباء بالجوانح .

والملحوظ ان ابو الوفا يعتمد اعتمادا كبيرا جدا في اسلوبه التعبيري على الموسيقى اكثر من الصور . وان كان شعره لا يخلو من الصور ففي القصيد السالف نجد المد الموسيقي فياضا ، ولا نجد الا صورا عابرة كقوله تمشي مفاتنها ، وقوله « تلحن خطوها » - والاولى صورة حركية، والثانية صورة سمعية ، ويخيل الي ان اغلب صوره حركية، وسمعية ومرجع هذا الى توفز اعصابه ورهافة اذنيه ويمكن ان نجد شاهدا في قصيدته « يوم اللقاء » حيث نجد كل الصور التي فيها صورا حركية .

واذا كان استنتاجنا صحيحا في اعتماد ابو الوفا على حيوية اللفظة وعلى عذوبة الموسيقى ، دون اهتمام يذكر بالصورة فهذا دال على انه يستوحي احساسه وذاكرته اكثر مما يستوحي قواه التفكيرية .

وفي ذلك يقول جاك مارتيان في كتابه «الفن والشعر» Art et Poetry : يمكن القول بانه الشاعر الرائع الموسيقية قوي الذاكرة ، لان ملامح الاغنية ترف في الذاكرة »

واذا انتقلنا الى شعر محمود النفسي ، وجدنا مرآة حياته وسمات نفسه منعكسة على شعره ، ففي قصيدته « ذكرى » يكشف عن ذكرياته وايام مرحه بل تدلله في حياة والده ،

لهفي لايام الشباب وما جرى لي في الشباب
ايامكنت من الكعاب كانني بعض الكعاب
نلهو ونلعبحيثشئنافيالسهول وفي الهضاب
لا ظنة منا تحذ، ولا يحوم بنا ارتياب
لهفي على تلك السنين ذهبن في عمر الحباب
ولين السنة عذابا في اذكارات عذاب

وفي قصيدته « قيود » نراه يكشف عن نفسه الحرة المتمردة ، وعن الصدمة الاولى في حياته عندما بترت قدمه

قضى زماني علي اني امشي ورجلاي في القيود
ويلاه مما لقيت منها ويلاه للسيد المسود

وها هوذا يحدثنا عن مرحلة ثالثة من حياته عندما هبط القاهرة ، فاذا به لا يجد معينا ولا عاطفا ، فيسجل ذلك في قصيدته « لم يبق في الحي » التي استهلها بقوله:

لم يبق في الحي لا راع ولا والي فليت شعري لمن اشكو له حالي

ويحدثنا فيها انه سمع ان هناك في رجال هذا الحي رجلا متدينا معوانا فقصده ، ولكن تأميله خاب ، لانه وجده يعين الظباء :

فما تبينته حتى لقيت به جسما ولكنه من قلبه خالي
الى على جاهه لا يستظل به غير الظباء وذات الدل والخال

ويكشف ابو الوفا عن ازمة نفسية حادة دهمته في قصيدته « رثاء نفسي » التي يقول فيها :

في ذمة الله نفس ذات آمال وفي سبيل العلا هذا الدم الغالي
بذلته ، لم اذق في العمر واحدة من الهناء ولا من راحة البال
كانني فكرة في غير بيئتها بدت ، فلم تلق فيها اي اقبال
او انني جئت هذا الكون عنغلط فضاق لي رحبه ، الماهول والخلي
آسي وفي النار مثوى كل والدة ووالد انجبا للبؤس امثالي

واود ان اذكر اني في كتابي « الشعر المعاصر » لم استملح الاعراب عن انفعال اليأس المطوف في هذه القصيدة، وتابعت في هذا الراي الناقد الانجليزي الشهير Winchester في كتابه « بعض مباديء النقد » والذي راى فيه ان الانفعال النازل لا ينبل به فن ، ولكني بعد كتابة ما تقدم عن هذا القصيد ، قابلني الشاعر السوري نزار قباني ، وانباني في همس حيي بانه لا يوافق على رايي ، كما لاقاني صديق لابي الوفا قائلا : ان ابا الوفا صادق صادق في التعبير عن نفسه ، واخذ يفضي الي ببعض لمحات عن حياة ابي الوفا اذكر منها ان ابا الوفا عندما هبط القاهرة على عكازتيه حار فيما يفعل في هذا الجو الصاخب الغريب عليه ، وخطر له خاطر هو ان يلوذ الى نجدة السلطان حسين فارسل له البرقية التالية :

«مولاي ، اني مغلوب فانتصر محمود ابو الوفا بالباب » ووقف الى باب قصر عابدين ساعات وساعات ينتظر امر السلطان ، ورآه حارس القصر ، فسأله عن سبب وقفته ، فلما سمع منه طلبته ، تبسم ضاحكا ! ، ولكن محمود لم ييأس ، وعاد في اليوم التالي ، ووقف وقفته ، فلم تفتح له في القصر نافذة ! . وعاد ادراجه الى حي الازهر . عله يجد غذاء لذهنه ، وبطنه الجائعة معا فاقفلت دونه النوافذ ولم يظفر بشيء ، وواتته ايام قاتمة بعدها فكر في ان ينجع نفسه ، وكانت قصيدته « رثاء نفس » من بنات هذه التجارب الاليمة القاسية . واردف صاحبه يقول : انه ليس من الصواب ان يلام شاعر على الاعراب عن صدق واقعه النفسي .

وقرات هذا الراي مؤخرا للشاعر الانكليزي درنكوتر Drinkwater ورأيته يقول : ان العبرة بصدق حقيقة الشاعر ، لا بالحقيقة التي يحبها الناقد ، والمسألة ، كما ترون مشكلة نقدية ، بين انصار الفن للفن ، والفن للمجتمع ، الفن المعبر عن خوالج المرء مهما تكن ، وبفن الدافع لخير المجتمع ، العامل على توسيع تجاريب العائشين فيه .

ومع هذا فقد تنقل محمود ابو الوفا نقلة جديدة في ديوانه « عنوان النشيد » عندما انتصر على همومه وآلامه الكثار ، وعندما خبر الدنيا ، وعرف ناسها وفلسف مظاهرها فلسفة لا تقوم على مذهب ، بل فلسفة تقوم على المعرفة العملية ، وعلى المعنى ، وعلى التجربة ، وبصافحك في عنوان النشيد روح ايجابية صاعدة جديدة ، واتجاه موضوعي يبشر بالقوة ، والارادة ، والاختيار ، والايمان بالانسان ، وطاقاته الكامنة العجيبة .

ليس كالقوة في الدنيا فضيلة
هكذا قالت لنا الروح النبيلة

ثم يتحدث عن الانسان وامكانياته ، ويدعوه الى العمل الدائب ، والجهاد المستمر .

ان في الانسان طاقات اقتدار
آه لو يعرفها كيف تدار
ليس يرضى رجل حر الفؤاد
عن حياة ما له فيها جهاد
خير ما في النفس هذا الاعتداد

ويصرخ صرخاته الذكية في وجه الانسان ، قائلا :

اعطني حقي في حريتي
ثم خذ ما شئته من جنتي
ولتكن مهما تكن لي قسمتي

[التتمة في صفحة ٨٦]

القاهـرة مصطفى عبد اللطيف السحرتي

رسالة الى ابنتي وكل فتاة

*

ومن رعى غنما ، في ارض مسبعة ونام عنها ، تولى رعيها النمر

والدنيا ، بل هذه المدينة ـ المرفأ بالــذات ، ارض مسبعة ، فلا اقل من ان تسهر عين الراعي . وكل اب راع ، وهو مسؤول مع الام ، عن رعيته .

يـا ابنتـي الحبيبـة

ليست الرعاية ، وهي من اسس التربية السليمة ، سجنا لفتاة مثلك ، في سن المراهقة الخطير ، بل هي حماية ورقابة عطوفان حتى تكتمل لديك اسباب القوة ، ووسائل الدفاع عن النفس . والقوة هي قوة الحق ، واسباب الدفاع هي العلم المهضوم المطبق على الحياة . وحينئذ ، اذ تبلغين مبلغ الانسان المسؤول عن نفسه وعن تصرفاته ، شرعـا وعقلا وقانونا ، ستجدين ان فترة الحماية هذه كانت لـك كالغذاء الصحي لبدنك الرخص ، وانها كانت كذلك زادا للغد، ومؤنة للايام السوداء والبيضاء على حد سواء .

وما حرصي على ان احميك الا حرص المربي علـى سلامة عقلك وروحك وقلبك ، لا جسدك فحسب ! فان اكثر هؤلاء الذين يحومون حول « الزهرات » المتكاملة ليسوا في الحقيقة وفي الغالب سوى فراشات دنسة ، خفت موازينهم ، وطاشت عقولهم ، وصغرت احلامهم ، وفسدت قلوبهم وارواحهم . ولو كانوا غير ذلك لاتخذوا غير باب الاغراء والافساد سبيلا الى القلوب . والاسرة لا تقوم على عمودين رجراجين ، ويبنى على الفساد فساد مثله !

حتى اذا بلغ عندك العقل مرتبة الوعي ، وتمركزت روحك عند مشارف اليقين ، واستنار قلبك بنور الحق ، لم اقف يا ابنتي ، ولا يقف اي اب سواي ، بين فتاته وبين اختيارها رفيق الحياة ، وصديق العمر . ففي ذلك الوعي وذاك التيقن ، وهذا الاستشراف ، ضمانة لحسن الاختيار ، وعاصم من التهور مع العاطفة البلهاء ، والنظرات الخرقاء ، والاوهام المزوقة .

ولئن وضعتك يا ابنتي ، بمحض ارادتي على طريق المعرفة ، في افضل مدرسة تخيرتها لك ، فلا يعني ذلـك اني اتسامح الى حد اترك معه الحبل لمعلماتك على غاربهن ، وبعضهن لسن في مستوى مهنتهن السامية !

لذلك كان لا مناص لي من رقابة اقوم بها على مـا يجري داخل المدرسة ، بينك وبينهن ، وبينـك وبين رفيقاتك ، وهن اخلاط من الناس . فــاذا استشعـرت انحرافا من معلمة ، او تغريرا من رفيقة ، كان من حقـك علي ، ومن واجب المربي الراعي الساهر اليقظ ، ان انبهك، واوجهك ، ولو قاومت انت ذلك التدخل ، كما يقاوم الطفل امه ، في اول الامر ، الراغبة في تنظيف اطرافه ! ! حتى اذا ادرك الصغير فضل النظافة عليه ، وفضل امه في حرصها على سلامته ، كان اشد الناس تمسكا باسباب تلك النظافة ، وبأذيال تلك الام .

وكل منا « صغير » حتى يبلغ مرتبة الكمال ، ولـن يفعل . فاذا بلغ تلك المرتبة كان عليه ان يودع هذه الارض ، ويسمو فوق اشيائها الى مرابع الخلود !

اما الكتاب . . . فقد عودتك ان تختاري النافع منه الخير منه . واعني انني حرصت ، منذ حداثة سنك ، على ان تميزي بين الكتب المفيدة والكتب المفسدة . فقد نشأتك على حسبان الكلام البذيء ، والسباب والشتائم ، حتـى البريء منها ، بمثابة الاقذار المنفرة ، تبتعدين عنها وعمن يتلفظ بها ، او يكتبها . حتى اذا نطقت خطأ او صدفة ، او نطق واحد من اخوتك بكلمة نابية ، كان على المخطيء ان يذهب الى المغسلة ، فينظف بالصابون والفـرشاة ، ثـم يتمضمض سبع مرات ، كي يطهر جنبات ذلك الفم مما علق بها ، ويتطهر ضميره بالتالي ، بفعل الندم ، مما ترسب فيه .

فانا واثق انك ، في صباك ، وقد نشأت تلك النشأة ، ستختارين الكتاب النافع ، وستبتعدين عـن ذلك النتـاج الرخيص الذي يروج في بعض البيئات ، ويروج له بعض المؤلفين والناشرين ، كما يروج الطعام الرديء في بعض الاسواق والمطاعم ، فيتسمم به الكثيرون من الجهلة والبسطاء

ومرد الرواج الى الجهل ، وسوء التوجيه . جهـل الافراد والجماعات ، وغفلة الساهرين على التربيـة عـن واجباتهم . ثم سيطرة الروح التجارية على فريق مـن الكتاب « الاقزام » ، قصروا في سعيهم الى القمم ، فاختاروا التمرغ في الاوحال . اليس في الكائنات من يعيش مختارا في المستنقعات الآسنة وفوق الدمن المتعفنة ؟

ثم تغافل الدول ـ ولا اقول الدولة ـ عن الجنايات المقترفة في هذه الناحية الخطيرة ، وفي اعتقــادي ان مكافحة هذه « العصابات » ، من مؤلفين وناشرين وموزعين، عمل يجب ان تتعاون عليه جميع الدول الخيرة ، كمـا تتعاون على فرض الاستقرار ، واقامة السلم ، وابعاد شبح الحرب .

انني واثق من ان ما زودتك به التربية المنزلية ، من خلق متين ، وعادات سليمة ، بالمثل وبالتوجيه ، ثم مـا شادته المدرسة فوق ذلك الاساس من بناء يشمخ بالمعرفة والقدرة على التمييز وحسن التقدير ، والاتزان في ادراك الامور ، ثم ما حصلته بنفسك ، من خلال الكتاب النافـع والعبر الواعظة ، ان جميع ذلك الزاد الخير كفيل بان يجعل نوافذ الحياة المفتوحة ، وبابها الذي لم اغلقه دونك ، يجعلها تريك الواقع على حقيقته والاشخاص دون تطرية (ماكياج) فتحسنين التصرف ، وتختارين الاصلح ، وتمشين الخطوات التي تؤمنين بانها الخطوات المكتوبة عليك .

وهذا هو الفارق بينك وبين الفتاة التي حرمت نعم التربية ، وان تعلمت وكدست كأخيها الشهادات ، انها تندفع مع كل عاطفة آنية جامحة . اما انت فانك تتوقفين عند كل باعث ، تتبصرين فيه ، وبالنتائج وتوازنين بين مالها وما عليها ، ثم تقررين . . !

وفي يقيني انك يا ابنتي بالغة بعد عهدك هذا ـ عهد التكوين الخلقي الاخير والاستعداد للحياة ـ بالغة مرتبـة تجعلك من فضليات النسـاء :

وحينئذ ستكونين انت رقيب نفسك ، وانت الرعية والراعية ! وكل بما كسب رهين !

رشـاد دارغـوث

كل شيء يشترى

°°°

تسائلني بالتياع السقيم أبالمال كان الهوى يُشترى
وللحب راحت أكف الرجال تشيد الهياكل فوق الثرى
وللحب ما طال من شاهق تسامى، وخلّق مستكبرا
وما شعَّ لولا الهوى بارق بجفن ولا خافق كبَّرا
على الارض من خلجات الضمير من الزهر ماضاع[1] أوأثمرا
وفي هيكل الحب حال الهوى قلوب الانام له مجمرا
وقامت تضيء شموعُ النفوس بهيكله عن رضا اعصرا
فكيف يقال الهوى يُشترى حديث لغمر الهوى مفترى
فتمتمتُ أهمس في لوعة هو الحب في شرقنا يشترى

* * *

فأغضتْ ولم تدر ماذا تجيب وقالت أفي الحسن ما يفترى
وللحسن ما نظم المنشدون وما رجّع الطير أو كررا
تغنت به البدو في بيدها وسبَّح للحسن أهل القرى
وحجت معابده انفس براها الحنين ووخد السرى
ففي كل صدر ترى للجمال عروشاً حكت في سنا نيّرا
على الارض من دم عبّاده شقائق رفّتْ لمن أبصرا
وكنت ترى أسطراً للدموع تخطّ بما سكبت أسطرا
وكم ظلم الحسنَ قولُ الغلاة غدا الحسن بين الورى متجرا
فتمتمتُ اهمس في لوعة هو الحسن في شرقنا يشترى

فأغضتْ على ضجر وارتمت تقول أفي الحق ما يزدرى
وللحق ما هتف المرسلون وما بشّر الله أو أنزرا
منار له ماثل في الضمير طويل العماد رفيع الذرى
تعهد أضواءه المصلحون وحجوا منارته حُسَّرا
ترى الحق بالدم آياته سرت في الوجود كفجر سرى
ولم أر وقراً على حامل سوى الحق خفَّ وان اوقرا
ولم أر كالحق مراً أعلَّ عطاش الضمائر او اسكرا
فكيف نهش لقول المريب اذا جحد الحق او انكرا
فتمتمتُ اهمس في لوعة هو الحسن في شرقنا يشترى

* * *

محدثتي كان بعض السؤال ثقيلاً على النفس مستنكرا
أمض من الداء ترديده واوجع للنفس مأكرا
بنفسي كلام ويأبى الوفاء بأن أعلن الداء او أظهرا
أرى في الاشارة يُغني البيان اذا لجلج النطق او أحصرا
سأوجز بالشعر داء النفوس وأكشف أغواره مخبرا
هو الحرص مرجع ما نشتكي من الداء ما طال أو قصّرا
وللمال من قبل شدَّ الرحالَ وشمَّر في الشرق من شمرا
وفي الشرق باع يهوذا المسيحَ وداس الامانة مستهترا
وفي الشرق بيع الصبا والجمال وفي الشرق كان الهوى يشترى

دمشق — **عدنان مردم بك**

[1] اي فاح .

تمثيليـة

شـرود

بقلم موسى سليمـان

المدخـل

شرود ... ضباب من الحيرة والياس يستولي على جيل كامل من ابناء الناس ...
شرود ... تيهان النفس في عالم مليء بالرؤى والاشباح..
شرود ... ضلال القلوب المعذبة ، التائهة وراء الحقيقة وهي تهرب منها هروب السراب في الصحراء ...
شرود ... مرض حبيب الى القلوب الكبيرة ، يستأثر بها فيأسرها ، وتلتذ هي به فتنشده في حباتها ...
شرود ... صلاة العباقرة الحميمة ، تصدر من قلوبهم المحمومة ، المكتوبة بنار الحب ، السكرى بخمرة المعرفة .
شرود ... صفحة بيضاء ، سوداء ، لا فرق بين ان تكون مبهمة او ان تكون واضحة ، ولكنها في كل كتاب ، يقراها كل الناس ، في كل زمان وكل مكان ...
شرود ... تمثيلية منتزعة من صميم المجتمع الذي نعيش فيه ، فيها الاب الحائر ، والام التائهة ، والفتاة الشاردة .. وفيها ، فوق هذا وذاك ، النفس التي تتلذ في التفتيش عن السعادة لا في الحصول عليها ...

شـرود

اشخاص التمثيلية :

ابو حمدي ــ ام حمدي ــ حمدي ــ سعاد اخت حمدي ــ جمال اخت حمدي ــ العم مختار ــ العمة حفيظة .

« الاب والام وهما يجلسان في غرفة خاصة من غرف البيت ، جلسة عائلية ... الام تشتغل الصوف والاب يقرا في الجريدة ويدخن النارجيلة»

الام ــ لم اسمع رايك في موضوع جمال يا ابا حمدي ، الا تهمك جمال ؟ الا تريد لها الخير والسعادة ؟
الاب ــ ماذا تعنين ؟ لم افهم مرادك تماما .
الام ــ تتجاهل الامر ثم تتظاهر بعدم الاكتراث ! كأن الامر لا يعنيك ! ...
يا لطيف من رجال « هالايام » .. ما اقل من اكتراثهم باولادهم ! ...
الاب ــ ولم هذا التوبيخ اللطيف يا ام حمدي ؟ ما الذي يحملك على هذا القول ؟
الام ــ ما الذي يحملني على هذا القول؟ انت تدعي انك غير فاهم ؟ ماذا ؟ اتعيش في المريخ ؟ الا تدري ما يجول حولك ، بل في بيتك ، بخصوص ابنتك جمال ؟
الاب ــ جمال ... ! انها طيبة كالسكرة . عيوقة غندورة ، وبنت من احسن بنات المدرسة واذكاهن ، على ما تقول معلماتها الكريمات .
الام ــ طيب ... طيب ، كل هذا مفهوم ولكن جمال ستنهي دروسها العالية هذه السنة ... ويجب ... ان نفكر لها ب... ب... بالعريس ... يا ابا حمدي .
الاب ــ « مقهقها » قولي هذا منذ البداية وارتاحي ... لماذا تحومين حول الموضوع ولا تفصحين .. ؟
الام ــ اتكلت على ذكائك يا ابا حمدي ، عهدي بك ذكيا تقرا بين السطور !
الاب ــ كان زمان وكنا نقرا بين السطور اما اليوم فحبذا لو كنا نستطيع قراءة السطور وفهمها يا ام حمدي ...
« ثم يعود ابو حمدي الى قراءة جريدته كأن شيئا لم يحدث » .
الام ــ ماذا ؟ عدت الى قراءة الجريدة ؟
الاب ــ عفوك يا ام حمدي ... وماذا تريدنني ان افعل ؟
هل لك ما تقولينه ؟ هات ما عندك ...
الام ــ اريد ان اسمع رايك في اسامة
الاب ــ ولكنكم تعصبتم عليه تعصبا اعمى ، ولم تشاؤوا ان تقابلوه او تنظروا في امره .
الام ــ صحيح ... ان اعتراض جمال عليه وجيه ، هو قصير القامة ...
الاب ــ طبعا ... طبعا ... ينقص عن المطلوب عشرة سنتمترات ، اليس كذلك ؟
الام ــ ما ابردك يا ابا حمدي ! !
الاب ــ وما قولك في الدكتور منير ؟ رغم ادبه ، ومركزه الاجتماعي الممتاز ، فقد ادعيتم انه فقير لا يملك ثروة تليق بجمال ، وسعادة جمال وعيشة جمال ...
الام ــ او تريد ان تقضي ابنتنا حياتها شقية معدمة ، تحتاج الناس بدلا من ان يحتاجوها وتحسد رفيقاتها على غناهن واموالهن ، وهي التي تربت في احضان العز والدلال ! ؟
الاب ــ ابدا ابدا ... انا اريد تعسها وفقرها ؟ هذا لن يكون ...

المشهد الثاني

« يدخل حمدي فجاة متابطا محفظته الجلدية وفيها كتبه المدرسية ، فيرمي بها على مقعد في الغرفة ويقول » .

حمدي ــ ابدا ابدا هذا لن يكون ...
الام ــ واخيرا جاء حمدي يتدخل فيما لا يعنيه
حمدي ــ طبعا ... هذا لا يعنيني
الام ــ وليتك تعرف ما هو اولا ؟

حمدي ـ وكيف يمكن ان اعرف ما هو ، وانتم تحافظون على اسراركم محافظة دقيقة ؟ اليس موضوع اليوم كموضوع كل يوم ؟

الام ـ « وقد نظرت الى حمدي نظرة شذراء »
وما هو يا طويل اللسان ؟

حمدي ـ طبعا زواج جمال ، وهل هناك غير جمال ؟... جمال في الصباح وجمال في المساء ، كأن الدنيا لم تعرف غير جمال ! ...

الام ـ هذه هي عادتك ولن تغيرها ... وما الذي يزعجك من هذا الحديث ؟ اهذا مبلغ حبك لشقيقاتك ، وهن يبذلن حياتهن لسعادتك يا حمدي ؟

حمدي ـ وهل يهمك امر جميع شقيقاتي ؟ وهل تذكرين بخير غير ابنتك جمال ؟ او ليس لهذا الليل من اخر ؟ زوجوها وارتاحوا ..

الام ـ عال ... عال ... هذا ما نريده . ولكن اين الخطيب ؟ اين العريس ؟

حمدي ـ « مقلدا صوت امه »
اين الخطيب ؟ اين العريس ؟ فتشوا عنه في المخابيء وفي الزوايا وعلى الطرقات ... اين الخطيب ؟ اين العريس ... اشتروه باموالكم وقدموه هدية الى الانسة جمال ... ها انا ذاهب لادعوها .. فانتظروني..
« يخرج بسرعة وهو ينادي » جمال ... جمال...

الام ـ هذه وقاحة وتطاول من ابنك حمدي على اخته جمال

الاب ـ ولكن يا ام حمدي ان في كلامه كثيرا من الصواب . هذا طويل ! ... وهذا قصير ! ... هذا صعلوك وهذا فقير ... هذا كبير ! ... وهذا صغير ! ... فما بقي امامنا الا ان نفتش في دكاكين البائعين عن عريس ! ...

الام ـ كفى يا ابا حمدي ! ... كفاكم تحاملا وتهجما على الفتاة المسكينة ، المنكوبة بكم ! ... والله لو كانت جمال في بيت « اوادم » لما تجاسر على طلب يدها غير الامراء وابناء الملوك ! ...

المشهد الثالث

حمدي ـ « وقد سمع حديث والدته »
طبعا امير من امراء الاساطير ، او ملك من ملوك الجان خطير ! ...

الاب ـ كأنك تعلم كل ما يجول في فكرها

حمدي ـ هذا ما تردده يا والدي في كل دقيقة تمر ، بل في كل سانحة تسنح

الاب ـ لقد ذهبت لتدعوها الى هنا فاين هي ولماذا لم تات ؟

حمدي ـ انها منهمكة في جدل فلسفي عميق مع عمها وعمتها حفيظة ، حول العقلية المهترئة او الرجعية البالية كما تسميها ! !

الاب ـ وهل عمك وعمتك هنا ؟

حمدي ـ جاؤوا لزيارتنا فاذا بهم يجدون جمال جالسة الى المذياع وهي غارقة في بحر من البكاء تردد على انغام الموسيقى قصيدة غرامية بصوت متهدج تخنقه العبرات ، وما ان اقتربت منها عمتي حفيظة تطيب خاطرها ، وتسأل عن سبب بكائها حتى انهالت جمال على الجميع بوابل من التوبيخ والتقريع نالني القسم الاكبر منه ... فهرولت مسرعا وقد نجوت بنفسي ، اما عن الحزن الذي اصاب عمي مختار ، فلا تسل ! ! ها هم قادمون وجمال ما زالت محتدة ، وعمي قد احمرت اذناه ! ...

المشهد الرابع

العم مختار ـ لا ... لا ... هذا لا يكون ... هذا لا يكون وفي عرق ينبض ...

الاب ـ مالك يا اخي مختار ! مالك مغضبا ؟ مغتاظا ! ما الذي اثار حفيظتك ؟ اهلا بكم ... تفضلوا

العم مختار ـ قل لي يا اخي ! هل تريد ان تعيش بخلاف ما عاش ابوك وجدك ! ؟

الاب ـ طبعا ... لا ... اعني ... نعم ... او بالاحرى ناخذ عنهم الحسنات ونتجنب السيئات .

العم مختار ـ « بحدة ضاربا الارض برجله والطاولة بيده »
ولكن هل تعتقد بان لاجدادنا سيئات ؟ الا تعلم انهم كانوا اطهر من الزنابق في حياتهم وتصرفاتهم ؟ الا تعلم ان زمنهم كان زمنا مقدسا ، شريفا ، طاهرا ، واننا نحن نعيش في زمن قاتم ، كالح ، اسود ! !

الاب ـ نعم ... نعم اعرف ذلك ... ولكن ...

العم مختار ـ « مقاطعا »
ولكن ماذا ؟ ماذا تريد ان تقول ؟ ستقول ان الزمن قد تغير ، واصبح الناس غير الناس ، والمجتمع غير المجتمع، والنظر الى الاخلاق والاداب بالمنظار القديم اصبح لا قيمة له ولا اعتبار ... وان الحياة ...

الاب ـ « مقاطعا »
لا ... لا ... لا اريد ان اقول شيئا من كل ذلك ولكن ...

العم مختار ـ « مقاطعا » نعم ... تريد ان تدعي ان العلم الحديث الذي جاءنا ، لا ادري من اين ، قد فسح امام اولادنا مجال التفكير والتنقيب والتساؤل ، فلم يعودوا يكتفون بما كان يكتفي به اباؤهم واجدادهم ، وان المخترعات الجهنمية الجديدة التي جاءتنا من وراء البحار ، كالسينما والراديو ، هي نعمة من نعم الله على عباده المؤمنين ! ! وان ...

الاب ـ « مقاطعا » كلا يا سيدي ... كلا يا اخي ... كلا يا حبيبي ... لا اريد ان اذكر شيئا من كل هذا ولكن ...

العم مختار ـ « مقاطعا » لا كلا ولا لكن ... انا عارف بما ستقوله ... انا عالم بما يجول في راسك ... ستدعي ان فتاة اليوم غير فتاة الامس ، وان العلم للفتاة ضرورة من ضرورات الحياة ، وان التعليم الابتدائي والثانوي لا معنى له ان لم تتعلم فتياتنا في الجامعات العلوم العالية ، وان السفور حق من حقوق النساء ، وان الحجاب...

الاب « مقاطعا ومحتدا » ها ها ... واخيرا ؟ كلا لن ادعي شيئا من كل ذلك ، انما ...

العم مختار ـ انما ماذا ؟

الاب ـ انما ما الذي يحملك على هذه الثورة ؟ وما الدافع لكل هذه الاقوال ؟

الام ـ ارايت انه لا يريد ان يذكر شيئا من كل ذلك ؟

حمدي ـ ارايت يا عماه ؟ ارايت ان ابي لا يريد ان يذكر شيئا من كل ذلك ؟

حفيظة ـ هذه عاقبة التسرع ... انت تتسرع دائما يا مختار . ارايت ان اخاك لا يريد ان يذكر شيئا من كل ذلك ؟

الاب ـ والان يا مختار . الا تريد ان تفهم ان لكل زمان رجاله وان لكل وقت زيه ؟

مختار ـ يكفي يا شيخ ! يكفي يا اخي ... ان تساهلك سيؤدي بك وبعائلتك الى اوخم العواقب . ايكون لك ابنة جميلة ، ذكية ، نشيطة كجمال ولا تزوجها ، وقد بلغت العشرين ؟

الام ـ سلم تمك ... هذا كلام مقول ... هذا ما كنت اقوله الساعة .

حمدي ـ هذا ما كانت تقوله الماما يا عم مختار ؟

الاب ـ وهذا ما اقوله انا ويقوله كل من يعرف جمال... ولكن ...

حفيظة ـ وهذا ما اقوله انا طبعا ولكن ...

مختار ـ لقد حرت والله ... ولكن ماذا ؟

الاب ـ اسمع يا مختار ... جمال اصعب من ان تؤخذ بالقوة ، فيجب ان تستشار بامر زواجها وان يترك لها الحق في اختيار رفيق حياتها ...

حمدي ـ طبعا طبعا وان يسمح لها بان تعاشره معاشرة تتيح لها الاطلاع على ميوله ومشاربه وهل هو مثلا يحب اللون الاخضر ام الازرق ؟ او هل يفضل الشعر على النثر او ...

الام ـ « مقاطعة » ان جمال ، يا مختار ، بنت مدارس لا بل بنت جامعة ، وانت تعرف ما معنى ذلك ! !

العم مختار ـ نعم ... نعم انا افهم ان يكون لجمال رأيها في امر زواجها ... وانا اعرف ماذا تعني عشرات السنين وفتاتكم تنتقل من مدرسة الى مدرسة ، ومن جامعة الى جامعة ... نعم انا اعرف كل ذلك ، ولكن ما لا استطيع فهمه هو ان ترفض عشرات الشبان في الوقت الذي تتمنى الكثيرات من بناتنا الحصول على واحد من أولئك الشبان ! ...

حمدي ـ في الوقت الذي تتهافت فيه اجمل بنات البلد وارقاهن واظرفهن على اي شاب من الشبان للزواج ! !

الام ـ خاصة ، متى كان مثل حمدي ... ! !

حفيظة ـ ولم تظلمون هذه الفتاة ؟ صارحوها في الامر ، ولتبد رأيها ، فربما يكون لها اسبابها في الامتناع .

الام ـ ليس اوفق من عمها مختار لمفاتحتها في الامر . وعليك ان تكون لبقا ، حذرا ... ها هي قادمة مع اختها سعاد ولا بد ان يكون وراء الاكمة ما وراءها .

المشهد الخامس

« تدخل جمال وشقيقتها سعاد مسرعتين وهما تتجادلان في موضوع هام تريدان الاحتكام فيه الى الحضور » .

جمال ـ « وهي تربت على كتف عمها محاولة استرضاءه ـ ان عمي مختار لن يهتم لهفوة تصدر عني ، انا متأكدة من ذلك ، وسيكون خير حكم بيننا .

سعاد ـ وسترين انه سيكون بجانبي وسيحكم لي .

جمال ـ لا بل لي

سعاد ـ لا بل لي

الاب ـ رويدكما .. ما الامر ؟ ما هي القضية التي تزعجكما؟ وما هو وجه الاختلاف ؟

جمال ـ تقول سعاد : ان المال في الحياة هو خير ما يتحلى به الشاب ووجوده يبرر الجهل ، فباستطاعة الشاب المثري ، في نظرها ، ان يغزو قلب اعظم الفتيات في بلادنا ، واقول ان العلم هو اعظم واسمى من المال ! !

سعاد ـ كأن القضية تحتاج الى برهان ! وكأن الحوادث لا تتعدد ، كل يوم ، وكل ساعة ، امامنا وتحت ابصارنا ! ! ..

جمال ـ كلام فارغ ... لا اريد ان اسمعه ، او ان اصدقه !

سعاد ـ سواء سمعت او لم تسمعي ، صدقت او لم تصدقي ... هذا لا ينقص من الحقيقة شيئا .

جمال ـ تبا لهذه الحقيقة التي تدعونها ! وتبا لكم من قوم جهلاء ، اغبياء ، نخرت المادة قلوبكم واعمت ابصاركم بهارج الدنيا وزخارفها الباطلة فتهتم عن الحق وابتعدتم عن الصواب !

مختار ـ وهل تنكر الحبيبة جمال ان المال هو العامل الفعال في تسيير هذا العالم الذي نعيش فيه متطاحنين ، متزاحمين ؟

الاب ـ وان المال هو الذي رفع منزلتنا الوضيعة ، فبعد ان كانت دكاني صغيرة حقيرة في زاوية من زوايا الشارع اصبحت بعد هذه السنوات العشر متجرا كبيرا واصبح ابوك مثريا كبيرا من المثرين المعدودين ؟

الام ـ وانه لولا المال ، يا عزيزتي جمال ، لما قدرنا على تعليمك وتثقيفك في ارقى مدارس لبنان ، فاصبحت من انت ! ...

حمدي ـ وانه لولا المال ، ولولا ده سوتو De Soto الذي يرابط على الباب كالاسد الهصور ، ينقلك من مكان الى مكان ، صباح كل يوم وعشية كل نهار ، لما اتيح لك ان ترفضي العشرات ممن يتقدمون لطلب يدك يا ست جمال ! ...

جمال ـ وهذه هي العلة الكبرى ... وهذا الذي يحملني على رفضهم وعدم قبولهم ... لو كان فيهم من يحبني لغير مالي ! ...

حفيظة ـ انني لا ارى مانعا في جبهم مالك ، او يمنعهم ذلك من حبك ايضا حبا صادقا ؟

جمال ـ انني اكرههم ! ... انني احتقرهم واحتقر غناهم واموالهم واود لو لم اكن غنية ! ... آه ... لو انني ولدت فقيرة !! ...

سعاد ـ لكنت تمنيت او تكوني غنية ! ..

الاب ـ ولصليت ليلك نهارك في طلب شاب غني يرد عنك العوز ويحيطك بمظاهر الابهة والمال ! ...

الام ـ « بشيء من التحسر والبكاء » ولمضيت حياتك ، وانت تحسدين رفيقاتك وبنات جنسك على حياتهن ومعيشتهن المترفة ...

مختار ـ ولكان الناس يبتعدون عنك كابتعادهم عن الجمل الاجرب

حفيظة ـ « دخلك » يا بنتي ! ... فقيرة ! ... اذن خير لك لو لم تولدي ! ...

حمدي ـ لو كنت فقيرة ... اذن لبكيت دما احمر ! ...

جمال ـ مساكين انتم ! ... انني ارثي لكم واشفق عليكم ! .

حمدي ـ صحيح ! ... ولكن يا جمال ، ما رايك لو وصفت لنا الشاب الذي تتمناه فتاة مثقفة مثلك !

مختار ـ لعلنا نستطيع مساعدتك على ايجاده ! ...

حفيظة ـ ونزوجك ونفرح منك يا حبيبتي ! ...

الاب ـ وهل موجود في هذه المدينة ؟

حمدي ـ ربما سيكون من سكان المريخ ؟

سعاد ـ قبل وجوده هنا او هناك ، سلوها ان كان من لحم ودم ؟ وهل يتكلم ككل الناس ؟

الام ـ بالله عليك يا بنيتي ، الا قلت من تحبين ومن تفضلين ، اذن لدفعنا وزنه ذهبا واشتريناه لك ! ...

« موسيقى »

« ويشرئب جميع الحاضرين باعناقهم لاستماع جواب جمال ، ويتطلعون اليها وفي عيونهم دمعة ، وفي قلوبهم حسرة ، على هذه الفتاة الشرود التائهة ! لم لا تعي ؟ لم لا تصغي ، لم لا تعيش كما يعيش امثالها من الفتيات!!! وتسبح جمال في عالم من الاطياف والاخيلة فتنسى نفسها وتنسى آلها وذويها وجميع الحاضرين امامها ونغرق في جو من الخيال الساحر ، والموسيقى المخدرة ، فتأخذ شفتاها بالهمس والتمتمة وكأنها تحاول ، بكل ما اوتيت من قوة ومحبة ان توقظ هذا الحبيب المعبود من غفوته الهنيئة السعيدة» :

جمال :

يا حبيبي كحَّل الليلُ جفونَكْ والغرامْ
يا حبيبي خلّني ارعَ عيونَكْ في المنامْ
يا حبيبي ! ..

يا ابنَ احلامي انت دغدغات في الصَّباحْ
انت احلام العذارى انت اشواق المِلاحْ
غفوةٌ في قلبيَ المضنى الكليمْ
رعشة في صدري الدّامي الاليمْ
يا حبيبي ...

●

يا حبيبي ..
بزغ الفجر فقم أنشدْ هواكْ وترنَّمْ
وانشرِ الطيبَ زكياً من لِماكْ وتألَّمْ
انما الحبُّ عذابٌ وألمْ
وخفوق دونه همس النغمْ
يا حبيبي كم تعذبتُ وكمْ
مضني حبي واضناني وكم !!...
يا حبيبي ...

●

يا طيورَ الغاب فوق الجدولِ بالاغاني
احملي حبِّي وفيض القبلِ والاماني
لحبيبي
أيقظيه ، أ نعشيهِ يا طيورْ
وأسكبي السحر بفيه والخمورْ
فحبيبي
بسمةُ الفجر على ثغر الزمان والاقاحي
بلسمُ الطيب وترياقُ الحنان لجراحي
يا حبيبي ! ..
وحبيبي ...
همسةُ النّايِ شرودُ القمرِ في الليالي
وحبيبي ...
فوق كلَّ الناس ، فوق البشرِ في خيالي
يا حبيبي ...

موسى سليمان

تطور فكرة النوع في علم الحياة

بقلم محمد اديب العامري

*

ما هو النوع ؟

يتناول بحثي هذا فكرة النوع Species في علم الحياة. لقد تطورت هذه الفكرة خلال الفترة الاخيرة الى درجة تقضي بالاطلاع على اتجاه هذا التطور ومداه .

ولست بحاجة الى التعريف باهمية الموضوع ، فان تطور النوع في الاحياء هو في الحقيقة تطور الحياة كلها وتقدمها . ومعرفة اسرار هذا التطور تؤدي الى التحكم في شيء من نتائجه التي تفيد من ناحية عملية واقتصادية.

وعندما اصدر دارون كتابه الشهير عن نظرية التطور لم يسمه « مبادىء التطور » او « نشوء الاحياء » ، او غير ذلك من الاسماء العامة ، وانما عمد الى تسمية دقيقة معينة فسماه « اصل الانواع » ، وذلك لانك اذا عرفت نشوء النوع وتتبعت ارتقاءه ، فقد عرفت تطور وحدة صغيرة من وحدات الكائنات الحية . واذا عرفت نشوء جميع الانواع تكاملت لديك صورة النشوء كلها . ان تسمية دارون لكتابه باسم « اصل الانواع » تلخص بشكل رمزي رياضي نشوء الحياة وتطورها ورقيها .

وهذه هي اهمية النوع ، فلابدأ الان ببيان المقصود منه اولا لكي اعقب على ذلك بتطور فكرة النوع .

ان الجنس البشري مثلا يعتبر في نظر علم الحياة نوعا واحدا ، يشمل ذلك اسوده وابيضه . وكذلك نوع من الحصان أو البقرة او نوع معين من انواع التفاح أو التين او من انواع الكائنات المجهرية .

وهنالك فرق بالطبع بين « النوع » من الاحياء وبين « الفرد » منها . فالفرد من الناس هو واحد من هذا النوع الذي يملأ الارض والذي يدعى علميا Homo Sapiens اما النوع فهو مجموعة الافراد كلها . وعشبة القمح التي تدعى Triticum Valgare هي نوع من القمح . وهنالك نوع آخر نعرفه وهو النوع المعروف علميا باسم Tr. durum وشجرة التفاح الواحدة فرد ، ولكن مجموعة التفاح التي تعين على وجه الارض مما يدعى علميا Pyrus Malus هي نوع .

ولزيادة ايضاح المقصود اذكر ايضا ان نوع الاجاص المشهور بالبري هو وحده وبمفرده نوع من انواع الاحياء النباتية . واسم هذا النوع Pyrus Communis وتلاحظون من الاسمين العلميين للنباتين، التفاح والاجاص، ان كلمة Pyrus مشتركة بين النوعين كليهما ، ولكن احد النوعين وهو التفاح يدعى Malus والثاني وهو الاجاص يدعى Communis . ان هذين الاسمين اي Malus و Communis يدلان على اسمي النوع، أي اكثر شمولا . وتوجد فوق الجنس اقسام اشمل منه . وحديثنا الان انما يتناول النوع .

تلاحظون مما اسلفت ان اسم الحي العلمي شطران ، اولهما اسم الجنس والثاني اسم النوع . واذا اردنا مقابلة ذلك بطريقة الناس في التسمية فاسم الجنس يقابل اسم العائلة واسم النوع يقابل اسم احد افرادها .

وليس النوع كما المعت اصغر اجزاء الكائنات الحية وتفرعاتها ، وان لم نخطىء على الارجح اذا قلنا ان النوع هو اصغرها .

فانت ترى احيانا كائنا حيا يسمى بثلاث كلمات لا باثنتين ، اذ يتفق ان يضع عالمان اسما واحدا لحيين مختلفين. لذلك يردف كل من اسمي الحيين باسم العالم الذي وضعه منعا للالتباس مثال ذلك :

Prunus Virinia Linné, Prunus Virginia Millier

والان ما الذي يميز نوعا من الاحياء ويفصله عن الانواع الاخرى ؟ اننا نستطيع بسهولة ان نميز بين النوع الانساني والتفاح . فالفروق في التركيب العام وفي اشياء اخرى كثيرة واضحة . والفروق بين التفاح والاجاص كثيرة وواضحة ، ولكنها على وضوحها اقل مما هي بين الانسان والتفاح . ولكن الفروق بين نوع ال Vulgare من القمح ونوع ال Durum هي اقل ، وقد لا يلتفت اليها الملاحظ العادي . وادق من ذلك الفروق بين الانواع الدنيا من الاحياء ولذلك يرى بعض المصنفين ان فكرة النوع لا اساس لها من الصحة ، وان الوحدة الثابتة في الطبيعة التي لها وجود حقيقي هو الفرد من اي حيوان او نبات . وان تطور الحياة في معارج الرقي والارتقاء انما هو تطور الفرد . فالكائنات الحية تتألف من مجموعة هائلة من الافراد بعضها متشابه وبعضها غير متشابه ، ولكن قسمتها الى انواع واجناس وفصائل ــ الخ ، انما هو مصطنع لتمكين الدارسين والعلماء من الاحاطة بالموضوع . والانواع يتدرج بعضها الى بعض ويعاضل بعضها بعضا لتكون وحدة مستمرة متصلة .

وفي هذا الصدد يقول دارون :

« اني انظر الى الاصطلاح « نوع » نظري الى اصطلاح اعتباطي يطلق من اجل التنسيق على مجموعة من الافراد

يشبه بعضها بعضا شبها كبيرا . وان الاصطلاح « نوع » لا يختلف في جوهره عن « فرع النوع » Variety الذي يطلق على اشكال اقل وضوحا واكثر عرضة للتغير وان الاصطلاح « فرع النوع » ليس الا اصطلاحا اعتباطيا كذلك اذا قورن بالفروق الفردية وحدها انما هو شيء يراد به التنسيق .

لكن ماير Mayr وغيره من العلماء يميلون الى الاعتقاد بان هنالك فعلا شيئا يسمى النوع ويتألف من مجموعة من الافراد الحية ، وان هنالك فجوات واسعة او ضيقة بين نوع وآخر. ويقرر بعضهم بصورة قاطعة ان هذه المجموعات المنفصل بعضها عن بعض من الحيوان والنبات ، والاحياء المجهرية ، تقسم الاحياء الى انواع ، وان فكرة النوع فكرة قائمة واضحة .

ولا يتفق العلماء على تعريف النوع كما المعت. فيمكنك ان تقيم تعريفك على الفروق الظاهرية التي تبدو للعيان اول وهلة ، او على الفروق في التركيب ، وهي هامة . ولكن اقامة التعريف على الفرق القائم على القدرة على التوالد هو الاساس المعول عليه بين مختلف العلماء . فالانسان لا يتوالد مع غيره من الحيوان ولذلك فهو نوع قائم برأسه . وافراد الانسان يتوالدون بعضهم مع بعض على اختلاف اوطانهم وشعوبهم والوانهم . ولذلك تكون الهيئة البشرية نوعا واحدا كما اسلفنا . وافراد نوع من التفاح تتلاقح وينتج من هذا التلاقح نسل سوي قادر بدوره على التلاقح ، وانتاج افراد لها القدرة على التناسل . فالافراد او الاشكال التي لا تتنافر فيما بينها في القدرة على التلاقح والانتاج تؤلف فيما بينها نوعا واحدا . ومع ان الشبه الظاهري بين القمح العادي « العربي » الطري T. Vulgare والقمح ذي الحبة المفردة T. Durum كبيرة ، الا ان هذين النوعين لا يتوالدان ولذلك يعتبر كل منهما نوعا على حدته . ومعنى ذلك ان الافراد التي لا تنتمي الى نوع واحد تتناسل ، واذا تناسلت فهي تنتج افرادا ليس لها في الغالب قدرة على التناسل . وهذه الخاصة يعتبرها بعض العلماء اهم الخصائص التي تعرف النوع الى درجة ان بعضهم حين يعرف النوع لا يذكرها الا هي . والافراد التي تنتمي الى نوع واحد تكون ذات اصل واحد ، اي انها انحدرت من سلف واحد من الاسلاف، او من اصول متشابهة . وافراد النوع الواحد تتشابه في التراكيب اكثر مما تتشابه هي وافراد من انواع اخرى .

ويقع على جوار النوع من الادنى جزء النوع Sub. Species ودونه العرق Race ويقع الى جواره من الاعلى الجنس Genus ثم الفصيلة Family ثم الصف Order ثم القسم Class ثم الطائفة Phylum

ولتوضيح ذلك نذكر ان العنز السوري المعروف ذا الاذن الطويلة ينتمي الى النوع المسمى علميا Capra Domestica وهذا ينتمي الى جنس ال Capra الذي يرتد الى فصيلة الثور Hollow-Horned Rumninants التي تعزى بدورها الى صف ذوات الحوافر Ungulata التي تعتبر من قسم الحيوانات اللبونة Mammals وهذه من طائفة ذوات الحبل العصبي Chordata هكذا :

الطائفة : ذوات الحبل العصبي Chordata

القسم : الحيوانات اللبونة Mammals

الصف : ذوات الحوافر Urgulata

الفصيلة : الثور Ox Family

الجنس : العنز Capra

النوع : العنز السوري Capra Domestica

ومع كل هذا التصنيف والتوضيح لا يزال في هذا الباب من يقول الى اليوم بان النوع ما هو الا وحدة التنظيم التي يعتبرها العالم الاختصاصي نوعا قائما برأسه . ولكن هذا التعريف غير صالح تمام الصلاح لانه يدخل الحكم الذاتي Subjective في الحساب .

والنوع شيء متحرك متطور ، فان نوعا من الاحياء يتحول الى نوع آخر ، ولذلك كان « النوع » فكرة ، لكن هذه الفكرة في الاتجاه الحديث آخذة في الوضوح . فللنوع الان حدود واضحة المعالم وذلك خلاف الاتجاه الاول الذي يجعل الفروق بين الانواع متدرجة ضئيلة او منعدمة ، بحيث يندمج اول النوع بآخر النوع التالي ويتعاضل معه كما ذكرنا .

نشوء الانواع

كيف وجدت الانواع على وجه الارض ؟ والجواب البديهي على ذلك انها وجدت عندما ظهرت الحياة على الارض . فما ان ظهرت هذه الحياة ووجدت في البيئة الارضية ما يساعد على بقائها وتوالدها حتى اخذت الانواع تظهر وتزداد ، وذلك بسبب من طبيعة الحياة ، وهي النمو والاتساع والارتقاء .

وهنالك اسباب كثيرة لنشوء الانواع ، ولكن معظم هذه الاسباب غير معروف بالتأكيد . فمن الاسباب التي يراها بعض العلماء ان التغيير البطيء لفرد من افراد الحيوان او النبات او الاحياء المجهرية يتراكم مع الزمن حتى يكون خصائص جديدة ، فينتج من الفرد الذي تتراكم فيه هذه التغييرات نوع جديد يختلف عن الفرد الذي نشأ منه هذا النوع . وبحسب هذه النظرية لا يكون هنالك تطور فجائي Mutation بل ان النوع الجديد هو وليد تراكم التغيرات البطيئة التدريجية المتعددة على طول الزمن . واصحاب هذا الراي يلاحظون مثلا ان على وجه الارض اليوم نحو ٨٥٠٠ نوع من الطيور وجدت منذ نحو ٥٥ مليون سنة . ومع ذلك فالفروق بين الطيور الموجودة اليوم والتي وجدت اثناء هذه الفترة الطويلة من الزمن فروق لا يؤبه لها ، وقد تكون برزت خلال عشرة الملايين او العشرين مليون سنة الاخيرة . ولا بد بطبيعة الحال عند تراكم هذه التغيرات من ان ينتج في النهاية فرق واضح في صفة التوالد بين النوع الناشيء الجديد والفرد (او مجموعة الافراد) الذي نشأ منها هذا النوع بحيث يمتنع التوالد بين الفرع والاصل ، اذ ان الفارق الاساسي بين نوع ونوع هو عدم القدرة بينهما على التوالد كما سبقت الاشارة اليه .

ويعتقد بعض العلماء ان عزلة افراد من الحيوان او النبات عن البقية ، وحياة الافراد في العزلة الجديدة ، يغير

من طبيعتها مع الزمن تغييرا يكسبها صفات جديدة تعزلها من الناحية التناسلية ايضا ، فلا يعود التلاقح اذا تم بين الافراد المعزولة والافراد الاصلية قادرا على انتاج نسل ، فيتم بذلك نشوء نوع جديد .

وقريب من هذه العزلة الانفصال الجغرافي بالمعنى الواسع لهذا الانفصال . فاذا انفصلت افراد من الحيوان او النبات عن مثيلاتها وانعزلت في جزيرة او صقع جغرافي يختلف مناخه عن الصقع الذي كانت الافراد الاولى تعيش فيه ، نشأ عندئذ وبعد مرور الزمن ، نوع جديد منفصل من الناحية التناسلية كذلك . ويجب ان نلاحظ ان نشوء النوع الجديد على هذه الصورة انما يكون على حسب هذه النظرية من افراد او من اجزاء ناشئة من النوع Incipient Species وعندما تظهر الافراد الجديدة للنوع الجديد يموت قسم منها ويظل قسم . ومتى كتب لبعضها البقاء والحياة والاستمرار توطد النوع الجديد واستقر واثبت وجوده . وقد عبر فون بوخ Von Buch عن ذلك بما يلي :

« ان افراد جنس من الاجناس تنتشر في القارات وتصل الى مواقع بعيدة ، وتشكل فروعا من انواع Varieties مختلفة ، لاختلاف المناخ والطعام والتربة . وبذلك يمتنع تناسلها مع اشكال اخرى ، ويتعذر رجوعها الى حالة الافراد الاصلية . وبعد هذا تثبت هذه الاشكال وتصبح انواعا جديدة . وقد تلتقي الانواع الجديدة مع انواع اخرى تشترك معها هي الاخرى في التغير فتكون هذه ايضا انواعا جديدة ، ويكون قد ولد في النهاية نوعان جديدان متمايزان . »

على ان السبب الاهم في نظر بعض العلماء لنشوء الانواع هو تغير ظروف العيش التي تحيا فيها افراد النوع ، او التغير في استحالة الغذاء Metabolism . وقد لاحظ كرابتيان سنة ١٩٤٨ ان نوع القمح المدعو T. Durum اذا زرع في اواخر الخريف فانه يتحول خلال جيلين او ثلاثة اجيال الى نوع القمح الطري العادي T. Vulgare . والاول يحتوي على ٢٨ كروموسوم ، بينما يحتوي الثاني على ٤٢ كروموسوم . وقد ظهرت حبات القمح الطري في سنابل القمح العادي Durum ، اي ان حبات نوع وجدت في سنابل نوع آخر . وعندما زرعت حبات القمح الطري الناتج بهذه الطريقة انتجت كلها قمحا طريا . وفي جميع هذه التجارب لم ينتج قمح متوسط بين الانواع التي ينتج بعضها من بعض .

على هذه الصورة ، وبتأثير عوامل البيئة ، تنتج بعض الانواع انواعا اخرى وتحل الانواع الجديدة محل الانواع القديمة . وقد عرف علماء الحبوب منذ زمن بعيد ان عدم فلاحة الارض يؤثر تأثيرا فتاكا على الاعشاب ، وان للفلاحة مع هذا تأثيرا مناسبا على بعضها فينتج انواعا مختلفة .

وليست نتيجة هذه النظرة بسيطة ، فان معناها ان الانسان يستطيع ان يتعاون مع الطبيعة لانتاج الانواع التي تناسبه من الناحية الغذائية والاقتصادية ، سواء كان ذلك في عالم النبات ام في عالم الحيوان .

الظهور المفاجيء :

لقد اورد دارون في كتابه « اصل الانواع » بحثا عن « الظهور المفاجيء » للانواع ، لم يكن معناه في الارجح واضحا في زمانه ، وان كان هذا المعنى او ما هو بسبيل منه يكتسب اهمية خاصة يوما بعد يوم في الدراسات الحديثة . واهم من ذلك ان دارون نفسه يفسر هذا النشوء المفاجيء تفسيرا يذهب بالمعنى الذي يميل اليه بعض العلماء اليوم . ودارون يلاحظ هذا الظهور المفاجيء ولكنه يفرض دائما ان الانواع تنشأ بالتدريج وتتطور بالتدريج . فاذا لمح مظاهر من نشوئها المفاجيء دون تطور سابق ، افترض ان النشوء لم يكن فجاة وان التطور موجود ، لكن آثاره في الارض لم تحفظ في طبقاتها . ان النشوء الذي يبدو مفاجئا هو في نظر دارون حلقة في سلسلة ظهرت لنا (اي الحلقة) فجاة . ثم يمضي للتدليل على ان العقيدة بالظهور المفاجيء للانواع خطأ يرتكبه بعض العلماء .

ومن العلماء المحدثين الذين يميلون بعض الميل مع دارون اوزبورن Osborn الذي يرى ان الانواع تستجد باستمرار ، وان ظهور انواع جديدة انما يقع بعد تراكم التغيرات التدريجية التي تظهر في فرد من نبات او حيوان ، او مجموعة من الافراد تقع تحت تأثير واحد متماثل ، حتى اذا بلغت حدا كافيا ظهر الفرد في نوع جديد دون مفاجأة او طفرة . على ان اوزبورن يدخل في حسابه عاملا جديدا في عوامل تطور الافراد من نوع الى نوع جديد وهو التغير الفجائي Mutation ولكنه لا يميل مع من يظن بان التغيرات الفجائية هي العامل الرئيسي او الوحيد في نشوء الانواع .

وهنالك نظرة خاصة يقول بها لوتسي Lotsy وهي ان نشوء الانواع ينتج من تعديل في مواقع العوامل Genes وعددها . وتذكرون ان العوامل تقوم بدور كبير في نقل صفات الكائن الحي من جيل الى جيل عن طريق الخلايا التناسلية . وكل نوع من انواع الحياة تشتمل خلاياه التناسلية على عدد ثابت من العوامل . وبحسب نظرية

لوتسي هذه اذا تغير عدد العوامل او تغيرت مواقعها ادى ذلك الى نشوء نوع جديد .

التغير الفجائي : Mutation

وهنا أحب ان اذكر كلمة موجزة عن التغير الفجائي . ان « التغير الفجائي » يقع بصورة طفرة كما يدل اسمه عليه. ان العادة في انتقال الصفات من حي الى آخر من نسله ان تظهر هذه الصفات كما هي تقريبا او بتعديل بسيط . لكن يقعاحيانا في الطبيعة ان تظهر صفاتجديدة بصورة مفاجئة تجعل الفرد الجديد يختلف عن سلفه في صفة او اكثر من الصفات اختلافا بينا . وهذا الفرق قد يكون كبيرا وقد يكون طفيفا ، لكنه جديد مفاجيء ولا يؤلف جزءا من سلسلة التغيرات التي تقع في صفة من الصفات . ويقع التغير الفجائي بانعدام صفة معروفة انعداما كاملا او جزئيا . مثال ذلك بين الناس ميلاد طفل ذي ست اصابع في يده او قدمه، او ميلاده بسلاميتين في اصابع يديه ، في حين يكون الابوان ذوي اصابع او سلاميات عادية .

والمهم في الصفات الناتجة عن التغيرات الفجائية انها تورث ، فهي اذن ليست من الصفات التي يقتصر اثرها على خلايا الاجسام وانما تتجاوزها الى الخلايا التناسلية .

اما اسباب هذه التغيرات فنذكرها ذكرا ولا نعالجها ، واولها هو تغير البيئة . فالتغير في البيئة يضع الفرد من الاحياء تحت عوامل جديدة من الحر والبرد وغيرها مما قد يؤثر تأثيرا خاصا في خلايا الانتاج ، فينتج بسبب ذلك انواع جديدة . وقد يؤدي التلاقح بين عرقين من نوع واحد الى نوع جديد بظهور صفات جديدة بالتغير الفجائي . ومع ان العرقين ينتميان الى نوع واحد فقد يحدث فيما يظهر ان يرث فردان من عرقين مختلفين صفاتجزئية من الاسلاف لم يجتمع بعضها الى بعض في السابق . فاذا تلاقح هذان العرقان سنحت الفرصة لهذه الصفات بان تختفي فجأة او تبرز فجأة على صورة ليس لها مثيل سابق . وكما يقع هذا على هذه الصورة فقد يقع اذا تلاقح عرقان متمايزان فيتولد من تلاقحهما صفات جديدة .

وهنا فيما اعتقد يصبح مجال الحديث رحبا لتوضيح الفرق الرئيسي بين نظرة دارون واشياعه الى ظهورالانواع الجديدة والنظرة الحديثة . ولست احتاج الى شرح نظرة دارون الى الموضوع . فدارون يرى ان ليس هنالك من حدود طبيعية بين الاحياء او الانواع ، وان الطبيعة لا تتوقف ولا تحدث مراحل وفجوات . ومعنى ذلك ان الفرق بين نوع ونوع ليس الا فرقا في الكمية ، وهو عادة فرق ضئيل. وحتى الظهور المفاجيء لبعض الانواع ليس الا ظهورا شكليا. انما هو مفاجيء لان حلقات التطور السابقة لم تظهر لنا كلها. ولا فرق عند اشياع دارون بين نوع ونوع في الكيفية، اي ان التغير الذي يطرأ على الاحياء يزيد حجم صفاتمعينة او ينقص حجم هذه الصفات ، لكن لا يخلق صفات جديدة .

وهذا يعني ايضا ان ظهور نوع جديد يحتاج الى مرور زمن طويل ، وان الفروق بين الانواع منعدمة او قليلة ، لان بعضها يتصل ببعض .

ومع ذلك فمن المشاهد فعلا ان هنالك فروقا بين الانواع . وتفسير دارون ومن سار على نهجه ان هذه الفروق ناتجة عن الفجوات التي يحدثها هلاك افراد من الاحياء نتيجة عملية التنازع على البقاء. ولو لم تهلك هذه الافراد لظل حبل الاحياء موصولا يربط بين نوع ونوع . ولكن هلاكها يحدث هذه الفجوات التي نراها بين نوع ونوع آخر . فدارون يرى ان الحدود بين الانواع المتعاقبة كانت نتيجة تساقط اشكال من الاحياء بصورة ميكانيكية .

اما بعض العلماء المحدثين الذين اشرت اليهم فيقولون ان نشوء الانواع ليس نتيجة عملية تطور مستمر ولكنه نتيجة نشوء صفة جديدة ضمن الصفات القديمة ، تغاير هذه الصفات او تختلف عنها . وهذه الصفة الجديدة تنازع الصفة او الصفات القديمة في كيفيتها ، وليس في كميتها فقط ، وتنشأ من ذلك صفة او مجموعة من الصفات لها كيانها الجديد الخاص . ان النوع هنا شيء ذو خواص معينة واضحة وحدود تفصله عن الانواع الاخرى . فالانواع تتشابه ، لكن بينها فروقا تفصل احدها عن الاخر فصلا واضحا لا ينفي العلاقة الموجودة بينها . هنالك اذن علاقة بين الانواع وفروق في آن معا . فالاستمرار الذي فرضه بعض العلماء بين الانواع غير موجود ويتضح من هذا ان الفروق بين الانواع لم تنشأ من تساقط افراد من الاحياء فصلت بتساقطها بين نوع ونوع ، وانما الانواع نفسها بينها فروق وحدود. ومن هنا تنتفي فروع الانواع الى Varieties والانواع الناشئة Incipient Species ، لا لانها اندثرت اثناء التنازع على البقاء ولكن لانها لم توجد اصلا . ولا تنكر هذه النظرة وجود فروع الانواع ، ولكن فروع النوع هذه لا تختلف عنه الا اختلافات بسيطة ، لا تخرجها عنه ولا تصنفها وحدها ، بل هي من النوع نفسه . وهي مفيدة في تدعيم مركز النوع عن طريق التلاقح وهي بعد انصياع العوامل الطبيعية ، لكنها من النوع واليه . اما العلاقة بين الانواع المختلفة التي تنتمي الى جنس واحد فهي علاقة تنازع لا علاقة تعاون ، وهذا في ذاته يميز بين الافراد اذا انتمت الى نوع ، او جزء نوع ، وبينها اذا انتمت الى جنس او فصيلة . انها اذا انتمت الى نوع كان بينهما تعاون او تكامل ، واذا انتمت الى جنس كان بينها تنازع .

واذا صحت هذه النظرة امكننا ان نسوق هذه التغيرات في بعض الانواع لصالح البشر . وبذلك يبزغ في هذه الناحية من العلوم فجر نهضة جديدة تؤلف مع النواحي الاخرى في بقية العلوم جبهة التقدم العلمي الحديث .

عدد الانواع

على وجه الارض اليوم ما يقرب من مليون ونصف مليون نوع . وهذه تنتج كلها من نحو ٢٠ طائفة . والطائفة كما تذكرون هي اكبر الاقسام التي تقسم اليها الكائنات الحية . وفي الاحياء الاولية Protozoa الان ما يقرب من ٢٠ الف نوع . وفي الاحياء الهلامية Mallusca ما يقرب من ٨٠ الف نوع . وفي الحيوانات المفصليه Arthropoda ما يقرب من ٨٠ الف نوع كذلك . ويرتد تاريخ هذه الانواع الى نحو ٥٠٠ مليون سنة مضت . ويلاحظ مع تقدم الحياة وتطورها ان عدد الانواع يزيد واشكالها تختلف . فالعدد اليوم اكبر منه عند نشوء الحياة على وجه الارض . وربما

كان هذا طبيعيا ، لكن هذا العدد في الاعم الاغلب هو اليوم اكبر منه في اية من فترات تطور الحياة .

سرعة نشوء الانواع

ما هو الزمن اللازم لانتاج نوع جديد من الاحياء ؟ سؤال طريف لكن ليس من جواب حاسم عليه .

هنالك ادلة يمكن الاعتماد عليها تدل على ان انتاج نوع جديد على اكتاف نوع سابق من القمح يمكن ان يقع خلال ثلاث سنوات او اربع . ويبدو ان الامر صحيح في بعض الاعشاب . وهنالك ادلة غير قاطعة تشير الى ان بعض انواع البزاق الجديدة يمكن ان تنتج خلال ١٤ عاما . والملاحظ في هذه الحالات ان النوع الجديد ينتج تحت تاثيرات جديدة من المناخ او الغذاء . ولوحظ أن بعض انواع الفيران الجديدة نتجت خلال ٨٥ سنة وبعضها خلال ٥٠٠ سنة .

ويتضح من هذا انه ما لم تكن المدة التي ينشأ فيها نوع جديد على انقاض نوع قديم قصيرة ، فان من الصعب موالاة الدراسة لتبين الوقت الذي يولد فيه نوع جديد .

وطريقة ملاحظة هذه المواليد النوعية هي دراسة الاحياء الموجودة في بقعة من الارض ثم الرجوع اليها بعد زمن ودراسة هذه الاحياء مرة ثانية . فما كان منها جديدا كان نتيجة الخلق في هذه الفترة التي مرت بين الدراستين .

ويرى مورو Moreau ان اعراق الطيور التي تعيش في دلتا النيل تحتاج الى ما لا يقل عن ٥٠٠٠ عام حتى تنتج انواعا جديدة . ويقول ماير Mayr ان هنالك ادلة قوية تشير الى أن بعض الانواع الجديدة من الطيور الاسكندنافية قد نتجت خلال ١٠ ــ ١٥ الف سنة .

واذا احتاجت اكثر الانواع في الاحياء النباتية والحيوانية والاحياء المكروسكوبية الى مثل هذا الزمن الطويل الذي يقدره معظم العلماء ، فاننا يجب ان نواجه السؤال الذي ساله جولدشمث Gold Schmidt وهو ان العصور الجيولوجية التي نعرفها لا يكفي مداها ، ولو طال ، لانتاج جميع الانواع الكثيرة المتنوعة التي نعرفها على سطح الارض ، مع العلم بان نشوء الانواع المائية يحتاج الى زمن اطول من الزمن الذي يحتاج اليه نشوء الانواع البرية .

وتدل بعض الشواهد على ان التغيرات الجيولوجية تعقبها تغيرات في الانواع ، وان الجزر الصغيرة ، وخاصة ما يقع منها في المناطق الحارة ، او رؤوس الجبال تؤثر تاثيرا خاصا في الانواع فتحفزها الى انتاج انواع جديدة في سرعة اكبر من السرعة المنتظرة لو لم يتعرض النوع لهذه الاحوال الطبيعية والجوية .

انقراض الانواع :

لو ان عملية نشوء الانواع الجديدة في النبات والحيوان لم تكن مقترنة بانقراض انواع اخرى لغص وجه الارض قبل بعيد باعداد كبيرة منها لا قبل للارض باحتمالها . ولكن عملية الانقراض تمشي جنبا الى جنب مع عملية النشوء ، وان كان هذا التماشي لا يعني التساوي ، اذ الذي نعلمه الى اليوم ان الانواع تزداد عددا وتكثر تنوعا . لكن عملية انقراض الانواع جارية باستمرار .

فمن الملحوظ في تاريخ المتحجرات اننا كلما عدنا القهقرى في دراسة الانواع في تاريخ الارض لاحظنا ان عدد الانواع يقل شيئا فشيئا . وهذا مصداق ما ذكرناه من قبل من ازدياد عدد الانواع كلما اقتربنا من تاريخ الارض الحديث . وقد لاحظ هاوارد وميللر في دراستهما سنة ١٩٣٩ ان ما بين ٣٣ و٤٩٪ من نماذج الانواع التي عاشت في العصر الآتي Avian من ال Pleistocene كان من الانواع المنقرضة .

واول عمليات الانقراض ما ذكرنا من قبل من ان الانواع الناشئة Incipient ينقرض بعضها قبل نشوئها واستكمال بروزها ويستطيع بعضها الاخر ان يقاوم العوامل الطبيعية ويثبت نفسه كنوع جديد .

ومع ان عملية الانقراض مهمة اذ انها في الحقيقة عكس عملية النشوء ، فاننا لا نجد عنها من الابحاث والدراسات ما نجده عن النشوء . والعامل الذي يتفق علماء الحياة على اهميته في الانقراض هو العزلة في الجزر الصغيرة . ان هذه العزلة تعرض النوع الى تاثيرات من المناخ والحياة ما يحمله على الانكماش والانقراض . ففي سنة ١٩١٨ مثلا ارتطمت الباخرة موكا مبو بساحل جزيرة صغيرة بجوار استراليا ، فانتقل منها الى الجزيرة عدد من الجرذان التي توالدت حتى اثرت تاثيرا مباشرا في حياة الطيور هناك ، فانقرض منها سبعة انواع من اصل اربعة عشر نوعا .

وقد يكون هذا المثل شاذا ، لكن عوامل الطقس المتقلبة في جزيرة نائية صغيرة هي في ذاتها عامل مؤثر في حياة الانواع التي تكون في هذه الجزر فتقضي عليها .

عمان — **محمد اديب العامري**

جزر هاواي

°°°

هناك على الشاطىء الازرق اساطير .. في موجه المشرق
اساطير من وثبات الخيال ومن نضرة الحلم المورق
تلوب بـه قبلات الصبـاح لتنعس في رمله الاشقـر
لتشرب من نبعه الزئبقي على هممهات الهدير الطرى
وفي هداة المغرب المستحم باضوائه .. كعذارى التلال
ستنسج اطيـاره الوادعات اناغيم من غسقيّ الظلال
واشجاره المثقلات الغصون سترمى على الرمل اثمارها
فنجمعهـا في السلال الدقـاق ربيعا يـلون اغوارهـا
وكم زهرة في حواشي الغدير ستهمس في نومها بالاريج
سحائب في ظلهن الشفيف تحوم طيوف النهار البهيج
هناك .. على ضفة من شعاع ومن زنبق الحلم المشمس
سنرمى باحزاننا في المياه ونعدو مع الارج الاقدس
هناك ... على شرفات النجوم وفي ليله الضامر الساهم
سنروى اقاصيصنا الساذجات ونغفو على مرجه الحالم
ومن نبعه الاخضر المستفيق على صدحة حلوة النبرة
سنسقـي سنابلنا الظامئـات لتهتـز في موسم الغلة
وفي ليله القمر العبهري عـلى رفة الانجـم السابحة
ستجمعنا رقصـات اللهيب وتجـذبنا الاعين الطامحه
الى حلقة سوَّرتها النهود ورنَّت بها نقرات الدفوف
عذارى الجزيرة فيها لحون تـأود في لمعان السيوف
اساطير من هجسات الظلام .. ومن لهفة اللهب الظاميه
ترددهـا في ظـلال النخيل وتنسجهـا القدم العاريه
عذارى الجزيرة حلم شفيف يرف كموجتهـا الهائمه
من الالق الاسمر الشاعري ومن حنئة الاعين الحالمـة
يغنـين لليل .. للآلهات .. عرائس غاباتهـا العابـده
لتمنحهن الحبيب الجميل .. وكوخا على ربـوة مفرده
ويرقصن فوق ظـلال اللهيب وفي العنق الزنبق الواهن
يرددن من همسات المحيط .. ترانيم يغزلها الكاهن
وفي رقصهـن يثور المسـاء وفي شعرهن ينام القمر
وفي رعشات النهود احتراق سيلقى به للصباح النهر
فيحمله في جناح الضياء وينثره في ظلال الصخور
ليضحك في غمغمات المياه .. ليلمع في وجنات الزهور
وحين يطل الضياء المشيق على هداة الكوخ والجدول
ستذهب للدير فوق التلال عذارى الجزيرة في المخمل
كواشف عن زنبقات حرار تالقن في جيدهن النصوع
يضعن القرابين بين الشموع .. ويسجدن في سبحات الخشوع
وفي هداة الوثن المستريح على مرمر غارق في الورود
ترف الاغاريد بين البخور وتلقى شذى ذهبي الشرود
وفي فجوات الخليج الضحوك .. هناك .. على موجه الشاعر
حنين المجاذيف .. دفء الرحيل .. على زورق في الدجى ماخر
يسير على ذبذبات الشراع .. على صفحة الازرق الدامسة
الى غاية في ضمير الغيوب .. كأدمع مهجورة يائسة
وفي غفوة الشاطىء اللؤلؤي .. وتحت تخيلاته الراجفات
فتاة يشق الدجى حبها ليرعى حبيبا يصيـد الحياة

القـاهرة

كمـال نشـات
من رابطـة النهـر الخالـد

توماس مان والسياسة

بقلم محمود السمره

✳



في الثاني عشر من اب الماضي صمت صوت انساني قوي قضى حياته مهتما بالمشاكل البشرية ، وباحثا عن معان انسانية ، هذا الصوت هو صوت توماس مان الذي وجد صدى في نفوس المستنيرين المؤمنين بمسؤولية الكلمة المكتوبة وبانها صورة لكاتبها . ان ادب مان غزير عميق يبعث في نفس قارئه تأملات وتساؤلات كثيرة ، ويثير في نفس من يود الكتابة عنه كثيرا من الموضوعات التي يحب ان يتناولها . والناحية التي سأتناولها هنا هي عرض لآراء مان السياسية عرضا زمنيا ، يبين التيارات التي كانت تدفعه الى هذه الناحية او تلك . وادب توماس مان يمكن ان نتخذه نموذجا للصدق الفني ، وللالتزام الذي نعني به ان يعيش الكاتب في جو التجربة التي يصورها ، وان يكون صادقا في التعبير عن نفسه .

ان اول تجربة مر بها مان كانت عند اندلاع نار الحرب العالمية الاولى ، فقد كان يعتقد ان المانيا قد اجبرت على الحرب ، وقد دافع عن موقف بلاده دفاعا حارا ، مما عرضه لانتقاد الكاتب الفرنسي رومان رولان . ويظهر ان الروح العسكرية والحربية التي سيطرت على المانيا هي التي جذبته واستهوته ، ورغم سلسلة مقالات جمعت اخيرا ونشرت بعنوان « تأملات رجل غير سياسي » ، فاطلق على نفسه هذا الاسم واعلن في هذه المقالات ان السياسة عدوة للثقافة . ولم يكن مان مبتدعا لهذا الاتجاه الفكري ، فاخوه هنري ـ وهو اديب وكاتب قصصي ـ يقول في احدى قصصه على لسان احد ابطاله مبررا اهتمامه بالسياسة « لقد حان الوقت الذي يتحتم علينا ان نهتم بالسياسة ، مع يقيني بانها بربرية ، ولكن اعداءنا حملونا على هذا . »

واذا عدنا الى الوراء رأينا في جيته ، الكاتب العظيم ، صورة لرجل الفكر الكاره للسياسة ، فخلال عامي ١٨١٢ و١٨١٣ اتحدت الولايات الالمانية للمرة الاولى ، وكلل اتحادها بدحر نابليون في ليبزيج . وفي تلك الايام المثيرة ، وعندما كانت الوطنية الوليدة تدفع المانيا الى جليل الاعمال ، بقي جيته صامتا لا يعمل شيئا ، مما جر عليه احتقار كثير من المعجبين به . وفي احاديث الكاتب الشيخ مع اكرمان نجد اكرمان يقول له : « انهم يلومونك لانك لم تحمل السلاح في تلك الفترة العظيمة ، ولانك على الاقل ، لم تساهم بشعرك في تجميل ما عملوه . » فيرد الاديب الذي انهكه عبء السنين : « اتراني سأكتب الاناشيد الحربية ؟ أهذا هو واجبي ؟ ... ان الشاعر الانجليزي توموسن كتب قصيدة رائعة عن فصول السنة ، ولكنه كتب قصيدة رديئة عن الحرية ، وهذا لا يعني انعدام الموهبة في الشاعر ، بل انعدام الباعث في الموضوع ـ واذا كان للشاعر ان يشارك في الشؤون السياسية ، فعليه ان يهب نفسه لحزب من الاحزاب وبهذا يفقد اصالته ، ولكي اسر هؤلاء الناقمين ، كان علي ان انضم لحزب ، وابشر بالمجازر والدم المراق ... ماذا يعني هؤلاء بحب الوطن ؟ وما الوسيلة لخدمته في رأيهم ؟ واذا كان الشاعر قد كرس حياته وفنه للقضاء على التعصب الفاسد ، والافكار العنيفة ، منيرا العقول ، ومهذبا الاذواق ، وغارسا للتسامي العاطفي والفكري في المواطنين ، فأي عمل افضل من هذا ؟ واي خدمة في سبيل الوطن اجل من هذه ؟ » وقد كان مان من المعجبين جدا بجيته ، وادبه ، وموقفه من السياسة .

ونرى في شوبنهور الفيلسوف مثالا آخر ولكن بصورة اخرى ذات وجه آخر : فخلال ثورة ١٨٤٨ كان الجنود يعسكرون في بيته ، ويطلقون النار على الثائرين من نافذته ، حتى ان الفيلسوف قدم منظاره للضابط ليرى بوضوح فيحسن التصويب . وهذا يذكرنا بكروجر في قصة مان « بدنبروكس » حين يعلق على الثائرين قائلا : « لا بد من تعليم هؤلاء الغوغاء الادب والاحترام ، ولو بقليل من النار . ويرى مان في موقف شوبنهور تحديا ، وسخرية ، وانكارا ، لا للحرية والثورة فقط ، بل للسياسة نفسها ايضا . »

ولكنا نجد في فانجر ما يشذ عن هذه السيرة : فهذا فنان عظيم ، وسياسي متحمس . ولكن يظهر ان مان لم يفكر طويلا في موقف فاجنر في بادىء الامر ، اذ نراه يقول في « التأملات » ان شباب فاجنر المتحمس هو الذي دفعه الى الثورة متمثلا غاياتها لا كرجل سياسي ، بل كرجل من رجال الفكر : « لقد وجد فاجنر في الثورة الالمانية جزءا من ذاته ، فقد كان شابا عاطفيا مندفعا ، واثقا من ان الثورة ستضع حدا للسياسة ، ليبدأ بعدها عصر جديد هو الانسانية . » ولكن مان بعد تسع عشرة سنة من كتابة هذه الكلمات ، اخذ يميل الى تبرير ، بل وتأييد اشتراك فاجنر في السياسة ، وهجر عقيدته القديمة القائلة بضرورة ابتعاد رجل الفكر عن السياسة ـ وفي مقال له عن فاجنر نشره عام ١٩٢٣ يقول : « ان مثل هذه الروح المتوثبة الحية كان لا بد لها ان تدرك المشكلة التي تجابهها الانسانية ، وان رجل الفكر الذي يحاول الابتعاد عن السياسة يكون خادعا نفسه. » ورغم هذا فانا نجد مان مترددا في التأكيد على ضرورة مساهمة الفنان في الشؤون السياسية اذ نراه يعود الى

فاجنر فيقول ان الدافع الذي دفعه الى الاشتراك في الثورة كان دافعا فنيا لا سياسيا ، ففنه نفسه كان ثورة على ما قبله ، ولهذا اندفع في تيار الثورة عل الجيل الصاعد يرى في فنه جديدا يعجبه . او كما قال ارنست نيومان : « لقد ساهم فاجنر في الثورة لا من اجل السياسة ، بل من اجل الفن » .

ونجد تعديلا لهذه النظرة في «الجبل السحري» الذي طبع سنة ١٩٢٤ : فهانزكستورب رجل لا يمت الى السياسة بصلة ، منفصل تمام الانفصال روحيا وجسديا عن احداث العالم . اما ستمبريني ، احدى شخصيات « الجبل السحري » فلا يوافق على هذه العزلة ، لانه هو نفسه من رجال السياسة وشعاره « لا يستطيع اي محب للانسانية ان يميز بين ما هو سياسي وما هو غير سياسي ، لان كل ما في حياتنا سياسي . » هل حقا كل ما في حياتنا سياسي ؟ لا شك ان هانزكستورب لا يوافقه على هذا ، فهو يؤمن بان الفرق بين السياسي وغير السياسي كالفرق بين ما لقيصر وما لله .

ان « الجبل السحري » رد فعل للتاملات : فيه كستورب الحالم المحب للموسيقى ، وفيه ستمبريني السياسي الانساني النزعة ممثل الديمقراطية . ومع ان هانز كستورب يرفض الايمان بديمقراطية معلمه الانسانية ، الا اننا نلاحظ ان لمعلمه هذا اثرا بالغا في نفسه : فقد استحال من انسان صامت خجول الى اخر يحسن التحدث والافصاح عما في نفسه ، بل ويصبح قادرا على المجادلة والاقناع ، ومعنى هذا ان مان يريدنا ان نفهم ان على المانيا ان تدرك ما يجب عليها ان تفعل ، فلا تقف موقف الحياد من المشاكل الانسانية ، بل عليها ان تقف موقف الاخذ والعطاء ، « واذا كانت المانيا قد سقطت ذليلة تحت اقدام دول الديمقراطيات الغربية ، فذلك للهوة القائمة بين رجال الفكر فيها ورجال الحكم ، واذا استمرت هذه الهوة قائمة فان مصيبة اخرى ، ولا شك ، تنتظرها . »

واثناء انصراف مان لتاليف « الجبل السحري » كتب مقالا بعنوان « جيته وتولستوي » ، وفي هذا المقال يصرح بان الفترة البرجوازية قد انتهت ، وعلى المانيا ان تضيف الى عجينتها خميرة جديدة ، تلك هي الاشتراكية ، وبهذا تستطيع المانيا ان تحقق كيانها ، وتعيش كما يفرض عليها موقعها الجغرافي ، وسيطا بين آسيا ممثلة في روسيا ، وبين اوروبا . وفي هذا المقال الذي كتبه سنة ١٩٢٢ يقول مان : « نحن شعب علينا ان نستفيد من موقع بلادنا فنكون وسطا بين الشرق والغرب . »

ومنذ سنة ١٩٢٢ اعلن توماس مان كراهيته للفاشية ، فقد راى في هذه الوطنية الاشتراكية انتكاسا ، وان لبست لبوس الثورة ، اذ ليس فيها من عناصر الثورة شيء ، فهي في ذاتها محاولة لجر الانسانية الى الوراء . وفي نفس العام هاجم الفاشية الايطالية قائلا : « ان كل خدع واكاذيب الفاشية الايطالية لا يمكن ان تحجب عن اعيننا عداءها للانسان . »

وفي عام ١٩٢٩ نال مان جائزة نوبل للاداب ، ونشر « ماريو والساحر » ، وهي رمز للفاشية الايطالية ، وثورة ضد عنصرية هتلر . والقصة في ظاهرها ليست الا سردا لحادثة وقعت اثناء اجازة قضاها راوي القصة في ايطاليا مع عائلته . اما مفتاح الرمز فيكمن في تعليق الراوي على تبجح بعض من قابلوا من الايطاليين وتمجيدهم لفاشيتهم « ان هؤلاء الناس يمرون الآن بمرحلة تاريخية هي اشبه بالمرض ، ولعله مرض يصعب تجنبه . » وفي احدى الامسيات كان الراوي وعائلته يشاهدون عرضا يقوم به ساحر احدب مريض كريه المنظر اسمه كيبولا . وقد عرض على النظارة ما ادهشهم من الاعيب ، وكان يستعين على الاحتفاظ بارادته وقوته المغناطيسية بشرب جرعات من الكونياك بين وقت واخر . وكان يختار ، لا على التعيين ، خيرة الشباب فيقفون عاجزين امام مغناطيسية هذا المسخ المشوه . ويصل الذروة عندما يختار الشاب ماريو ، ويوهمه بانه ، وهو المسخ ، حبيبته ، ويغريه بتقبيل فمه الكريه . ولكن انتصار كيبولا كان قصيرا ، اذ عندما صحا ماريو وعرف ما حل به من مهانة تناول مسدسه واردى به الساحر .

والآن ، ما هو الرمز في هذه القصة ؟ ان كيبولا برذائله رمز الفاشية ، وقوته المغناطيسية رمز القوة الفاشية السحرية وسيطرتها على الجماهير ، اما موت الساحر فرمز الى رغبة الكاتب في ان تزول هذه الفاشية « وهي نهاية يقضي فيها على الذعر والهلع ، وهي على قسوتها ، الا ان فيها التحرر . »

وفي عام ١٩٣٣ كان يحاضر في سويسرا عندما تسلم هتلر السلطة ، فخابره اطفاله هاتفيا قائلين له : « ان الطقس في الوطن رديء . » فلم يعد لالمانيا ، واقام في سويسرا . وبقي صامتا فترة من الزمن ، رغم حث اصدقائه في المنفى له ان يعلن للعالم حقيقة ما هو قائم في المانيا . وفي عام ١٩٣٥ قطع المحيط ثانية ليتسلم شهادة شرف من جامعة هارفرد ، وحتى هذا الحين لم يهاجم الوضع القائم في المانيا في جمع من الناس . وفي عام ١٩٣٦ سحبت منه جنسيته الالمانية ، وسحبت منه جامعة بون شهادة الدكتورا الفخرية التي منحته اياها ، فرد على مدير الجامعة برسالة خالدة في الادب . وفي عام ١٩٣٧ اصبح رئيس تحرير مجلة سويسرية تصدر باللغة الالمانية ، وبدا على صفحات هذه المجلة يهاجم النظام النازي ويظهر مساوءه للعالم ، وفي عام ١٩٣٨ عاد للولايات المتحدة عازما على الاقامة الدائمة فيها .

وحل عام ١٩٣٩ ، وبعد عشرين سنة من سلم قلق ، نشبت الحرب ثانية ، تنشر الظلام فوق العالم وصمت صوت العقل ، وانطلقت قوى الطيش تنشر الدمار . هل هذا هو الوقت الملائم للمثالية الجمالية ؟ وهل بامكان الفنان ان يتجاهل المشاكل التي على حلها يتوقف مستقبل الجنس البشري ؟ هذا سؤال وجد فيه توماس مان ما يجبره على ان يحدد موقفه بدقة اكثر . واذا عدنا ثلاث سنوات الى الوراء ، راينا ان مان قد اوضح رايه في العهد الجديد في رسالته التي ارسلها لعميد جامعة بون : « ان هدف الاشتراكية الاوحد ، ولا هدف لها غيره ، هو ان تهيء الشعب الالماني للحرب القادمة متوسلة الى هذا بفرض عزلة روحية قاسية على الشعب ، وبالكبت واستئصال كل جذور المعارضة . وهكذا يستحيل الشعب الى ادوات طيعة

يسيرها الجهل الاعمى ، والتعصب البغيض . ان هذا النظام جريمة تقترف في حق الانسانية . » وفي الرسالة دفاع حار عن الديمقراطية . وما هي هذه الديمقراطية التي يؤمن بها مان ؟ لقد عرف مفهومه لها فقال : الديمقراطية هي العمل السياسي للفكر الانساني . وهي عنده تعتمد على اربعة اسس لا تستطيع الانسانية الاستغناء عنها اذا كانت تريد ان تنقذ نفسها وهي ، الصدق ، والحرية ، والعدالة ، والمحافظة على كرامة الانسان مهما كان جنسه . ويذهب مان الى القول بان من ينكر ضرورة العمل السياسي ينكر ضرورة الاخلاق «وليست السياسة نفسها الا اخلاقا عقلية .»

وقد كتب سنة ١٩٣٨ قائلا : « على ان اعترف نادما بانني شاركت في شبابي في العقيدة الالمانية الخطرة القائلة بانفصال الفن عن السياسة . كنا كلنا نعتقد في تلك الايام أن المشاكل السياسية والاجتماعية ليست بذات اهمية ، ولذا تنازلنا عنها راضين للساسة ، ولكنا كنا من الحمق على جانب عظيم عندما اعتقدنا ان بامكان اولئك الساسة ان يحققوا الخير لمجتمعنا . « وبامكان الانسان ان يتصور النتيجة السيئة التي آلت اليها المانيا . » بسبب احتقار المفكرين للسياسة ، وذلك عندما يفكر في الانسان الذي آلت اليه السلطة . والذي وضع بين يديه حق تقرير مستقبل المانيا ، ومشاكل القومية . وهكذا تهاوت تحت اقدام مشية الاوزة الالمانية ، والا نكى من هذا انها كانت ترى في ترديها ومهانتها مجد المانيا الجديدة ، حتى اصبح وطن باخ ولسنج وجيته وبيتهوفن عدو الجنس البشري في نظر العالم . »

هل لمان كلمة اخيرة يحدد بها تمام التحديد موقف الفنان من السياسة ؟ قال في احدى خطبه : « انا لا أؤمن بتلك النظرية التي لا ترى في الفن الا متعة نزجي به وقت فراغنا . » وصرح فيما بعد بان الفنان الذي يتنكب عن المساهمة في حل مشكلة الانسانية عندما تعرض في المجالات السياسية ، انسان قد فقد ذاته واوضاع روحه . « واذا كانت الانسانية ترغب رغبة اكيدة في الاحتفاظ بحريتها وكرامتها فان عليها الا تقف موقفا محايدا من المشاكل الاجتماعية والسياسية ، والفنان هو اكثر البشر انسانية ، ولهذا فان من واجبه ان يرفع صوته عاليا مدافعا عنها ، هابا لنصرتها ، عندما تهددها قوى الجهل والبطش والبربرية . » ان التقدير الذي يناله الفنان ليس اعجابا بجمالية فنه فقط ، بل انه ايضا ثقة بانسانيته ، ولهذا فان عليه ان يستخدم هذه الثقة لتحقيق انسانيته .

وهكذا انتقل مان من رجل لا يعير السياسية اهتماما الى متحمس لها ، ولكنه انتقال لم يأت طفرة واحدة ، بل جاء على مراحل من التجربة والخطأ والتأمل والاستبطان والنقد ، وهذه المراحل انتهت به الى الايمان بان الفنان لا يمكن ان يتخلى عن المساهمة في حل المشاكل الإنسانية ، والمشاكل السياسية جزء كبير منها في ايامنا هذه « ذلك لان موضوع الفنان هو الانسان ، ففنه انساني بكل معاني الكلمة ، ومن المستحيل ان نعفيه من المسؤولية الانسانية .»

نرى مما سبق ان نظرة مان الى علاقة الفنان بالسياسة قد مرت بثلاث مراحل : اولاها الفترة التي كتبت فيها « التأملات » وفيها يؤمن بالانفصال التام بين الفنان والسياسة ، لان مهمة الفنان الخلق والابداع . وثانيها مرحلة الانتقال التي بدات بكتابة « الجبل السحري » ومقاله عن « جيته وتولستوي » ، وفي هذه المرحلة بدأ يشك في صواب عزلة الفكر الالماني عن السياسة . وثالثهما المرحلة التي تلت فترة الصمت التي رافقت نفيه الاختياري ، فقد اعلن بعد صمته هذا انه لا يجوز للمفكر ان يكون بمعزل عن احداث العالم .

وانتهت الحرب العالمية الثانية ، وتبدت لعيني الرجل العظيم حقائق كانت غائبة عنهما ، فبدأ يحس بالقلق يعصف بنفسه ، اذ راى كرامة الانسان وحريته تمتهنان على ايدي من ظن انهم حفظتهما ، فترك العالم الجديد الى سويسرا ، واقام بالقرب من زوريخ . وفي مارس الماضي زار ليوبيك مسقط راسه ، وهناك باحتفال مهيب منحه أهلها لقب المواطن الشريف . وفي مايو الماضي زار المانيا الشرقية ووقف وقفة الاجلال والتعظيم امام ضريح الشاعر الالماني شيللر .

وفي الثاني عشر من اغسطس الماضي رقد مان الانسان العظيم رقدته الاخيرة ، بعد ان ترك اعمق الآثار وابلغها في نفوس الواعين القلقين على مصير هذا الانسان .

الكويت **محمود السمره**

الدعوة الى السفر

للشاعر الفرنسي شارل بودلير

●

انهـا بلاد فخمة ، بلاد « قوقانيا » كما يقولون .. التي احلم بزيارتها مع صديقة قديمة . بلاد فريدة في نوعهـا ، غريقة في ضباب شمالنا ... نستطيع ان نطلق عليها : شرق الغرب ، او صين اوروبا .. ما دامت منجمـا للتصورات الدفيئة الاثيرية ، وما دامت ممرعا خصبا بنباتاتها الرخوة الصبورة الحكيمة !..

بلاد قوقانيا الحقيقية ، حيث كل شيء جميل ، ثري ، هادىء ، موثوق فيه : حيث ينعكس نعيم المسرة على النظام، حيث تستروح الحياة المكتنزة العذبة ، حيث انعدام الفوضى، والنزق ، والفجاءة ، حيث تتزاوج السعادة مع السكون ، حيث المطهى في حد ذاته شاعري ، زاخر ، ومهيج فـي نفس الوقت !.. حيث كل شيء يشابهك يا ملاكي العزيز !.

اتعرفين هذا السقم المحموم الذي يستولي علينا في صقيع بؤسنا ؟.. هذا الحنين ، حنين المغتربين الـذي نجهله ؟.. هذا الاختناق الفضولي ؟.. ان هناك اقليمـا يشبهك ، حيث كل شيء جميل ، ثري ، هادىء ، وموثوق فيه ، حيث يبني الوهـم ويزخرف « صينا » غربية !.. حيث الحياة حلوة التنفس ، حيث تتزوج السعادة بالسكون!

هناك يجب ان نذهب لنعيش ! هناك يجب ان نذهب لنموت ! اجل هناك يجب ان نذهب لنتنفس ، ونحلـم ، ونمدد من الساعات بلانهائية الاحاسيس !..

كتب موسيقار مرة : « الدعوة الى الفالس ! » ، فمن الذي يؤلف : « الدعوة الى السفر ! » ؟ .. الدعوة التي نستطيع هبتها للمراة المحبوبة ، للاخت المنتقاة ؟!..

نعم ! ففي هذا الطقس المنعش تحلو الحياة !..

هناك حيث الساعات المتمهلة تحوي اكثـر افكارا ، حيث ساعات الجدران تدق السعادة ، اكثر عمقا ، واعمق معنى في ابهتها !..

على النقوش ، وعلى الجلود المدبوغة اللامعة في ثرائها الاقتم ، تعيش متكتمة لوحات فاغرة ، هادئة وعميقةكارواح الفنانين الذين ابدعوها !..

الشموس الغاربة ، التي تثري بالوانها غرفة المائـدة ، او حجرة الاستقبال ، مشفغة بالستائر الوردية ، او بهـذه النوافذ المبتكرة التي يقسمها الرصاص الى دواوين متعددة !

اثاث المنزل ، رحيب ، غريب ، عجيب ، تسلحـه الاقفال والاسرار ، كنفوس مرهفة !..

المرايا ، والمعادن ، والاقمشة ، والمصاغ ، والصيني ، تعزف امام المقل سمفونية خرساء خفية !.. ومن كل شيء، من كل الزوايا ، من كل الشقوق ، من كل الادراج ، وطيات القماش ، ينبعث نفح غريب ، شيء اسمه : « تعالي هنا ! » من سومترا ! .. وكانه روح « الشقة » المتسلل !..

بلاد قوقانيا الحقيقية ـ قلت لك ! ـ .. حيث كـل شيء ثري ، نظيف ، لماع ، كضمير طهور ، كبطارية مطهـى جميلة ، كمحل صياغة فخم ، كمتجر حلى مبرقش !..

كنوز العالم تصب هناك ، كما في دار رجـل مثابر ، جوزي على مسعاه من كل انحاء العالم !.. بلاد فريـدة ، متفوقة على كل ما عداهـا ، كالفن بالنسبة للطبيعـة .. الطبيعة التي يعيد تكوينها الحلم ، ويصححها ، ويجملها ، وكانه يخلقها من جديد !..

ليبحثوا ، وليبحثوا ايضا !.. وليوسعوا بلا امد من حدود سعادتهم ، هؤلاء الباحثون عن حجر الفلاسفة مـن مهندسي فلاحة البساتين !.. وليعلنوا عن جوائز نقدية تبلغ الستين او المائة الف ، لمن يعثر على حل مشكلتهـم الوهمية !.. اما انا فقد عثرت على كنزي ، : « شقائقـي السوداء ! » و « بهاري الازرق ! » ..

رياحين لا تضارع ، « شقائقي » الضائعة وقد وجدتها و « بهاري » المتمثل !.. هنا ! اليس كذلك ؟!..

في هذا البلد الجميل ، الحالم ، الهادىء ، حيث يجب ان نذهب لنعيش ونزهر ؟.. سوف لا يمكنك الانطواء فـي اوهامك، ولا تستطيعين الاندماج في مراسلاتك، لتخاطبيني كالمتصوفة من وراء الظلال ؟!..

اليس كذلك ؟..

احلام ! الاحلام دائما !.. وبقدر ما تكون الاحلام مرنة تواقة ، بقدر ما تبتعد عن الممكن !..

كل انسان يحمل في احنائه جرعة افيونه الطبيعية!. يحددها ، ويحرسها ، ومن بزوغ الحياة حتى غروب الموت ، كم هو عداد الساعات المشحونة بالمسرات الايجابية ، والفعال المستبسلة الناجحة ؟!..

اترى يكتب لنا ان نعيش ، وان نجوب داخل هـذا الاطار الذي يشبهك ؟!..

هذه الكنوز ، هذه التحف ، هذا الرفاه ، هذا الانتظام ، هذه العطور ، هذه الزهور المدهشة انها انت !..

حتى هذه الانهار الكبيرة ، وهذه القنوات الساجية ، انها انت كذلك !.. هذه السفن العظيمة ، التي تتحركمثقلة بالكنوز ، حيث تتصاعد اناشيد المناورات على وتيرة واحدة، انها افكاري التي تنام او تهوم فوق نهديك !.. انك تقودينها برفق ـ افكاري ـ نحو البحر الذي هو اللانهاية ، وانـت مستغرقة في سبر اعماق السماء من خلال صفاء روحك ، وعندما تعود متعبة من اضطراب البحر ، ذبيحة من غلات الشرق ، لترسو على مرفأ الوطن ، فانها افكاري الفنية ايضا، وقد آبت من اللانهاية اليك !..

تونس ـ القيـروان — الطيب الشريـف

قبل الصدمة

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي
اخصائي نفساني

○

دق جرس التليفون ورفعت الساعة ، وتحدث اب يستنجد بالدكتور ليعود ابنه المتهيج الثائر . واسرع الدكتور ملبيا النداء فوجد شابا في الخامسة والعشرين من عمره واقفا وسط المنزل الفقير وهو يصرخ : « انا عايز آكل » ، ويبكي وكانه طفل في السابعة من عمره . وشكا الاب من الحالة التي اصبحت لا تطاق : « انا محتار يا دكتور ، وترددت كثيرا قبل ان استغيث بك لاني متأكد انك ستحكم على ابني بانه مجنون ، وانا متألم لهذا الموقف وحاولت طيلة هذه الاعوام التسعة ان اغمض عيني لكي لا ارى الحقيقة المرة ، هذه الحقيقة التي تفرض نفسها اليوم . انظر الى اثر عضة ابني لاصبعي ، انظر الى آثار الضرب واللكم ، وانا مع كل هذا خائف عليه وارجوك ان تكون رحيما في حكمك عليه وارجوك ان تكون عادلا في تقريرك لمصيره .

ودخل الدكتور الغرفة ووجد عجوزا في حالة مرض منكمشا على نفسه ، فهو الجد الذي يشاهد من بعيد هذه المأساة التي تعانيها اسرة ابنه ، ينظر نظرة غريبة وكأنه يقول : « هذه هي الحياة ، هذه هي النهاية . » حاول ان يبتسم ليرحب بالزائر الذي جاء لحفيده ، وكان يتمنى ان يجيئه دكتور ليخفف عنه عبء الحياة قبل نهايتها ، ابتسم ليقول ما يحار اللسان في قوله في اشهر .

وجاءت العائلة كلها لتقص قصة الشاب الثائر ، فاخرج الدكتور جميع اعضاء هذه الاسرة الثائرة على نفسها المحرومة من الهدوء الضروري للشعور بالالفة والعطف . وجاء الشاب وعلى ملامحه خوف مبهم ، وعلى كتفيه حمل جعلهما ينحنيان وكانهما يحملان ثقلا ، انه الصراع النفسي . سأله الدكتور عن الايام فتردد ، ثم سأله عن امس فاجاب كذلك ، وقدم له ساعة ليحدد الوقت فأجاب « التاسعة والنصف » وكانت الثانية عشرة ، فاحضر له ساعة اخرى فاجاب نفس الجواب فغير الدكتور العقارب وجعلها تشير الى الواحدة والربع فأجاب الشاب : « التاسعة والنصف » ، فسأله ان يتلو عليه بعض ما يحفظ ان كان يحفظ شيئا فاسمعه الفاتحة فطلب منه كتابتها فاتقن كتابتها بخط واضح ، فوضع له بعض العمليات الحسابية فعجز عن الرد .

وهكذا بدت حالة هذا الشاب معقدة فهو عموما يتقن في الاجابة عما هو صعب ويفشل في الاجابة عما هو سهل ، وتارة يبدو كطفل يبكي ويطلب الاكل وتارة اخرى يتحدث عن الجمال « الستات حلوين ، لكنهم صعبين ، انا عايز اتجوز لكن مش دلوقتي » وسأله الدكتور هل احب في حياته فقال: « لم تحضر وانتظرتها لغاية الساعة عشرة ونص » وخيل للدكتور ان المشكلة نفسية وان الشاب عرض لخيبة امل من جراء فشل عاطفي وانه اهين في حبه ، وحاول ان يركز على هذه النقطة ليصل الى السبب الاساسي للاضطراب . وبدأ الدكتور يبتسم في داخل نفسه لقربه من حل العقدة وبدأ يسبق الحوادث متصورا الشاب يعود الى حالته الطبيعية ليقضي على عذاب هذه الاسرة وخصوصا اطفالها الصغار الذين يتعذبون من مشاهدة هذه المواقف الغريبة من اخيهم الاكبر ومن ابيهم وهم محرومون من الراحة . ولم يرد الدكتور ان يتعب المريض واراد ان يسأل الاهل ليتزود بمعلومات علها تؤيد فرضه ليبني خطته في العلاج .

جاءت الام والاخوات والاب وسأل عما يعرفونه عن الحالة وركز سؤاله عن تاريخ بدء الاضطراب ، فاجابوا ان هذه الحالة بدأت مباشرة بعد صدمة تعرض لها الشاب وهو في سن السادسة عشرة بوقوعه على رأسه ، واجمع الاهل ان هذا الشاب كان سليما طبيعيا قبل هذه الصدمة وانه كان طالبا ناجحا وكان دائما يحب الفسحة ويقبل على الموسيقى ، وكان يحب مشاهدة الرواية العاطفية ، وفجأة بعد الصدمة بدأت اطواره تميل الى الشذوذ : فبدأ المرض اولا بالبكاء وهو عائد من فسحة وعندما كان يسأل عن السبب كان يقول : « اني صادفت شحاذا وقصدني ولكني لم البي طلبه لانه لم يكن معي مليم » فيعرض عليه الاهل النقود ليعود ويلبي الطلب فيأبى بحجة ان الشحاذ قد انصرف .

وكان يعود احيانا في حالة غضب وثورة شديدة لانه شاهد قطة تموت تحت عجلات عربة مثلا ويظل طول الوقت ساخطا .

وكان ايضا يركز ليقرأ ساعات طويلة دون ان يقرأ ، وعندما يخاطب لا يجيب .

لا يعتقد الاهل ان هنالك علاقة عاطفية ، وتؤكد الام انه مؤدب ومستقيم وانه لا يحب الا امه التي حافظت عليه محافظة شديدة لانه اول طفل يعيش لها بعد وفاة اربعة فكانت تخاف عليه خوفا شديدا وكانت دائما تحدثه باكية عن المتوفين من اخوته وتحذره دائما من الحوادث وتكرر له دائما ان يحافظ على نفسه وان يتأكد قبل الانتقال من رصيف الى رصيف من خلو الطريق من السيارات ، واحيانا كانت تفرض عليه الوقوف مدة طويلة قبل ان تسمح له بالمرور ، وعلقت في عنقه احجبة ، ولم تنس البخور ، وكانت احيانا توقظه من النوم لتسأله ان كان في حاجة الى ماء او طعام . فخنقه عطف امه وحرمه من النوم الطبيعي ، ووصل الى السادسة عشرة وهو يشعر بنفسه ابن السادسة.

قبس من بطولاتنا

طلائع المجد

بقلم محمد سليم رشدان
ماجستير في الآداب واللغات السامية

*

ها هو ذا الغبار (١) ينعقد في الافق الغربي ، حتى يحجب شعاع الشمس الغاربة ، وها هي الجموع قد بدات تتلاحق فتمتليء بها دروب الجبل وشعابه ، ويفيض بها الوادي الفسيح ، فاذا بالبطحاء العريضة هناك تلمع بالاسنة ، وتموج بالهدير والجلبة ، حتى كانها بحر لجي تلاطمت فيه امواج يلاحق بعضها بعضا .

ويح هذه الفئة القليلة المشرفة على الوادي من اعلى الهضبة ، انها قليلة العدد قليلة العدة ، لا مؤونة لديها ولا مدد وراءها ، وبينها وبين وطنها بون شاسع لا تجتازه الرسل بالامد القصير . بل بينها وبينه صحراء لاهبة محرقة ، كثيرا ما يضل فيها السالك وتنقطع اخباره ، ومن اجل ذلك سميت بالمفازة ، مبالغة في التفاؤل وامعانا في التمني .

واقبل الليل يسحب اذياله السود على الوادي والهضبة جميعا ، فتقبل معه الرهبة والفزع يشملان الوهاد والنجاد . وتقبل الفئة القليلة في اعلى الهضبة تعالج امرها بالحكمة والتروي ، ويستعرض قادتها بينهم وجوه الرأي . .

فمن قائل : « هلم نعود من حيث اتينا ، فلا حيلة لنا في رد هذه الجموع . . »

ومن قائل : « بل نرتد عنهم قليلا ونشاغلهم بالمناوشات ريثما يصلنا المدد الذي نرسل في طلبه . . . »

ومن قائل : « بل نقف في وجوههم صفا كانه البنيان المرصوص نقارعهم مقارعة المؤمن الصادق الايمان، الذي لا يولي دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة ، فأما النصر واما الشهادة ، وما خرجنا من ديارنا الا في طلب احدى هاتين ، فاذا شاء الله ان تكون الشهادة فمرحبا بها . متى جزع المؤمن من لقاء ربه وهو غاية الغايات عنده ؟ »

وكأنما اثار صاحب القول الاخير في نفوسهم حمية الايمان ، فاذا هم جميعا ينحازون اليه ويجمعون على انفاذه والعمل به . وينفرط عقدهم ليجنح كل الى مضجعه ينال فيه حظه من الرقاد ، بينما يخرج قائدهم يتفقد الحرس في جوانب المعسكر فلا يجد منهم غير اليقظة والتحفز .

ويمضي الى صخرة قريبة تطل على الوادي الفسيح ليجلس فوقها يرسل نظره في ظلمة الليل فيرى نيرانا تلمع من بعيد ، فيعلم انها نيران العدو ، ويذهله من كثرتها ان يبدو آخرها عند الافق النائي ، وينظر الى معسكر اصحابه نظرة المشفق الحادب ، وتنطلق من صدره آهة حرى ، وتنفرج شفتاه عن كلمات كان لسان حاله فيها يردد : « وارحمتاه للفرسان الامجاد في قلة عددهم وابتعادهم عن الوطن ويأسهم من الانصار والمدد ، امام عدو يفوقهم عددا وعدة . . »

ولعل الرجل كان يحاول جهده في مجلسه ذاك الا

(١) هذا المشهد فصل من كتاب يصدر قريبا عن (دار الحكمة) في بيروت بعنوان (بطولات من تاريخنا) .

بنفسه ابن السادسة .

فكان دائما يتردد قبل ان يعمل أي شيء ، يقدم ويحجم لا يستطيع البت في أي شيء وليس له راي بين اصحابه ينساق معهم حيث شاؤوا . وحاول يوما ان يخرج من سجنه وان يغادر الطفولة ويصير رجلا فخرج وحده للفسحة واتجه نحو القلعة فوقف على هضبة ليتأمل جمال المنظر واذا به يتذكر امه ويتذكر انه وحده فيضطرب ويرتعش ويحاول الهروب فيجري ولا يعرف أين يتجه فيغمض عينيه ويمشي قائلا : « ماما ماما » وتحدث الصدمة فيزداد الشعور بالخوف ويزداد تعلقه بامه ولكنه من حين الى آخر يشعر بسجنه العاطفي ويثور ، وأحيانا يلجأ الى الخيال ويشعر انه احب امراة غير امه وانه واعدها ليلقاها في الساعة التاسعة والنصف ليذهب معها الى السينما ولكنها لم تحضر وقد صارت الساعة العاشرة والنصف .

القاهرة — ابو مدين الشافعي

يفكر في مصيره ومصير اصحابه غدا ، فهو حريص على ان يكون في الموضع الذي ندبه اليه قائده الاعلى ، وولي نعمته الذي انشأه ربيبا في كنفه . لقد اراد ان يكون على رأس القوم يحمل الراية بين ايديهم ولم يفته ان يقدر مهلكه ، فاوصى بالقيادة لاخرين من بعده .. وهو لا يريد ان يستبق الحوادث فيتصور ما يترقبه من الساعات الرهيبة غدا ..

ولكنه كان ابا . أفلست تقدر ان تفلت منه خيالاته القلقة الحائرة الى هناك .. الى العش الهانيء الوادع الذي يمرح فيه ولده الحبيب ، في غفلة من القدر وما يحجب وراءه من صفحات الغيب ؟ لا اخاله الا فعل ذلك . اذن فها هو ذا ولده (اسامة) الغلام الذكي الوسيم .. ولن يبعد ان يكون في تلك الساعة من الليل يسأل امه على نحو ما تعود ان يفعل كلما ابتعد ابوه عن المنزل وعزب النوم عن جفنيه .. يسألها ملحفا :

« ترى هل يرقد ابي في مثل هذه الساعة من ليلته ؟ ام انه على ظهر جواده يجتاز به مفازة من المفازات ؟ ام انه يقارع الاعداء في كمين نصبوه له ولصحبه في سواد الليل ؟ ام انه ... او لست تستمعين الي يا امه ؟ مالك تظاهرت بالنوم ؟ ويح النساء كيف لا يحفلن بشيء ! .. »

اجل اليس هذا نمط حديث (اسامة) الذي طالما نقلته اليه امه كلما عاد اليهم من غزوة او سرية ؟ فماله لا يفكر — اذن — وهو في موقفه ذاك بـ (اسامة) وحديث (اسامة) بل ماله يفكر فيما هو ابعد من ذلك واعمق .

لكاني به يفكر بذلك الصبي الاسير — وكان هو بعينه — وقد حمل الى مكة ليباع كما يباع العبيد ، فيكون حظه في البيت الذي لقي فيه من الرعاية والاكرام ما انساه جاه ابيه (الحارث) سيد قومه ، وزهده بنصرة القبيلة وعز العشيرة والعيش بين الاهل والاحبة في ربوع الوطن .. او ليس قد عرض عليه ابوه ذلك حين عرف مكانه في مكة ، وخيره سيده الذي اجتباه بين ان يعود مع ابيه او يبقى في المكان الذي انزله فيه من نفسه وبيته ، فآثر الثانية على الاولى ، وعاد ابوه يقلب كفيه يأسا من ولده الذي فضل الغريب عليه ..

وانه ليفكر بذلك الصبي وقد اصبح شابا يستقبل من ايامه ذلك اليوم الجاهم الذي احتشد فيه وجوه قريش، وقد ثارت حميتهم غضبا لكرامتهم التي يراد لها ان تهدر .. لقد قال قائلهم في ذلك اليوم : « يا هؤلاء ان (ابا القاسم) يريد ان يخرجكم عن الطور . لقد آمنا بان نكون سواء مع الناس لنا مثل مالهم وعلينا مثل الذي عليهم . ولكن شرفنا شيء صنعناه بايدينا ، وبذلنا من اجله ما تقاعس الناس عن بذله ، وورثه الفتى منا كابرا عن كابر .. فكيف ننزل للناس عن شرفنا هذا ؟ ان (زينب بنت امية بن عبد المطلب) القرشية يوشك ان يتحللها مولى يقول (ابو القاسم) انه ربيبه .. ومتى اصبح الجواد الهجين اصيلا اذا ربي مع الخيل العراب .. ؟ يا هؤلاء تداركوا الامر قبل ان يقع .. ! »

وانه ليذكر كيف غلب راي (ابي القاسم) آراء القوم جميعا ، وزوجه (زينب) رغم معارضتهم لذلك . ولكنه حين عجز عن تخطي ما ورثته من عنجهية اهلها ليصل الى نفسها استأذن ولي نعمته في التخلي عنها فاذن له فطلقها..

وما نسي فلن ينسى مبلغ الحرج الذي احاط بالفتاة واحاط بسيده الذي زوجه منها ، فهذه قريشية تخلى عنها زوجها الذي قالوا عنه انه مولى ، فمن من شرفاء قريش يرضى بان يتعقب المولى عليها ؟ اذن فلا بد لهذه القضية من حل ، وكان الحل ان تزوجها (ابو القاسم) نفسه ، ليكون في كلي زواجيها موعظة لمن عاشوا حياتهم عبيد التقاليد الموروثة فلا يتورع السيد الشريف بعد ذلك من ان يزوج ابنته لغير الشريف — على اعتبارهم للشرف الموروث — وله في هذا الحادث اسوة حسنة ، وكذلك لا يتورع الحسيب النسيب في قومه من ان يتزوج فتاة من اهله تخلى عنها عائلها ، كائنا من كان هذا العائل حتى ولو كان ربيبا له او كان دونه في المكانة بين الناس ..

لعل هذا القائد فكر بما هو اكثر من ذلك ، فكر بأيام عصيبة مرت به وبصاحبه وباناس كثيرين تعرف اليهم قبل

الهجرة في (مكة) وبعد الهجرة في (المدينة) .. فكر في غزوات وحروب سار فيها تحت راية سيده او سار فيها بامر منه فبذل غاية الجهد طمعا في ان ينال الشهادة ولكنه عاد منها جميعا سالما غانما .

لقد فكر هذا القائد طويلا حتى ادركه النعاس وهو في جلسته تلك تضطرب في نفسه هذه الذكريات جميعا ، ثم لم يجد بدا من ان يقوم الى فراشه ليهجع فيه ما بقي من الليل ..

ويتنفس الفجر من الغد فينهض الابطال بعددهم القليل فرحين مستبشرين ، ومالهم لا يفرحون ؟ بل مالهم لا يستبشرون ؟ انهم يسيرون الى لقاء احدى غايتين كلتاهما حبيبة الى نفوسهم وهما النصر والشهادة .

وتدور رحى المعركة على نحو ما رسموا من الليل ، ويتقدم امير الجيش الذي ندبه قائدهم الاعظم ، فيندفع في طليعة جنوده وهو يحمل رايتهم الى النصر ، ولكنه لا يلبث ان يلاقي وجه ربه ، فقد تكاثر جنود الاعداء من حوله حتى صرعوه . ويتقدم خليفته في الامارة فيلاقي ما لقيه سلفه . ثم يتبعهما الامير الثالث ، وجميعهم مرتب له موعد هذه الامارة منذ خرج الجيش من وطنه ، ولكنه يلاقي ما لقيه صاحباه ، ويستشهد معهم عدد من الجند . ثم يجمعون امرهم على رجل منهم يولونه قيادتهم، فيرى بثاقب نظره ان يرتد بمن بقي معه لتعود هذه الفئة حين تعود بالعدد الوافر ، الذي يضمن لهم من النصر ما يقر عيون هؤلاء الشهداء الابطال .

انهم اصحاب مؤتة الذين لا تزال مضاجعهم هناك ، قريبة من مدينة (الكرك) في شرقي الاردن ، تذكرنا بتفاني امرائهم الثلاثة ، واولهم (زيد بن حارثة) القائد الذي تخيره النبي صلوات الله عليه منذ خرجوا من المدينة ، وهو ربيبه الذي تبناه صغيرا ، وصفيه الذي اصطفاه كبيرا ، فكان من المقربين اليه من اصحابه ، وكان من خيرة قواده الذين طالما وجههم في السرايا والغزوات .

واما الثاني فهو (جعفر بن ابي طالب) ابن عم رسول الله ، البطل الجريء المقدام ، صاحب المواقف الرائعة في جهاده الصادق دفاعا عن الاسلام في المعارك الحاسمة التي خاضها المسلمون قبل مؤته .

واما الثالث فهو (عبد الله بن رواحة) **الصحابي** الجليل ، وقد كان شاعرا مقلا الا انه رقيق العاطفة صادق الشعور ، آمن برسول الله ايمانا شغل نفسه وملأ قلبه ، واحبه حبا صادقا جمله على ان يقول فيه :

اني تفرست فيك الخير نافلة	**فراسة خالفت فيك الذي نظروا**
انت الرسول فمن يحرم نوافله	**والوجه منه فقد ازهى به القدر**
فثبت الله ما آتاك من حسن	**- تثبيتموسى - ونصر كالذي نصروا**

وقد سمع هذا الشاعر المؤمن جماعة المودعين يدعون لهم بقولهم : « دفع الله عنكم ، وردكم صالحين غانمين .. » فعقب على دعائهم منشدا :

لكنني اسأل الرحمن مغفرة	**وضربة ذات فرع تطفىء الكمدا**
او طعنة بيدي حران مجهزة	**بحربة تقذف الاحشاء والكبدا**
حتى يقال اذا مروا على جدثي	**يا ارشد الله من غاز وقد رشدا**

ولما قتل صاحباه في مؤتة ، وجاء دوره لتسلم راية الجهاد ، اخذها واندفع في وجه الروم مرتجزا :

يا نفس الا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت -
وما تمنيت فقد اعطيت ان تفعلي فعلهما هديت .

يا اخي القارىء : ان المهاجرين الاولين الى امريكا الذين باشروا عمران الارض وانشاء المدن ، يطلقون عليهم هناك اسم (الطلائع) . ويفخر احدهم اذا كان جده لامه اوجده لابيه واحدا من هؤلاء ، وان من حق شهداء مؤتة علينا ان نعتبرهم الطلائع المغامرين ، الذين جعلوا من اجداثهم في هذه البلاد رواسي لا يزعزعها كر السنين ، استقر عليها ذلك المجد الخالد ، الذي شيده من بعدهم في هذه البلاد اخوانهم في العروبة اللاحقون بهم ، والسالكون طريقهم الى تحرير هذا الوطن العربي من ايدي الفرس والروم ، بعد ان استعمروه حقبة طويلة من الدهر .

فخلودا لطلائع المجد شهداء (مؤتة) البواسل ..

عمان **محمد سليم رشدان**



رقص الالهة

لسليمان نصر

الكلية الوطنية
الشويفات – لبنان

وانشقت الآفاق عن عرشها
في حلة سوداء مقطوعة
كأنها الاهة أقبلت
تلفها غلالة زررت
وابتسمت فابتسمت ارضنا
وارتعش المنبر من وطئها
واندفعت تميس اعطافها
وغيرة الفراش في لهوه
تعبث بالارواح اذ تنثني
وكيفما تميل في اثرها
من خلف هدبيها أطل الضحى
وفي مطل الثغر ياقوتة
تخط رجلاها سطور الهوى
وتنصب الكفان زنديهما
قد سحر القوم فلم يعلموا
أم أنهم في زورق تائه
يا شلما أقدامها في الثرى
من عهد عشاروت ما أطلعت
يا خمرة لم تحوها أكؤس
أمن كروم الخلد معصورة
قد سكر الفجر بانفاسها
وقال للورد : ألا ليت لي
في سكرة المجد واحلامه
وجوقة الارواح من حولها
ترى أقالت : ليتما شاعري
ويورق الذابل من عوده
لاتجرحي قلبي، فروحي الذي
قد كان والنور على موعد
يا صورة في النفس لم يمحها
ستنطفي العين وأشواقها
تبارك الفن واعلامه
تناقلوا الالحان عن طيره
غداً لهذي «الشمس» اشراقة
وكل نجم ليس في طبعه
غدا يقول الارز يا « نادية »
اودعت حسني كله ثغرها

فامتدت الشمس سهاما سهام
من غرة الليل وهدب الظلام
تمسح ما في جونا من غيوم
ورصعت أطرافها بالنجوم
كأنما قبل فاها الاله
وصفقت ألواحه للحياه
واخجلة الاغصان والخيزران
على خدود الورد والاقحوان
أو تستوي مقبلة مدبره
ينساح عطر ريحه مسكره
وفوق خديها تجلى النهار
ينصب فيها جدول من نضار
دوائراً آناً ، وآناً سهام
مصاعدا بين الثرى والغمام
أهم على أرجوحة من تراب
ترقصه الامواج فوق العباب
ورأسها مسترسل للسماء
هذي الربى ندّاً لهذا البهاء
يوماً ، ولم تحلم بها داليه
أم من عناقيد الذرى العاليه
فذاب سحراً في دروب الربى
فيكن من تشبه هذا الصبا
وضجة الاعجاب كالعاصفة
أجنحة مشبوبة العاطفة
يرى فيرتد عليه الشباب
ويخصب العمر وتحلو الرغاب
أيقظته ما كان بالغائب
يرف حول الباخل الواهب
بعد ولا حسن على غانيه
وانت في أعماقها باقيه
من غيد لبنان وفتيانه
والرقص عن امواج شطآنه
فيخسف البدر وتخبو النجوم
نبالة اشراقه لا يدوم
أصغوا الى حسونتي الشاديه
ورفعتي جبهتها العاليه

على هامش كتاب رائد الشعر الحديث

بقلم عيسى الناعوري

ليس ما اكتبه الان نقدا ولا تقريظا ولا مراجعة لكتاب (رائد الشعر الحديث) للاديب الدؤوب النشيط الاستاذ عبد المنعم خفاجي ، ولا هو تعليق على مادته ، وانما هو حديث على هامش موضوعه - والشيء بالشيء يذكر - ساقته مناسبة ظهور الجزء الثاني من هذا الكتاب ، والطبعة الثانية من جزئه الاول ، وما ورد في كليهما من اشارات الي والى شيء من صلتي بالمرحوم احمد زكي ابي شادي

ولقد امتدت هذه الصلة بيننا من اواخر عام ١٩٥١ الى حين وفاته - رحمة الله عليه - ولدي الان منه تسع عشرة رسالة ، عدا هوامش وتعليقات قصيرة كان يخطها بالحبر او بالرصاص على حواشي بعض احاديثه الادبية المذاعة التي كان يرسلها الي ، مطبوعة على الناسخة ، اما لاجل الاطلاع ، واما للنشر في مجلة (القلم الجديد) حينما كانت في قيد الحياة .

واعتقد ان هناك اكثر من رسالة واحدة من اوائل مراسلاتنا لم احتفظ بها - برغم حرصي الشديد على الاحتفاظ بكل رسالة تصل الي - ولا ادري كيف فقدت مني . ودليلي على ذلك ان الرسالة الاولى من الرسائل المحفوظة لدي ، وتاريخها ١٣/٢/١٩٥٢ ، تشير الى مراسلة سابقة ، واختلاف في الراي بيني وبينه في تلك المراسلات ، والى اشياء سبق ان طلبها مني ، ويكرر طلبه لها .

وعدا هذه الرسائل كان ابو شادي قد اذاع عني من محطة (صوت اميركا) ، التي كان يعمل فيها ، اربعة احاديث : عن ثلاثة من كتبي ، كان احدها ما يزال مخطوطا ، وعن مجلة (القلم الجديد) ، وتحدث في احدى جلسات (رابطة مينرفا) عن انتاجي الادبي - كما جاء في رسالته الي المؤرخة ١٣/٢/١٩٥٢ ونشر مقالا عني في جريدة (السائح) - عن الرسالة نفسها -

هذه الصلة غير القصيرة بيني وبين ابي شادي ، ودراستي لاشياء من انتاجه الادبي ، واطلاعي على الكثير مما كتب حوله حيا وميتا ، تسمح لي بان اعرف الرجل معرفة لا بأس بها ، وان تكون لي معه ذكريات ، وتجعلني استطيع ان اكتب عنه شيئا قد يكون فيه خدمة للادب وللحقيقة ، سواء اكانت هذه الحقيقة في جانبه أم كانت تجانبه بعض المجانبة .

* * *

لست اذكر تماما كيف بدات صلتي بأبي شادي ومراسلاتي معه - وقد تقدم ان شيئا من المراسلات الاولى مفقود من عندي - واغلب ظني انه كان قد كتب الي للمرة الاولى بواسطة مجلة (الاديب) ، وطلب الي ان ارسل اليه ما لدي من مؤلفات ، ليتحدث عنها في (صوت اميركا) . ولقد استجبت الى طلبه ، ورحبت بمراسلته ، وارسلت اليه كتابي (ابو ماضي) و (الجديد في الادب العربي) . وبعد مدة اذاع ابو شادي حديثه عن كتابي (ابو ماضي)، وارسل نسخة عنه الى مجلة (المقتطف) ونسخة اخرى الي ، ونسخا غيرها الى صحف واصدقاء آخرين من اصدقائه ، كعادته في توزيع ما كان يذيعه من (صوت اميركا) على الصحف وعلى الاصدقاء مطبوعا على الناسخة .

وقد نشر حديثه هذا في عدد كانون الاول عام ١٩٥١ - فيما اذكر - من المقتطف . فكتبت الى ابي شادي في ٧/٢/١٩٥٢ ارد على حديثه - ولم يكن قد وصل الي قبل ذلك الحين - وارسلت نسخة من الرد الى المقتطف ، فنشر فيها في عدد مايو ١٩٥٢ . وهكذا بدات المراسلات الجدية بيني وبين ابي شادي ، واولى رسائله المحفوظة لدي هي التي يرد بها على ردي ، وتاريخها ١٣/٢/١٩٥٢ .

ثم كتب الي في ٩ ابريل سنة ١٩٥٢ يطلب ان ارسل اليه مختارات من شعري ليستعين بها على كتابة حديث أدبي عني . وكان قد قرأ لي عددا من القصائد الوطنية الثائرة في جريدتي (السائح) و (السمير) . ولقد استجبت الى طلبه ، فارسلت اليه مجموعة من شعري مطبوعة على الآلة الكاتبة ومجلدة بشكل كتاب ، فلم يلبث ان اذاع عني حديثه الثاني ، وتناول فيه هذه المجموعة الشعرية التي كنت قد جعلت عنوانها (اناشيدي)

وفي ٧ مايو ١٩٥٢ كتب الي يطلب نسخة من كتابي (الجديد في الادب العربي) لان النسخة التي ارسلتها اليه من قبل قد « خطفت من مكتبه مع كتب اخرى مفيدة » . وقد ارسلت اليه الكتاب ، فاذاع عنه حديثا ثالثا ، ثم نشر الحديث في جريدة (السائح)

واما حديثه الرابع عني فقد اذاعه بعد وصول العدد الاول من (القلم الجديد) اليه . وارسل الي نسخة من الحديث ، فنشرته له في (البريد الادبي) من العدد الرابع من المجلة .

ومنذ ان بدأ مراسلته لي كان قد ارسل الي اربع نسخ من ديوانه (من السماء) ومعها نسخ من مقالات بالعربية

والانكليزية مما كتبه عنه الاستاذ السحرتي وبعض المستشرقين بمناسبة حفلة تكريمه في اميركا . ولقد كانت احدى نسخ الديوان هدية لي ، والنسخ الثلاث الباقية للتوزيع . وعكفت على دراسة هذا الديوان ثم كتبت عنه مقالا طويلا ارسلته الى مجلة (الثقافة) في مصر — وكانت اذ ذاك في اواخر ايامها — فظهر فيها منشورا في عددين متعاقبين .

ولما انشأت (القلم الجديد) رافقها ابو شادي بقلمه من العدد الاول الى العدد الاخير ، وكان ممن يحدبون عليها ويرغبون في بقائها ؛ فلم يبخل عليها بثمن الاشتراك ، ولا بالمؤازرة الادبية . وقد كتب الي حين اخبرته باعتزامي اصدارها يقول : [يطيب لي ان اهنئك بمجهودك الذي سيثمر لنا القلم الجديد عن قريب ... واختم بان اقول لك انني مستبشر خيرا بجهدك ، لان وراءه الغيرة والاخلاص] — من رسالة في ١٣ اغسطس ١٩٥٢ —

وحينما اخبرته بعد اثني عشر شهرا من ذلك التاريخ بان القلم الجديد ستتوقف عن الصدور لما اعانيه في اصدارها من المشاق المالية ، كتب الي يقول :

عزيز علي ان اسمع منك عن مشاقك المادية ، وكانما هذا حظ كل أديب في العالم العربي ... ان عملك صورة للتضحية بين قومنا الذين نبذل لهم دماء قلوبنا وعصارة ارواحنا . ان مجلة القلم الجديد فخر للاردن ، بل للعروبة عامة ؛ فاذا انصرفت الحكومة الاردنية عن عونها الكامل ، كان ذلك في اعتباري وفي اعتبار المستشرقين هنا وصمة لها] — من رسالة تاريخها ٢٥ يوليه ١٩٥٣ —

وكانت آخر رسالة كتبها الي ابو شادي تحمل تاريخ (٣٠ ديسمبر ١٩٥٣) ، ثم انقطعت رسائله عني حتى قرأت نعيه في الصحف — رحمه الله —

وكان ابو شادي في جميع رسائله تقريبا يشكو من مضايقة الامراض له ؛ وفي رسالته الاخيرة يخبرني بانه اضطر الى اجراء اربع عمليات في قدميه . ولكن هذا الرجل — على شيخوخته — الذي كانت تلاحقه الامراض وتضايقه بلا انقطاع ، كان اقوى من المرض بنشاطه ودابه ، فقد كان لا يمل من الكتابة : كتابة الاحاديث والمسرحيات والقصائد لصوت اميركا وللصحف ، وكتابة الرسائل العديدة الى اصدقائه العديدين في مختلف الاقطار العربية والمهاجر . وكان يحافظ على ان تستمر صلته بهؤلاء الاصدقاء جميعهم ، وان تكون دائما صلة مودة وتقدير متبادل .

وكانت الصلة بيني وبينه صلة مودة وتقدير متبادل كذلك ، ولكنها لم تسمح بان تكون مجاملاتنا على حساب الحقيقة والادب ، فقد كنت اصارحه في رسائلي بغير موارية بانني اخالفه في امرين : الاول انصرافه الى النظم واصراره على ان يكون شاعرا ، على حساب مواهبه العلمية والادبية والفنية الاخرى ؛ والثاني تعمده التحامل بغير حق على الشاعر المهجري ايليا ابي ماضي .

وحين كتبت مقالي حول ديوانه (من السماء) في مجلة (الثقافة) لم احاول ان اخدعه او اوارب في اظهار ما اعتقده صوابا ؛ فابديت اعجابي به : انسانا ، وناقدا ، وعالما موهوبا ؛ ولكنني ذكرت بصراحة انه في الشاعرية يقصر كثيرا عن شأو الشعراء الشبان الذين كان له فضل ابراز مواهبهم بمجلة (ابوللو) ، واخص بالذكر منهم الشابي وعلي محمود طه ؛ وان الفرق بعيد جدا بين شاعريته وشاعرية ابي ماضي ، وفدوى طوقان ، والقروي ، وابي ريشة ، مثلا ؛ وقلت انه موفق في نثره اكثر من توفيقه في شعره .

ولقد اختلفت في هذا ايضا مع الاستاذ عبد المنعم خفاجي في بعض مراسلاتنا ؛ واشار هو في الجزء الثاني من كتابه (رائد الشعر الحديث) الى هذا الاختلاف في الصفحة ٧٥ و٧٦ منه .

وحين كنت اصدر (القلم الجديد) كان ابو شادي يغمرني بفيض من قصائده الجديدة ، واحاديثه الادبية ، ومسرحياته القصيرة . فكتبت اليه مرة اصارحه بانني لن انشر له شيئا من الشعر ، لانني لا ارى في شعره من الجمال والقوة ما يسمح بنشره ؛ ولكنني سأختار للنشر من مقالاته الادبية . وعلى الرغم من الحاحه علي في ثلاث رسائل متتالية ان انشر حديثا له بعنوان (شعر السخرية) يتضمن قصيدة من شعره يسخر بها بطريقة رمزية من الملك المخلوع فاروق ، الا انني صارحته بان القصيدة لم تكن تستحق النشر . وكان هو في كل مرة يتقبل هذه الصراحة بروح طيبة . وبين رسائله المحفوظة لدي نحو اربع رسائل يكرر فيها انه يترك لي ان اختار للنشر ما اريده مما يرسله الي ، وان اهمل ما لا اراه جديرا بالنشر .

والذين رافقوا (القلم الجديد) يذكرون انه لم ينشر فيها شيء من شعر ابي شادي ، ولو للتمثيل .

ولكن اصرار ابي شادي على النظم المتواصل ، وعلى ان يعرفه الناس شاعرا ، ضاربا الصفح عن مواهبه المتعددة الاخرى ، ولا سيما في النواحي العلمية التي كان يمكنه ان يفيد بها كثيرا ، كان امرا يدعو الى الاستغراب الشديد ، وكان نقطة ضعف كبيرة ، ما كان ليضيره ان يتخلص منها . وقد رافقه هذا الاصرار منذ زمن بعيد ؛ وكان لهذا السبب انه انشأ منذ نحو ٢٤ سنة مجلة (ابوللو) ، وجعلها خاصة بالشعر والابحاث الشعرية فقط . ولقد انضمت الى هذه المجلة والى جمعية (ابوللو) طائفة من الاقلام القوية والناشئة ، وبرزت عن طريقها مواهب شعرية جديدة طيبة . ثم ماتت مجلة (ابوللو) ، ولكن ابا شادي لم يصل الى المنزلة الشعرية التي كان يطمع فيها .

ونشر ابو شادي في مصر نحو اثني عشر كتابا شعريا — ولعل هذا اضخم رقم يصل اليه انتاج شاعر — ولكن شعره لم يصل الى قلوب القراء ، ولم يجد من يعترف بابي شادي بين شعراء العالم العربي المرموقين — غير الاستاذ السحرتي في كتابه « الشعر العربي المعاصر » الذي يحتل فيه ابو شادي اضخم مكانة بين شعرائه ، ويصيب شعره اكبر نصيب بين نماذجه —

وحين ضاقت مصر بابي شادي بعد وفاة زوجته الاولى ، وغادرها الى العالم الجديد ، كان يحمل بين جوانحه املا في ان يطل من هناك بشعره على الشرق العربي ، فيعيد الى ادب المهجر عهده الذهبي ايام الرابطة القلمية . فانشأ

هناك (رابطة مينرفا) وحشد لها جماعة من شعراء المهجر الاحياء وكتابه ، الى جانب جماعة من الاميركيين المستشرقين . وراح ينشر القصائد العديدة في جريدة (السائح) وجريدة (الاصلاح) وغيرهما . ولكن شعره لم يستطع ان يجدد عصر الرابطة القلمية الذي مات .

قلت ان ذلك كان نقطة ضعف في ابي شادي . والحقيقة ان رغبته في ارضاء هذه النزعة في نفسه كانت تضطره الى مجاملة الكثيرين ، والى استرضاء الكثيرين — وكان في غنى عن كل ذلك — لكي تجتمع له فئة منهم تجامله كما يجاملها ، وتعترف بشاعريتــــه . وكان عمـلـه في (صوت اميركا) يساعده كل المساعدة على هذا الاسترضاء وتلك المجاملة . وكانت نزعته هذه تضطره كذلـك الى الاتصال المستمــر بالصحف ، والاشتراك بأكبر عدد ممكن منهــا في مختلف الاقطار العربية والمهاجر ، لينشر فيها شعره ونثره ، ويكسب صداقتها .

وهكذا مضى ابو شادي يتصل بشعراء الاقطار العربية وادبائها ، ويطلب اليهم — سواء بالاعلان في الصحف ، أو بالكتابة المباشرة ، او بحث اصدقائه على الاتصال بهم — ان يوافوه بمؤلفاتهم — ادبية كانت او مدرسية — ليتحدث عنها وعنهم في (صوت اميركا) او في (رابطة مينرفا) . وانهالت عليه الكتب والدواوين الشعرية — المطبوعة والمخطوطة — فلم يقصر ابو شادي في حق احد من مؤلفيها — العريقين منهم والحديثي الظهور — واشهد انه باحاديثه قد ادى خدمات كبيرة الى كثيرين منهم ، وقوى فيهم الثقـــة بانفسهم ، وشجعهم على المضي قدما في طريقهم ؛ وكان ذلك منــه صنيعا حسنا .

ولم يكن بد من ان تتأثر نفوسهم بهذا الجميل ، فكثر اصدقاء ابي شادي عن هذا الطريق . ومن بين هؤلاء الذين خدمهم ابو شادي باذاعة ادبهم من (صوت اميركا) ونشر عنهم في الصحف ، وجدت جماعة تعترف بشاعريته ، مقابلة بذلك حسن صنيعه وتنويهه بهم . ومن هؤلاء ايضا تألفت (رابطة الادب الحديث) التي جعل مركزهــا في مصر ، وانتخب لها اعضاء من اقطار عربية اخرى . وبين اعضـاء هذه الرابطة ادباء محترمون ، لهم فضلهم ولهم قيمتهم الادبية بغير شك . ويلاحظ انه قد استثني في اختيار اعضاء الرابطة كثيرون من اصدقاء ابي شادي الذين لم يقروا بشاعريته ، او بتفوقه الشعري .

وانت تستطيع ان تدعو هذه الرابطة (رابطة جماعة ابي شادي) ولا تعدو الحقيقة ؛ فقد كان ابو شادي هــو الموحي بانشاء الرابطة ، وباختيار اعضائها — مباشرة او غير مباشرة — ولذلك كان اهم ما عملته الى الان هو تمجيد ابي شادي ، وتأليف الكتب حول ادبه وحياته وشعره، والاشادة بموهبته الشعرية المتفوقة . وقد ظهر لاعضاء هذه الرابطة في هذا الموضوع ثلاثة كتب متلاحقة ، منها كتاب (رائـد الشعر الحديث) للاستاذ عبد المنعم خفاجي الذي يعتبـر لولب الحركة فيها .

وقد نشرت الرابطة لكريمة ابي شادي كتابهــا الاول (الاغنية الخالدة) الذي يحتوي على مجموعة منا لقصائـد المنثورة ؛ واحتفت به احتفاء عظيما ، وانشأت حوله العديد من المقالات التقريظية في كثير من الصحف .

وحين انتقل ابو شادي الى الرفيـــق الاعلى ، قامت الرابطة نحوه بواجب الوفاء والولاء ، واقامت له حفلة تأبينية كبرى ، وكتب اعضاؤها العديد من المقالات والقصائد في رثائه وتمجيد شعره وتخليد ذكره ، واستكتبوا لهـــذه المناسبة كثيرين من هنا وهناك .

لقد مات ابو شادي بعد ان اطمأن الى ان هناك مــن يؤمنون بشاعريته ، كما كان يريد طوال حياته ، وان بــين هؤلاء ادباء يحترم آراهم واذواقهم ، ويستريح الى حسن تقديرهم . وكانت تلك تعزيته الكبرى في آخر أيامه .

اما هل ستستطيع (رابطة الادب الحديث) ان تكتب لشعر ابي شادي الحياة حقا ، فذلك ما لا تدريه الرابطة ، ولكنها تسعى اليه ما استطاعت ، وان يكن تقدير شاعرية ابي شادي لم يخرج بعد عن دائرة الرابطة بشكل يستحـق الذكر .

على ان عدم الاعتراف بشاعرية ابي شادي ، ليس بالشيء الذي يتنافى مع تقدير الرجل نفسه كانسان ، وكعالم موهوب ، له من مواهبه المتعددة الاخرى ما يغنيه عــن موهبة الشعر التي كان يصر عليها بكل قواه .

* * *

ونجيء الان الى نقطة الخلاف الثانية التي كانت بيني وبين ابي شادي ، وهي نقطة تحامله على ابي ماضي بغــير حق ، وتعمده محاولة النيل منــه كانسان وكشاعر معا ، بتجريده من الاخلاق ، واتهامه بسرقة قصائده . ولهـذه الحكاية — في رأيي — صلة وثيقة بالحكايــة الاولى : اي باصرار ابي شادي على الشاعرية ؛ وان يكن هو قد فسرها بغير ذلك في حديث أفضى به الى محـرر مجـلة (البعثة) الكويتية التي كانت تصدر في القاهرة ، ونقله الاستاذ عبد المنعم خفاجي في الصفحة (٢٩٠) من كتابه (رائد الشعر الحديث — الجزء الثاني) ؛ فقد ذكر ابو شادي انه كان قبل نزوحه الى اميركا قد كتب الى ابي ماضي » « باعتباره اديبا يحب شعره المروح عن النفس » — كما يقول — ولكنه عـلم بعد وصوله الى نيويورك ان ابا ماضي « مشغول بنفسه ، وينطبق عليه المثل : تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » ، وانه قد كتب في جريدته (السمير) مقالات كان يتعمد فيهــا الاساءة الى ابي شادي .

هذا التفسير الذي يبرر به ابو شادي حملاته على ابي ماضي واساءاته اليه ، ليس سوى راي طرف واحد ، ولكنه مع ذلك يلقي شيئا من الضوء على اسباب حقد ابي شادي ، ويصوره لنا بمظهر العمل الانتقامي المقصود ، لا العمل الذي يقصد فيه اظهار الحقيقة المجردة . فأبو ماضي لا يؤمــن بموهبة ابي شادي الشعرية ، وهو لذلك لم يخف لاستقباله ، ولم يكتب الفصول الطويلة في الترحيب بمقدمه وتمجيد شاعريته . وليس غريبا ، اذن ، ان يستاء ابو شادي من هذا الاهمال ، فهو في نفسه شاعر عظيم ، بل في طليعة مجددي الشعر العربي . ولو أشاد ابو ماضي بشاعريته لحقق لـه حلمه الكبير ، ولوطد له المكانة الشعرية التي يطمع فيها ؛ لان لمثل ابي ماضي قيمته الكبيرة ، ولرأيه في الشعر والشعراء اهمية . وما دام ابو ماضي لم يبال بأبي شادي ولم يقـدر

مكانته ، ولا رحب بوصوله ، فمن حق أبي شادي أن يحس بأن في ذلك « اصغارا له » و « انشغالا من ابي ماضي بنفسه » – كما يقول – وان يمتلىء صدره بالحقد على ابي ماضي لاجل ذلك ، فيسعى الى انتهاز الفرصة المناسبة للانتقام منه .

وكان صدور كتابي (ايليا ابو ماضي رسول الشعر الحديث) الفرصة التي ينتظرها ابو شادي لينال بها من خصمه . فأذاع حديثه من (صوت اميركا) عن هذا الكتاب، وجعل القسم الاكبر منه ذما وقدحا واتهاما لابي ماضي ، اذ جعله شاعرا مقلدا سارقا : قلد شعراء الاسكندرية ، وتتلمذ على عثمان حلمي اولا ، ثم قلد شعر الرابطة القلمية بعد ذلك، وسرق قصائده من شعراء الغرب ، امثال ادجار الان بو ، وروبرت جرين انجرسل ، وانطوني وونز ، وغيرهم .

اما تقليد شعراء الاسكندرية وشعراء الرابطة القلمية فتهمة لا تقوم على ساق واحدة ، بله الساقين ؛ وليس مثل ابي شادي ممن يستطيعون ان يصدقوها في قرارة نفوسهم، لولا الغرض . واما انتحال قصائد شعرية لشعراء غربية والسطو على أفكارهم ، فقد استطاع ابو شادي ان يضع يده على واحدة ترجمها ابو ماضي عن الانجليزية ، وجعل عنوانها (هي) وكان في الانجليزية «نخب الفارس» The Knight's Toast وصاحبها غير معروف ، ويرجح انها للسير ولتر سكوت ، وليست لانطوني وونز كما يقول ابو شادي .

اما محاولة ابي شادي نسبة (الطلاسم) الى ادجار الان بو ، او الى انجرسل ، فقد جانبه التوفيق فيها كل المجانبة ، ولم يستطع اثبات شيء من التشابه بين ابي ماضي وهذين الاديبين الغربيين . وليس هذان ولا ابو ماضي اول من عبر عن شكوكه وحيرته بين الشعراء ، ولن يكونوا آخرهم .

ولم يكتف ابو شادي بهذا الحديث – وقد نشره بعد ذلك في المقتطف ، ووزع منه نسخا كثيرة على الصحف والاصدقاء – بل راح يكتب في رسائله الشخصية الى من يراسلهم كلاما ملؤه الحقد على ابي ماضي . واذكر ان طالبا من كلية الآداب في الاسكندرية ، اسمه أحمد عادل الدري ، كان يراسلني حينذاك ، وقد ذكر لي في أكثر من رسالة اشياء مما كان ابو شادي يكتبه اليه في الطعن على ابي ماضي ، ردا على اسئلة كان الدري قد وجهها اليه عن ابي ماضي . ومثل ذلك كان يكتبه ابو شادي الى كثير من اصدقائه ، ليفسح المجال لدى اكبر عدد منهم لاساءة الظن بأبي ماضي وشعره . وبين رسائله المحفوظة لدي رسائل مملوءة بالتهجم العنيف الحاقد على ابي ماضي ، ونعته (بالسخف ، والحقد ، والحسد ، والقسوة ، والانانية ، والاختلاس) وما الى ذلك ، وكانت لهجته في ذلك لهجة المنفعل الناقم الذي يريد ان يشفي غلا في نفسه .

ومن هنا وجد بعض حساد ابي ماضي الاخرون والناقمون عليه متنفسا لهم ، فراحوا يرددون اتهامات ابي شادي ، ويبحثون لابي ماضي عن مجالات جديدة للاتهام ، ومواطن جديدة للنيل منه ومن ادبه ، بعد ان فتح لهم ابو شادي باب الاختلاق ، ودلهم على الطريق ، ليندفعوا فيه بلا حذر ولا روية .

وليس من همي ان ادافع عن أبي ماضي ، فمكانته وشعره في أمان من ان تصل اليهما يد بغضاضة ، برغم تلك القصيدة المترجمة الوحيدة التي لثمها له ابو شادي ، والتي تفوق ترجمتها العربية الاصل الانكليزي جمالا وعذوبة . ولكنني اود ان اضيف شيئا آخر له اهميته في هذا الموضوع .

لقد كان عبد المسيح حداد وايليا ابو ماضي صديقين منذ حقب طويلة ، من قبل ان يتزاملا في الرابطة القلمية ، ولم يكن بينهما ما يسوء . ولكن ابا شادي اذ لم يجد من ابي ماضي وجريدته الترحيب الذي كان يريده ، راح يوطد صلته بعبد المسيح حداد وجريدته الى أقصى حد ممكن . وليس في هذا ما يعاب ، ولكن الغريب ان النار لم تلبث ان اشتعلت بين الصديقين القديمين – عبد المسيح وايليا – بغير ان يكون هناك مبرر حقيقي لهذا الاشتعال . وما تزال هذه النار مشتعلة الى اليوم ، ولم تستطع جميع الجهود التي بذلها اصدقاؤهما الاقربون والبعيدون – حرصا على كرامتهما – ان تتوصل الى اطفائها في نفسيهما .

كيف اشتعلت هذه النار ؟ وكيف احتدمت فجأة وعلى غير انتظار بعد الصداقة الطويلة الامد ؟ وهل كان ابو شادي سببا صريحا مباشرا في اشعالها ، أم كانت يده تعمل من وراء ستار ، لينتقم لنفسه من اهمال ابي ماضي له؟

ان هناك حقيقة لا تعمى العيون المبصرة عن رؤيتها ، وهي ان اباشادي كان يحس في قرارة نفسه ان تقدير عبد المسيح حداد له لا يكفيه ولا يغنيه عن تقدير ابي ماضي ؛ فأبو ماضي من أعظم شعراء العالم العربي ، وشعره على كل لسان ، وفي كل صحيفة ، وفي كل كتاب مدرسي، وفي حنجرة كل مذياع في دنيا العروبة كلها ؛ وليس لعبد المسيح شيء من هذا كله . فاذا كان ابو شادي لا يستطيع ان يظفر منه بشهادة تؤيد شاعريته ، وتثبت منزلته الشعرية بين الناس ، فليثر في وجهه من الزوابع ما يستطيع اثارته ، سواء في الاذاعة ، او في الصحف ، او في الرسائل الخاصة ، وليدق اطر منشم بينه وبين زميله وصديقه عبد المسيح ، وليكرس كل من الصديقين اعمدة جريدته للسباب والمهاترات ضد صديقه . وكذلك كان ، وأساء ابو ماضي الى نفسه اساءة بالغة حين تنازل الى الرد على عبد المسيح بنفس اللهجة التي كان يهاجمه بها عبد المسيح ، وهي لهجة لا تحفظ شيئا من الكرامة لاي من الرجلين .

ولكن أكان ابو شادي في النهاية مرتاح الضمير الى هذه النتيجة ؟ لقد كنت أتمنى لو سئل في ذلك قبل موته ؛ لعله يؤدي الشهادة التي تبرىء ذمته وضميره وهو واقف على عتبة الابدية .

لقد كان ابو شادي بشريا كسائر البشر ، فيه الى جانب الفضائل العديدة التي كان يتحلى بها عيوب من عيوب بني البشر . ولقد كان اصراره الدائم على الشاعرية واسترضاؤه الكثيرين لهذا الغرض وهو في غنى عنه، والحاحه الدائب على الانتقام من ابي ماضي على اوسع مدى ممكن بغير مبرر سوى عدم اكتراث ابي ماضي له ، النقصين الكبيرين اللذين كنت أتمنى لو خلت حياته منهما ؛ اذن لكان ابو شادي نموذج الانسان الكامل ، ومثال النبل الانساني والعظمة الخلقية .

عمان عيسى الناعوري

بلاد الرافدين

٥

بلادي معبد الشمس

ومهد الفن والابـداع والعمران والدَّرس
سمتفي الدهر واختالتعلى الأمصاربالامس
وخطّت مجدها قِدَماً على الآجر والطِّرس
قروم شيدوا ملكاً وشعب طيّب الغرس
شُداة الشعر قد نظموا أغاني عذبة الجرس
وأرباب الفنون بنوا صروح المُلك والقدس
وكهّان البروج جلوا رموز الكون بالحدْس
حضارات أزن دجى ليالي الأعصر الدُّمْس
ودنيا من خصيب الترب
والأمـواه في عرس

٭

بلادي موئل المجد :

بطـــولات أقامت دولة خفّاقـة البنـــد
وملك شامخ البنيان بالأمـوال والجنـــد
وعدلراسخ الاركان يبري السيف فيالغِمْد
بنو العباس في عهد ومـا أحلاه من عهـــد
وبغداد عروس الأرض تحكي جنة الخـلد
وهارون ومأمون وعـين الدهر في سُهد
وأهل الشعر في سكر وفي وجد أولو الزهد
أحلماً كان ذاك السعد وأسفي على السعد
ويا لهفي على الأمجـاد
قد غيّبن في اللحـد !

بلادي معدن الحب :

صَبَابات تضوع شذاً وحسن باهر يصبي
وأنسام تهيـج الوجد والتحنـان في اللبّ
وألحان تفيض شجاً كشوق الوالـه النَّدب
سميراميس والأقيـال أهـل البأس والحرب
مغاني الانس والجنّات مشرفة على السُّحب
فتاة الكوخفي غَنَج وربُّ القصر في كَرب
وريم تقنص الآسـاد بـين الجسر والدَّرب
وكم من عاشق فـذ وكم من شـاعر صبٍّ
يقـول الشعر ملتاعـاً
ينفّس عن هوى القلب

٭

بلادي غرّة الدهر

ومسرى الماء والأضواء في الآصال والفجر
ومرآة النجوم الزُّهر تجلو صفحة النهــر
معين النفط والكبريت بـين النخل والزَّهر
وكنز الثروة الفيّاض بالخـيرات واليُسْر
وآمـال الغد المرموق بالاقبـال والبِشر
تبثُّ العلم في الآفـاق يغري غيهب الفـكر
وتَلتجم دافق الأمواه في المجرى الى البحر
فتروي غُلّة الوادي وتحيي شاسـع القفر
وتسمو بالبــلاد الى
ذُرى الاعزاز والفخر !

بغداد

مير بصري

قصة لبيرل بوك

آباء وامهات

ترجمة سليمان موسى

على حافة هذه الارض (1) اليابسة التي ترتفع عن مستوى مياه الفيضانات ، تلك المياه التي كانت تمتد مع امتداد البصر من اقصى الافق الى اقصاه الاخر — كنت ترى اكواما صغيرة من بقايا الحطام ، في كل كومة منها بضعة مقاعد خشبية ، وطاولة خشنة ، وخزانة صغيرة ، وقدر صغيرة من الحديد ترتكز على موقد من الاجر المجوف الذي سوده الدخان . ولكن القدور كانت باردة كالثلج ، باردة منذ اسابيع واسابيع . لم يكن هناك حطب لاشعال النار في المواقد ، اذ جرف الفيضان معه كل شيء .

لم تكن كل كومة من هذه الاكوام الا بقايا امتعة منزل ومزرعة ، اما ما تبقى نقد غمره الفيضان ، كما غمر المزروعاتالتي غرسها الفلاحون ولم يحصدوها. وكنتترى حول كل كومة من الحطام جماعة من الناس : رجلا وامراة واطفالا ، وربما كنت ترى معهم رجلا شيخا او امرأةعجوزا. على ان الطاعنين في السن كانوا قلائل . كانت كل جماعة تتألف ، على العموم ، من اب وام واطفالهما . ولم يكن يخفى ان هناك خصاما متأرثا بين كل اب وام من هؤلاء يحل محله احيانا صمت مخيف . فيم ذلك الخصام ؟

هذا مزارع شاب ورب عائلة ، يلقي نظرات حانقة جافية على زوجته الشابة . كان يظهر انهما تزوجا زواجا مبكرا ، لان اكبر ابنائهما الخمسة لم يتجاوز الثامنة ، كما ان الاب لم يتجاوز عامه السادس والعشرين بينما كانت الام اصغر منه سنا . ولقد كان الاب متين البنية اسمر اللون فيما سبق ، اما الان فهو على شيء من النحول والنحافة . ولم يكن يتميز كثيرا عن امثاله من رجال الريف، كان رجلا يحب ارضه ويشعر بكبرياء واعتزاز كلما سرح انظاره في حقوله التي شققها المحراث ، وفي عرمات القمح الاصفر ، وفي جميع ما كانت تنتجه حقوله من غلال . لم تكن كبرياؤه ناتجة الا عن شعوره بالرضى لرؤيته ثمار اتعابه وعن شعوره بمقدرته وكفاءته . اما وجهه فكان رصينا فيه شيء من القسوة الممتزجة بالطيبة رغم التجهم الذي يعلوه الان . اما عيناه فطافحتان بالصراحة والامانة رغم ما ينعكس عليهما من خيبة امل ويأس وقنوط .

وتختلس زوجته نظرة بعد نظرة اليه ثم تحولبصرها عنه بسرعة وارتباك . لقد كانت في صباها على شيء من الجمال الريفي ، ذات وجه مستدير وقدمين عاديتين لم تفسدهما المحابس.اما الان فقد ذبلت نضارة وجهها واصاب النحول جسمها القوي المشوق ، وها ان عينيها غارقتان في محجريهما ، وشعرها الاسود قد اتسخ ونفشته الريح لان اسنان المشط لم تهذبه منذ عدة ايام . وها ان شفتيها جافتان كالحتان بالرغم عن ان طرف لسانها لا ينفك يمر عليهما ليرطبهما .

وهي كثيرة المشاغل ، ترقب الاولاد مراقبة دقيقة لا تفتر ، منهم اثنان لا يفارقانها لحظة واحدة ، احدهما يرضع من ثديها الذي اصبح الان قطعة من العضل المنكمش المتغضن ، وهذا المخلوق الصغيرالمعروق لا يتخلى عن الثدي، فان قربه منه يعزيه بعض الشيء رغم خلوه من الحليب ، ومع هذا فهو لم يكن يفتر عن البكاء والانين في فترات متقطعة . اما الاخر فطفلة صغيرة لا تتجاوز العامين من العمر ، ذات جسم ناحل منكمش تتكيء دائما على ساعد امها فلا تبدر منها حركة من الحركات ولا يرتفع لها صوت. ولا يكثر الاولاد الثلاثة الاخرون من الحركة والتنقل ، فاذا زحف احدهم وابتعد قليلا او اقترب من حافة الماء ، فانامه لا تنفك تصرخ وتدعوه اليها ، دون ان يهدأ لها بال حتىتجد جميع ابنائها في متناول يديها .

اما هذه الليلة فهي اشد ما تكون تحفزا وقلقا دون ان يقر لها قرار ،فلا تكاد تغفو حتى تفيق مذعورة وتلقي نظرها على الاطفال النائمين . ولقد افاقت عدة مرات من اغفاءاتها القصار فكانت تبادر الى تلمس رؤوس الاطفال لمسات مذعورة عجلى ، اما يزالون كلهم هناك — الخمسة منهم ؟ اين الطفلة الاخرى ؟ بلى ، ها هي — كلهم هنا . واذا ما تحرك الاب قليلا نراها تصرخ فيه بحدة ضارية :

« ماذا تفعل — ما بالك ؟ »

وينفجر الاب احيانا بسلسلة من الشتائم المقذعة الحادة . وهي تعرف لماذا يشتمها ويصب عليها اللعنات . وهي لا تجيب على اقواله بكلمة ما . ان همها ينحصر في

(1) قصة صينية للكاتبة الاميركية بيرل بوك عن مجموعتها « الزوجة الاولى وقصص اخرى »

المحافظة على الاطفال قريبا منها فتعدهم مرة بعد اخرى في تلك الظلمة السائدة .

وعندما يطلع الصبح وينهضون من فراشهم ، نراهـا تحاول اثارة ضجة مفتعلةكي توحي باعداد الوفير من الطعام، فهي تأتي بشيء من ماء النهر البارد وتضعه في وعاء عندها ثم تخلط فيه قليلا من بقايا الطحين وتقول بلهجـة المرح والوثوق :

« الواقع ان عندنا من الطحين اكثر مما كنت اظن . يوجد عندنا ما يكفي لايام كثيرة . »

وعندما يجلسون حول قصعة الطعام ، نراهـا تعطي لزوجها اوفر حصة ممكنة ، وهي تسكت صراخ ابنيهـا الكبيرين بما يشبه الفزع او الرعب ، بينما تختلس النظرات الى رجلها مرة بعد اخرى وهو يحدق فيهم بعينين كئيبتين ساهمتين دون ان يتكلم بكلمة ما . اما حصتها هي فاقـل ما يمكن ان تكون بالرغم عن انها تحاول ان تجعل صوت مضغها عاليا . ونراها احيانا لا تاكل شيئا بالمرة اذ تدعي انها لا تشعر بالجوع او انها تحس بألم داخلي في احشائها . وهي تترقب اغتنام فرصة مؤاتية كان يدير الرجل اليهـا جانبه قليلا فتطعم حصتها للطفلين الصغيرين بسرعـة محمومة دون ان يشعر احد من الاخرين .

ولكن الخدعة لا تجوز دائما على الرجل . فاذا مـا راى بعينه كيف تحرم نفسها صاح غاضبا يقول : « انني لا اسمح لك ان تميتي نفسك جوعا حتى لو كنت تتيحـين بذلك الحياة لاحد هؤلاء الاطفال »

ولا تهدأ سورة غضبه الا عندما يراها تمسكبالصحن وتلصق حافته بشفتيها ، وحتى في حالة كتلك كانت تتباطا كثيرا في مضغ اللقيمات كي يفهم ان حصتها موفورة كافية.

ولكن بالرغم من حسن تدبيرها فان الرجل كـان يعلم جيدا انه لم يبق عندهم الا القليل من الدقيق ، وكان يلاحظ الحاح اولاده في طلب الطعام ، ولم يكونوا دائمـا يخضعون لتحذير امهم ، فينفجر الولدان بالعويل احيانا ، لقد كانوا فيما مضى ممتلئي الاجسام متوردي الوجـوه ، كانوا قبلا يجدون كفايتهم من الطعام . وهم لا يستطيعون الان ان يفهموا كيف جاءت مياه الفيضان وغمرت الارض كلها . . يجب على ابيهم ان يبحث عن وسيلة من الوسائل : عن مخرج من هذا المازق .

ويمضي الرجل الى حافة الماء ويجلس هناك ، ثـم يحاول ان يضع راحتي يديه فوق اذنيه كيلا يسمع عويل ابنائه . في تلك الحالات يتجسـم الرعب على وجـه الام فتتوسل الى ابنائها وتقول لهم هامسة : لا تدفعوا اباكم الى فقدان الامل والرجاء . اهداوا . اهداوا .

ويتطلعون الى وجهها المذعور فيدب الرعب فيقلوبهم ويلوذون بالصمت ، كانما يحسون بخطر ما دون ان يدركوا ماهية ذلك الخطر .

وهكذا يستمر ذلك الخصام الصامت المخيف بين الاب والام ، والطحين في السلة يتناقص يوما بعد يوم . ومياه الفيضان العارمة لا تغيض ولا تتناقص . وفي كل ليلة تعد الام اولادها في ظلمة الليل .

ولكنها لا تستطيع ان تقاوم الكرى الى ما لا نهايـة. وتأتي ليلة يخضع فيها جسدها الجائع المنهوك لسلطان الكرى القاهر ، فتستغرق في اغفاءة عميقة دون ان تعلم . تنـام وذراعاها ممتدان فوق الاولاد . ولكنها لا تحس حركة الاب ولا تسمع حديثه الهامس للفتاتين الصغيرتين الصامتتين ، وتتبعانه وكلهما ثقة واطمئنان الى مسافة قصيرة . . . وبعد برهة يعود وهو يتعثر في خطاه . يعود وحيدا . ويرتمي على فراشه في الظلمة الحالكة . وتتصاعد منه بضـع تنهدات عميقة ، تنهدات تخرج من صدره كالحشرجـات الملتهبة الدامية .

ومع الفجر الاغبر تستفيق الام فجاة ، تستفيق وقد استولى الرعب عليها ، اذ تدرك قبل ان يتكامل وعيهـا انها استغرقت في النوم اكثر مما يجب . وتتلمس بيدين مرتعشتين رؤوس اولادها — اين الاثنين الآخرين ؟ وتفلت منها صرخة مذعورة حانقة ، ثم تقفز واقفة على قدميها وقد دبت الحياة في جسمها على حين غرة . وتندفع الى زوجها وتمسك بتلابيبه وتصيح في وجهه : اين الطفلين ؟

اما هو فيجلس القرفصاء على الارض وراسه المثقل بالاحزان منحن بين ركبتيه . انه لا يحير جوابا على سؤالها . وتكاد الام تفقد وعيها وشعورها ، انها تبكي بحرقـة وحرارة ، وتهز كتفي رجلها وهي تصرخ فيه : انني امهما — انني امهما .

ويستيقظ سكان ذلك المخيم التاعس على عويلهـا المتصاعد . ولكن صوتا ما لا ينطلق من فم احدهم . لانهم جميعا يعرفون سبب العويل والخصام . لقد تكررت المأساة ذاتها مع اناس اخرين وفي كل مكان . وتنطلق من فم الام الثاكلة تأوهات وزفرات محرقة حارة . ومع تأوهاتها تقول: اتستطيع ام من الامهات ان تفعل شيئا شنيعا كهذا — آه من هؤلاء الاباء الذين لا يحبون اطفالهم ، الاباء الذين ينفصون على فلذات اكبادهم لقمة العيش .

عندئذ فقط يتكلم الرجل المكتئب ، فيرفع رأسه من فوق ركبتيه ، ويتطلع بعينيه الى المراة المنتصبة امامه في الفجر المغبر ثم يقول لها بصوت متهدج :

« اتظنين انني لم اكن احبهما ؟ »

ويتوجه ببصره الى الافق البعيد ، وبعد هنيهة يقول متابعا « لقد انتهى عذابهما »

وفجاة تنهل دموعه بهدوء وسكون . ولا تتمـالك زوجته الا ان تلوذ بالصمت عندما ترى كيف عصرت وجهـه الآلام .

الاردن — المفرق　　　　سليمـان موسى

ترنيمة الشلال

الى اخي صلاح الدين نوح

✳

زغرد النـــايُ هائمـاً بالاغـاني وتغنّى بذكريات الامـــاني
ها هنـا أنت والسُرى العفُ الفانِ غريبانِ عن خطايا الزمـان
َعبرَ دنيا الغواة فاترعْ حواشي الكأس خمراً، ودعْ عواء الهوان!
في هدير الشلال يقتات رؤيا الهول نجوى ، مجنونـةَ الارنان
في مطاوي الاحراش والغابة الشجراء والسفح والمدى العريان
عبر سهل الجبال صرعى صموت الدهر ، غرثى لدى السكون المهان
أنا ما زلت هائماً ، تائهَ الاحساس أغفو مع الخيال الحـاني !!
أنا ملكُ العواطفِ البِكر أحسوهالدى الظل صبوةً من أغان
لارتعاش الظـلام في وحشة الـكهف وأشباح رقصة الافعوان
ها هنـا أنت كالنسيم المندّى تتهادى عـلى ذرى الافنان
كالشـذا الطلق من عبير الرياحـين ، وفوّاح زهرة الاقحـوان
ليتني ، ليتني هنا في شعـاب المرج ايّان تشتهي ألحـــاني
أعزف النغمَ في احتضان السفوح الخضر كالهمس كالصدى الوسنان
ليت هـذا الظلامَ في مهبط الالهام عرّى هواجس الايمـــان
في ظلال الينبوع والسنديان الرخو ، مـا بين خفقة الوجدان !!

* * *

ثم مـدت أصابعُ الشمس نوراً عبقريـاً من سحرهـا المفتان
شفقٌ يخضب المـدى الحرّ بالنـار ويهتاج بالدم الارجواني
كحّـل الفجرُ عينه بسناهـا وترامى على رُبى الوديــــان
يحمل البُشرَ للازاهـير طفلا أريحيّـاً ينساب في تحنـان
الجنى العفُ والخيالاتُ باقـاتٌ من الفن عطّرت أكـواني
فاغربي عن دنى الرؤى يا صلاة الاثم ، يا بئس شهوة الـكفران
أنا طيفُ السكون، عزّافُ لحن الصمت والسرُّ في المدى النشوان

بغـــداد **علي الحـلي**

شعراء خالدون : ألجيرنون سونبرن

بقلم هنري ودانا توماس

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

اصيب الجيرنون تشارلس سونبرن [١٨٣٧ـ ١٩٠٩] بالحصبة وهو لما يزل تلميذا صغيرا في ايتون ، فاستدعيت والدته للعناية به . ومنذ وصولها اخذت تقرأ له شكسبير كل يوم. فارقته ذات مرة لتناول الشاي مع اسرة صاحب المنزل . الحف الجيرنون على الوصيفة، التي جلبتها امه معها، الحف عليها الاستمرار في القراءة ، بينا كان هو يشرب الشاي . وفجأة انزل اناء من المربى على رأس الوصيفة ، وبعد ان اردفه بقوله صارخا « هــذا من اجل تفسيرك البشع لشكسبير ! » ثم حدث هرج ومرج وسلسلة متعاقبة من الصراخ الحاد ، وعندئذ اندفعت السيدة سونبرن والمعلم وزوجته الى غرفة الجيرنون . فماذا راوا ؟ رأوا شعـلة وهاجة من شعره الاحمر متدلية على وجهه ، تلمع بينهما عينان خضراوان بصاصتان خلال ضفائره المنفوشة . انه يرقص على سريره ، وذراعاه النحيفتان تتارجحان في الهواء ، على حين ينبثق سيل جارف من الاشعار من فمه الشاحب . فقال المدرس المرعوب « مسكين هذا الطفل ، ان النوبة العصبية افقدته مشاعره » فضحكت السيدة سونبرن وقالت « اواه ، كلا فهذه هي الطريقـة التـي يستخدمها دائما في قراءة هاملت . »

* * *

ورث طبيعته العاطفية من جده ، السرجون سونبرن، وحساسيته الارستقراطية من امه التي كانت ابنة النبيـل الثالث لاشبرنهام . اما نبوغه الشعري فقد انحدر اليه مـن الالهة ، هدية منها له . اذ لم يكن ابوه ولا والدته على شيء يذكر من تذوق الشعر . وهذه الحالة تنطبق على اخوته واخواته جميعا . ولما كان اكبر اطفال الاميرال تشـارلس هنري سونبرن ، فقد اريد له ان يتخذ مسلك البحرية ، كما امل والده ، لان هذا المسلك يلائم تقاليد الاسرة . ولكن والديه نبذا هـذه الفكرة عاجلا . لان راسه كان الجزء الوحيد من جسمه الذي نما نموا طبيعيا . والحق ان راسه اخذ شكلا شاذا في سرعة تطوره وكبر حجمه ، على حين ظل جسمه يتراوح في نطاق الاقزام ، الى حد انه بـدا كانه يقطينة متوازنة على فجل ملتو ، لما التحق بايتون . اما قريبه ، اللورد ليدزديل ، الذي كان تلميذا في صف متقدم، في ايتون ، حين وصل الجيرنون هناك ، هذا القريب عبر عن خشيته من انزلاق راس التلميذ الصغير من جسمـه وسقوطه على الارض في كل لحظة .

ومع انه كان في سنته الاولى في ايتون ، فقد كانت قبعته اكبر القبعات في المدرسة . ومما زاد في مغالاة حجم راسه « هو شعره الاحمر الكث المنتفض كانه يشكل زاويا قائمة .. شعر احمر قاس عنيف فيحمرته يشبه نحاسا مصقولا . » حدثنا احد اترابه في ايتون ، انه في ذات يوم اشتد فيه الضباب ، وكان صفهم يرقى اليه بسلم ، وفجأة ظهر راس سونبرن ، كانه طلع عليهم من الارض ـ فقاطع المعلم الدرس واشار الى راس سونبرن هاتفا : « اواه ، ها قد بزغت الشمس اخيرا ! »

وفي ايتون درس سونبرن قليلا وقرا كثيرا . وهنا ، كان دائما يداوم في المكتبة « ويجثم في احدى نوافذهـا ، محتضنا مجلدا ضخما يكاد يوازي حجمه ، حتى تلهـب شمس العصر شعره الاحمر . » كان سعيـدا كلما ترك وحيدا ، ولكن احد الطلاب اذا ما كايده ، او امره المدرس بنبذ قراءته الحرة ، من اجل درس منهجي فعندئذ يكون الشيطان مستعدا لدفع ما في ذمته . فهو لم يستطع احتمال التدخل في منهجه الذي وضعه لنفسه . ولما اصر الاساتذة على التدخل في شؤونه ، لكي ينجز متطلبات دراسته ، ترك المدرسة في ١٨٥٣ وعاد الى احضان اسرته ، وهو ابن ستة عشر عاما .

وفي البيت امتنع والداه من مشاكسته بكل حكمة . لانهما كانا يعرفان النتائج المترتبةعلى ذلك . ومنذ طفولتـه كان يلوي ذراعيه ويديه بسرعة ، كلما استثاره أمر مــن الامور . واذا حدث وصادف جلوسه في اثناء اثارته ، فان رجليه كانتا تشاركان يديه في الحركة . افزعت هــذه الحالة والدته فاخذته الى طبيب مختص ، فنصحها الطبيب بما تفعل لان ابنها « يتالم من حيوية كهربائية طافحة ، وخير وسيلة لشفائه هي تركه حرا وحيدا . لم يتمكن سونبرن

من التغلب على هذه الظواهر الدالة «على حيويته الشديدة». وكلما تقرب الى عهد الرجولة وجد تنفيسا لهذه الحيوية في تسلق الجبال والسباحة ، من غير الالتفات الى أي ضرب من ضروب الرياضة المعروفة . فهو مثلا لم يشتر مضربا ولم يحضر الالعاب المدرسية قط . ومع هذا « كان يتسلق الجبال ويسبح دائما . »

ومن الغرابة بمكان ان شاعرا بمثل هذا الجسم القصم السهل الانكسار ، لم يعرف معنى للخوف . وبعد انفصاله عن ايتون بمدة وجيزة صمم على تسلق نتوء (كلفر) الخطر في جزيرة وايت ، حيث كان آل سونبرن يصطافون في بيتهم الصيفي . والسبب الوحيد الذي تذرع به « لعمله غير المحتمل » هو ان هذا النتوء لم يتسلقه احد من قبل . وبهذا الصدد كتب الى احد اصدقائه قائلا « ارادت والدتي ان تعلم لماذا قمت بهذا العمل ، ولما اخبرتها ، ضحكت ضحكة قصيرة عذبة سرتني كثيرا ، وقالت يا بني ، لم يحسبك احد جبانا ؛ ذلك هذا حسن جدا ، ولكن من اين لي معرفة ذلك قبل التجربة ؟ فقالت (ولكنك لن تجرب مرة اخرى ؟) فقلت (طبعا لا – والا اين النكتة ؟) والان عرفت بامكان ذلك ، وحسبي انني رغبت فيما قمت به ، لان غيري لم يفكر فيه . »

اما ولوعه المبكر في السباحة ، فلنا على ذلك شاهد في احدى رسائله ، حيث يقول : « ان ملح البحر لا بد ان يكون في دمي قبل ولادتي . ولا اتذكر شيئا اثار امتاعي مثل ما صنعه بي والدي ذات يوم اذ رفعني بين ذراعيه وانا عار ، ثم قذفني الى الموجة المقبلة ، وانا اضحك مرحا وانشراحا ... صحيح انني خشيت من بعض الاشياء ، غير اني لم اخش البحر قط . » واذن يمكننا ان نعزو تكوين الشاعر الشاب الى هذه العناصر – راس ضخم جميل محاط بهالة من اللهيب ، وجسم صغير نحيف دقيق ، استعاض عن ضعفه بجرائته وشدة تحديه ، وشغف عنيف لقراءة المؤلفات العظيمة التي صدرت في الماضي ، وقوة كهربائية مندفعة جعلته ضاريا في كل لحظة من حياته ، ومتشوقا ثائرا حبا بالاستقلال – وهذا ماجعل فكتور هوغو، رسول الحرية الفرنسية ، ان يكون موساه ، وسقراطه . وبالاضافة الى كل هذه الخصائص كانت موهبته الساحرة ، موهبة الروح المفردة – ذلك السر الذي لا يدرك ، كأنه سر الكواكب السيارة .

* * *

ولثلاث سنين داعب سونبرن فكرة الانخراط في الخيالة . ذلك بانه اراد ان يكون شاعر الافعال المجيدة بدلا من ان يكون شاعر الكلمات الرشيدة . ومثار ذلك رؤيته لفرقة بالاكلافا في اوكتوبر ١٨٥٤ فاصبح هذا الهدف « حلمي الوحيد في الحياة » كما قال – فهو يرغب ان يراس مثل هذه الحملة . واذا ما استشهدنا بالسير ادموند غروس ،

« راى نفسه ممتطيا جوادا اسود مثل الليل ، لتحطيم سادة الارض . » ولكن والده عارض مثل هذا الطموح اشد المعارضة ، ومما قاله « ستمثل شخصا رائعا على صهوة الجواد بجسمك الهزيل ! » وعلى هذا لم يبق له من شيء غير العودة الى كتبه . وفي شتاء ١٨٥٦ نجح في اجتياز امتحان القبول في اوكسفورد – فوجد تقاليد الكلية غير مستساغة كقيود مدرسة التجهيز . ومرد ذلك انه لم يكن لائقا لمقاييس الوجود الطبيعي . وهذا ما جعله ينفر من الالعاب ، والظهور في حفلات الشراب التي كان يحييها زملاؤه التلاميذ . ومما اشيع ان « البط الغريب » كان يجلس في غرفته « وينظم الشعر في خمس لفات . » وحين كان يخرج للتمرين ، فعزلته لم تكن تجسر على مفارقته . اما مشيته فقد لازمت اسلوبا غريبا . انها كانت اقرب الى الرقص من السير الاعتيادي . فاشار الى ذلك احد اترابه قائلا : « انه يرقص مثل المغزل رقصته الابدية . »

اما اساتذة اوكسفورد فقد تاثروا قليلا بشخصيته ، واقل من ذلك بشعره . ففي سنته الاولى تبارى مع غيره على جائزة (نيوديكيت) بقصيدته North-west Passage اجتاز المحكمون منظومته بسرعة ، وقدموا الجائزة الى فرانسيس لو لآثام ، وهو شاب في قدرته الشاعرية « ان يرتفع مثل الصاروخ ويهبط مثل العصا . » اذ قلما فهم الشعراء والاساتذة بعضهم بعضا . ومن هنا ، كان المقت المتبادل بين سونبرن ومعلميه . فلم يشغله شيء مثل سخريته بالحياة الاكاديمية في اوكسفورد ، وهذا ما جعله يقول : « لا يموت خريج اوكسفورد ابدا ، وكيف يموت وهو لم يعرف معنى للحياة قط ؛ انما هو ينقطع عن الوجود حسب . » اما سونبرن نفسه فلم يتم منهج دراسته في اوكسفورد ، لانه ترك الجامعة قبل التخرج كما فعل في ايتون . وللمرة الثانية اصيب الشاعر الشاب الثابت الجاش بالعار ، فاضطر الى الخضوع لرغبة والده والذهاب الى دار القس العالم وليم ستبس في ابرشيته الريفية في دينفستوك ، ليتتلمذ هناك على يد القس .

وصل سونبرن المكان المنشود في ليلة السبت من ليالي منتصف الصيف . وفي صبيحة تلك الليلة ، قدم له فطوره في غرفته ، بعد ان ترك له مضيفه كلمة جاء فيها : « لما كان المستر سونبرن تعبا من السفر ، فلا ينبغي له حضور خدمة القداس في الكنيسة . » انهى سونبرن فطوره ، وقام من فراشه ، ورفع استار النوافذ . كان النهار رائعا جميلا من غير ان تنطلق فكرة سيئة لتستنشق انفاسا قليلة من ذلك الهواء الريفي . » ارتدى جبة قرمزية ونعلين حمراوين – ذلك بانه احب الالوان الزاهية – ثم سار الى الحديقة بشعره الاحمر الضخم غير المشط .

استدعى جرس (الكنيسة) سكان القرية الى الصلاة، وكان سبيل الوصول من القرية الى المعبد يتطلب مرور

سائر المؤمنين امام بوابة الدار التي يقطنها القس . فبـدا سونبرن – في مشينه بالقرب من الباب–كأنه شعلة قرمزية من سمت راسه الى اصابع قدميه . ومع هـذا ، تلهف لمشاهدة منظر القرويين في غدوهم ورواحهم ، في حين لـم يخطر بباله انه هو نفسه كان موضـع الفضول وحـب الاستطلاع ، بل شبحا مخيفا . اذ هنا جاء الشيطان الملتهب ليمنع المؤمنين من اداء فريضة الاحد ، تقدموا واحدا واحدا الى دار الابرشية يحيطهم الرعب والهلع ثم وقفوا فـي صفوف متحجرة . حدقوا سونبرن في المصلين ، كمـا حدقوا فيه – وظلت الكنيسة خالية الوفاض من عبادها . اما القس المحترم مستر ستبس ، فقد دهش من غيـاب الرعية ، وهذا ما حدا به ان يأمر الشماس لدق الناقوس من جديد . ومع هذا ظلت الكنيسة فارغة ! وفي الختـام انطلق احد الاشخاص لشجعان متجـاوزا الشيطان الى الكنيسة ، بعد ان اخذ حياته بيديه ،و اغلق عينيه باحكام . اما بقية الجماعة ، فقد تنفسوا الصعداء ، وتبعوا صديقهم، لما راوه لم يحرق حيا من جراء وقاحته وصلافته .

رجع سونبرن الى غرفته وهو يقول « ما اعجب طريقة فلاح نيفستول الفظ حين يؤدي صلاة الاحد ! » فضحـك مستر ستبس لما سمع بالحادثة وقال : « ما اغرب مسلك تلميذي الشاب في صبيحة يوم الاحــد ! » ثم ان مستر ستبس ، بعد ايام قلائل ، اشار الى سيرته الغريبة دائـم الاوقات . وفي ذات مساء سأل القس وزوجته سونبرن عما اذا كان ينظم الشعر حقا . فاجاب سونبرن « نعم ، لقد كتبت شطرا او شطرين في وقتي الفاضي » فالحت عليه السيدة ستبس قائلة : « الا تتفضل بقراءة بعضها . »

ارتقى سونبرن السلم الى غرفته ، وعاد بزمرة من المسودات – وكانت هذه مأساة تاريخية – ثم بدأ قراءتهـا اول المساء ، ولم يتمها الا بعد منتصف الليل . وبعدها رفع راسه من المسودة ونظر الى المضيف قائلا : « هل احببتها ؟ » اجاب مضيفه : « نعم ، على وجه العموم ، الا اني لكي أكون صريحا معك ، يا مستر سونبرن ، ارى ان تحذف بعـض المقاطع الغرامية . فهي – ماذا أقول ؟ – تثير الشيء الكثير من التودد بالنسبة الى شاعر شاب غير متزوج . »

توقع القس ردا محتشما من تلميذه . ولـكن مـا حصله ، بالفعل ، كان حملقة صامتة ، انتهت بصرخة غريبة فقال الراعي المحترم « مستر سونبرن ، ماذا ، لماذا !؟ » وفي هذه الاثناء اختطف سونبرن المسودة وانطلق من الغرفـة بسرعة . لم يحل الكرى تلك الليلة في الدار . ففي كـل لحظة حدثت اصوات عجيبة في غرفة الشاعر . خشي القس على سلامة سونبرن ، فشرع يطرق بابه من حـين الى حين ، وعبثا ما فعل اذ ان الباب اوصد من الداخل . ثم كان صباح اليوم الثاني ، وفيه خرج سونبرن من الغرفة ، بعد ان تأخر عن موعده المعتاد كثيرا . كانت عيناه محمرتين ملتهبتين . وحالما رآه المستر ستبس جابهه بقوله « مستر سونبرن ، انا آسف لما بدر مني البارحة مساء . » فاجابه الشاعر : « اواه ، حسنا فكل شيء على ما ينبغي . » فقال القس « آمل الا اكون قد ثبطت عزيمتك بخصوص تلـك المأساة . » وعندئذ قال سونبرن « كلا ، ولكني مع هـذا ، اشعلت النار بكل صفحة من المسودة . » وهنا صرخ القسيس متفجعا « آه ، يا الهي ! » ولم يكد الرجل ينهي كلامه حتى قال الشاعر : « ومع هذا ، فلم يحدث اذى . ذلـك باني اعدت كتابة القصيدة كلمة كلمة من الذاكرة . »

* * *

خاب ظن الاميرال تشارلس والليدي جين سونبرن ، في ابنهما فاخذاه في سفرة الى القارة ، آملين من ذلك ان يتعرف على عالم واسع ، قد يغير نهج فكره ، فيجعله دنيويا أكثر . وفي عصر يوم من الايـام بباريس ، كان سونبرن ووالده راكبين عربة مفتوحة في شارع « اليسيه » . اجتاز الجميع موكب نابليون الثالث ، ذلك الحاكم الذي مقتـه الشاعر الشاب اشد المقت . وقف الاميرال والسيدة زوجته تحية للامبراطور . ولكن الجيرنون بقي جالسا من غـير ان يحرك قبعته . ولما سئل بعدئذ عن سوء مسلكه هذا ، اجاب « لو كنت رفعت قبعتي لنابليون الصغير ، لكنت مجبرا على قطع يدي حتى الرسغ . كلا ، شكرا لكما ، فانا بحاجة ليدي من اجل كتابة الشعر . »

ثم انه كان يحيط نفسه « بصور المحاربين والمحررين والثائرين » في العالم . وخير دليل على روحه صداقتـه

المتينة مع وليم موريس ، ودانتي غابريل روزيتي ، وعلاقته الوثيقة بروزيتي قدر لها ان تفعم حياته « بالرأفة الحميمة والسخاء الغزير . » بالاضافة الى انها وضعته وجها لوجه امام اعظم مأساة في تجربته الشخصية . فروزيتي ، الشاعر الرسام اللامع ، ذو الذهنية الانكليزية والقلب الايطالي ؛ روزيتي هذا ، قد كان تزوج امرأة شابة ، تشبه سونبرن كأنها شقيقته ، في حماستها المتهورة ، وفي سخافاتها القلقة .

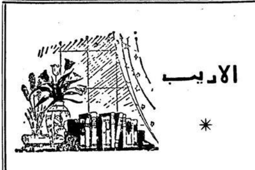
غدا الشبان البوهيميون الثلاثة وحدة لا انفصام لها . نظر روزيتي الى الصلات الودية اللطيفة بين سونبرن وزوجته الفتاة نظرة اخ كبير ، فيها كثير من التسامح والمودة . ولما انتشرت الضجة على لعبهما باعد بينهما برقة كأنهما قطان مرحان . هكذا كانت علاقتهم حين تناولوا جميعا عشاءهم في احدى ليالي فبراير سنة ١٨٦٢ ، في فندق (سابلونير) على مقربة من ساحة (ليسستر) . وبعد انتهاء حفلة العشاء رافق روزيتي زوجته الى البيت ، ثم خرج وحيدا . وعندما عاد بعد ساعات قلائل ، وجدها ميتة ، اذ انها تجرعت كمية كبيرة من نقيع السم . غير ان سبب وفاتها ظل سرا . فبرأ روزيتي ساحة سونبرن من كل ملامة . والحق ، غدا روزيتي الان اكثر صلة من قبل « بصديقة النور تمبري » كما كان يحب تلقيبه . ولكن الخطب بالنسبة الى سونبرن ، لم يقل في خطورته عما كان يعنيه بالنسبة الى روزيتي .

فمأساة الزوجة الشابة كانت تجربة مريرة . ذلك بان شخصيته تكاملت في الختام . ومما اضاف الى تكاملها تجربة ثانية حدثت في حوالي هذا الوقت ، ومؤدى ذلك انه لقي فتاة « رشيقة خفيفة الظل » فوقع في حبالتها ، ظنا منه انها بادلته حبا بحب . قدمت اليه باقات من الزهر ، وعزفت له ، وتبسمت في وجهه ، وداهنته ؛ فما كان منه « الا ان وضع قلبه وآماله تحت قدميها . » وما ان تقدم منها طالبا يدها ، حتى جابهته بضحكة ، تماما كما فعلت الليدي مونتاغو بالنسبة الى الكسندر بوب في مناسبة مماثلة . عاد الى شعره والى البحر ــ حبيبه الاول المخلص ، بعد ما ابتلي به من هون وذلة ، ومن غضب حين رأى حبيبته « تدوس حبه ، فتنثره موتا وغبارا . » وقد أحيا ذكرى علاقته السرية بالبحر ، بقصيدته الرائعة ــ (انتصار الزمن) . وفي مطلعها ينتزع من قلبه الحب الذي قدمه للغير ، ذلك الحب الذي غدا موطئا للاقدام .

« هل لنا ان نفكر في اشياء فات اوانها ، فننسف دمعة ، ونقضي ساعة سعيا وراء الحسك الجاف ، والزهرة الفانية ؟ مضى الحلم هباء ، وانقضى ما كان منا سدى . »

ثم يعود الى الحب الجديد القديم ــ فيرمي نفسه بين حضانه جذلان فرحا :

« انني سارجع الى الام العظيمة العذبة ، ام البشر



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر

يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيه ونصف او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيها او ٦٠ دولارا كحد اعلى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تليفون : الادارة ٢٣٨١٩ Direc : 23819 — المنزل ٢٥١٣٩ Dle. : 25139 Tél.

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير اديب**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ــ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ــ لبنان

وحبيبتهم ، انني سأعود الى مياه البحر اني سأذهب اليها ، وليس لغيرها ، سألتصق بها ، ممتزجا بكيانها متجانسا معها، لنسعى معا ، في تكاتف ووفاق . هي أم جميلة ، ناصعة البياض ، في ايامها النائية الطويلة ولدت وحيدة بغير اخت ولا اخ ، ليكونا بجوارها . هي حرة روحـــا ، فهل لها ان تحرر روحي ! »

* * *

كرس حياته باسرها لشعره « بما وهب من روح‌عذراء فسلتها امواج البحر ، فاطلقتها من اسارها » نشر ديوانـه الاول (الملكة الام) فلم يبع منه نسخة واحدة . ثم لاقـى مصادفة كتابا لولت وتمان كان نصيبه الخيبة مثل كتابه . فوجد في وتمان روحـــا اليفة له ، تتحـدث عن شعر الديموقراطية ، في فظاظتها وثورتها . مما حمله عـــلى الكتابة الى احد اصدقائه قائلا : « هـل رأيت ... ديوان ولت ويتمان (اوراق العشب) ؟ والواقع اني اظن بـان هذه الاشعار هي اجمل والطف واروع ما قرأته من‌سنوات وسنوات . »

كان يحب اثارة الناس ، شأنه شأن ولتمان . ففـي مساء يوم من ايام الاحد ، حضر حفلة عشاء ضمت فيمـن ضمت علية القوم من اضراب تاكيري واللورد هوتون ورئيس اساقفة يورك ، فسئل ان ينشد شيئا من شعره . فمـــا كان منه الا ان انتقى قصيدته (العراة) بكل وقاحة وصلافة، مع كونها غير لائقة باسماع الاسقف الجليل ابدا . اخـذت السيدات يحملقن بعصبية ، وشرع رجـل الدين يحـدق بنظرة ملؤها الهول ، وبدأ تاكيري يدغدغ اضـلاع اللورد هوتون ؛ ولما لحظ سونبرن الاضطراب ، جعل يرفع صوته اعلى فاعلى في شيء كثير من التحدي والمكايدة . كـــان الانفجار المرعب على وشك الوقوع ، حين فتح السـاقي الباب « مثل ملاك من السماء » واعلن قائلا : « سيدي ، وجبـت الصلاة ! »

* * *

ثار سونبرن على التقاليد البالية القديمة ، بما فيهـا من صلوات ورهبان وقسس وفي ماساته اليونانية (اتلانتا) وهي اول قصيدة اظهرت بجلاء « ذكاءه المتفوق ، وجسارته الشيطانية » انكر وجود الآلهة القديمة ، في اسلوب مقذع، وموسيقى رائعة سامية :

« ان الآلهة تصوغ الجنون ممتزجا مع الحزن ، على هذه الارض فهي لا تعرف معنى للرحمة الحكيمة ، ولا مغزى للرافة والشفقة »

اما الامر ، بالنسبة الى قائد الآلهة ووالدها :

« فهو رب الحب ، والمقت والصراع ، الذي يهب نجما وياخذ شمسا ويبدع الروح في زوج عقيم ، لتحل في هيكل ارضي ، قوامه فخار نموه اليم . ذاك هو الـذي يخلـق الشوق ، ليذبحه بسيف العار ، ويهز السماء بـين يديـه كأنها نثار رماد وهو يرى النور والظل معا ، ويأمر الضياء لقتل الظلام ، كما تبتلع النار جمرة من الجمرات انه يضرب بغير سيف ولا عصا ، لانه الشرير الاعظم . »

وبين اتعس مخلوقات هذا الاله القديم ، يبرزالانسان بوضوح ــ فهو مزيج من النار والرمل والدموع المنهمرة ، خلق من اجل نهار وليل وغد ، ملؤها جميعا النصب والحزن الثقيل . هو :

« ... ينسج القماش ليلبس رداء من العار ،ويزرع كيلا يحصد »

« حياته ترقب او رؤيا ، بين رقاد ورقاد . »

صحيح ان سونبرن ثائر ، ولكنه ليس ملحدا ، فالالهة الشريرة التي يناجزها العداء ليست سوى مظاهر الطبيعة المدمرة . ذلك بان الالهة التي يحار بها ما هن غير مفاهيـم خرافية ابتدعها ذهن بدائي . فجاءت صورها على وفـق صورة الانسان في مرحلة وحشيته . رفض سونبـرن الايمان بمثل هذه الآلهة وبالحياة التي تستتبع عبادتهـا . ولكنه لم يتبرأ من الله ولم يرفض الحياة . والواقع انـه اعلن قبوله البهيج للخلق واستجابته العاطفية من اجل شرب كاس الحياة حتى الثمالة .

فالحياة جميلة لانها قصيرة ؛ انها وميض ضـــوء الشمس الذهبي ، حين يلف بسنائه منظرا بديعا بين ليلتين من ليالي الشتاء . وكيف نعرف قيمة الضياء اذا لم ندرك رعب الظلام ؟ وكيف نفهم سمو حبنا ان لم يخطر على بالنا هاجس فقده ؟ وكيف نتعلم موسيقى الرحمة ، من غيـر الوقوع في ارتباك الالم ؟ ذلك بان الجسم الانساني متعلق بجمال الكمال ، فيسعى لبلوغ ذلك عن طريق المرارة‌والتعب، وهذا ما ينطبق على القلب ايضا ، فلا تقاس رقته الابالحزن، ومن هنا كان هذا العالم اجمل العوالم واحسنها . فدعنـا نحتسي من جمال الحياة ، ونسبـح في ضوء شمسها ، ونتحدى اخطارها ، ونحارب الاضطهـــاد ، ونقاوم امواج الخير والشر بقلوب رابطة الجاش . « فكن انسانا بقوتك » .

وهذا كان مذهب سونبرن في الشعر ومنهجه الفلسفي في حياته . ذلك بانه حول حياته الى ربيع من الاغاني . فكان نيسان يجري في دمه . ومع بنيته الضعيفة التي انتابهـا الصرع ــ في هجماته الشديدة المتكررة ــ انغمر (الشاعر) في ضجيج لندن ، فترجم جيشان تجربته الى موسيقـى شعره . ومن حين الى آخر اغراه اصدقاؤه بالاخلاد الـى الهدوء في الريف خوفا على صحته . وهناك كان ينقطع الى هواياته المحببة :

« وفي كلفه بالبحر ، تأذى‌من‌ضربات امواجه، فضحك كثيرا وتوهجت وجنتاه فغدا كأنه نار متأججة ، كما يفعل الشراب بصاحبه . »

وفي ذات مرة كاد شغفه بالسباحة يكلفه حياتـه . وسبب ذلك مغالاته بقوة ذراعيه وساقيه ، فاباح للامـواج ان تحمله بعيدا في البحر . وهناك بدأت هـــذه الامواج

تتقاذفه «كأنه فلينة ضعيفة» ثم ما عتم احتماله حتى اوشك على النهاية ، ولكن حسن طالعه انقذه ، اذ بصرت به سفينة عابرة .

وبعد حين حدث اصدقاءه قائلا : « كنت اطفو نحو موتي ، مفكرا بكل رضا بان اشعاري الجمهورية واغاني قبل الشروق ، كانت معدة للطبع . » وقد هوجم هذا الديوان « لما فيه من متناقضات متعصبة . » ولكن سونبرن لم يكن يخشى الهجمات ، وانما بالعكس سر بها كل السرور . لانها افرحته بما اثارته من فجيعة بين الجمهور القارىء ، من جراء قنابل اشعاره الملحدة ، التي انهمرت على السياسة والدين والحب .

اشار احد النقاد الى شعره بانه كان اهلا لبعث التوهج في وجنتي السيدة غرندي ، فرد عليه سونبرن بقوله : « وكذلك الحلم في قلبها . » وقد تنازع مع نقاده دائما ، فقال بهذا الصدد « اني اتحدى الاعصاص ! » تشكى والد سونبرن مرة فقال بان الله وهب ابنه العبقرية ولكنه لم « يتلطف بانعام ضبط النفس عليه . » اضمر سونبرن الشك تجاه الانسانية جمعاء . فكان على اهبة الاستعداد لخوض المعارك من جراء ايسر الاستفزازات . ومن ذلك مثلا رفضه لرؤية اي كان مدى ايام .

اصبحت شخصيته مجموعة اعصاب متهيجة ، يستفزها ايسر الموسيقى الطبيعية ، ويؤلها ابسط الخروج على آرائها . ثم اشتد شذوذه اكثر فاكثر ، حتى كان يسير خلال شوارع لندن ، مستعيدا الاشعار باعلى صوته . وذات مرة امضى ليلة في دار اسرة رفيعة الجاه . ملأت ربة البيت غرفة منامه بالزنابق اليابانية ، اكراما له . الا انه ايقظ افراد الاسرة بصراخه الجنوني ، في منتصف الليل . فكان في الوسع سماعه وهو يهدر « لقد سمموني ! سمموني بالعطر ! » وفي الختام وضعه صديقه الحميم ، المحامي تيودور واتز دنتون ، وضعه تحت رعايته ، فنقل مقر سكناه من ضوضاء لندن الى هدوء (بتني) وهناك عني به اشد العناية ، تماما كما يفعل بستاني حنون بزهرة برية وحشية . ظل سونبرن مع واتز دنتون ثلاثين عاما ، كانت ارق اعوام حياته واكثرها بشاشة ولطفا ، الى حد انه قال :

« اخفيت قلبي في عش من الازهار ، بعيدا عن مسير الشمس ، منفردا وحيدا في فراش ناعم ، اين منه فراش الثلج الابيض الاملس ، كيف لا وقد واريت فؤادي تحت الاوراد . »

ومع بشاشة هذه السنين ، فقد تميزت بعقمها . ذلك بان عبقريته ، فقدت طراوتها ، كانها زهرة لم يعد لها صلة بالهواء الطلق .

* * *

لم يحم واتز دنتون سونبرن مما كان يثيره زملاؤه حسب ، بل مما كانت تثيره افكاره السابقة ايضا . وتحت تأثير مجيره ، اصبح مكافح « جميع الاضطهادات تحت الشمس » « طفلا يلعب بالدمى » او بالحري روح طفل . عاش على ما تبقى من اسطورة شاعر عظيم . ومن حين الى آخر كان تتومض فكاهته القديمة من خلال سحابة نبوغه الموقف . اشار يوما الى بعض شعراء انكلترا المعاصرين ، فقال : « في استطاعتي ذم متناقضات روبرت براوننغ ، لانه لن يقدر ان ينتقم لنفسه من منظوماتي المنسجمة . »

وايا ما كان الحال ، تحول سونبرن الان الى القدح بذاته . فاشعاره في هذه الفترة ما هي سوى تقليد ضعيف لما ابدع من قبل . اما حكمه في النقد ، فقد انهار بانحطاط طاقته الخلاقة . حاول اعادة النظر في قيمه السابقة ، الا انه خاب في هذا الشأن ايضا .

وفي ذات مرة ، امتدح ولت وتمان ، قائلا : « انه المغني عبر البحار ، انه قلب القلوب الحرة . » والان اباح لآرائه ان تصاغ على وفق ما يريده واتز دنتون الحسن النية، غير المنور ، مما حدا به ليصف الهة شعر ولت وتمان بكونها « بائعة التفاح السكيرة ، التي تتمرغ في اوحال النفايات التي تتساقط من تفاحها النتن . »

لم يكن غروب شمس سونبرن هادئا متوانيا ، اذ ان ضبابا سد الافق فجعل عبوره مغمورا لم يلحظه احد . اصابه الصمم في شيخوخته ، وهذا ما وضع ستارا صفيقا بينه وبين العالم . فشعر بكل دقة بفقدان مواهبه . وبهذا الخصوص كتب الى احد اصدقائه قائلا : « غدوت مبتذلا كثوب خلق . » اصبحت شخصيته الان اكثر رقة ، واقرب الى القلب ، ولكنها اضاعت امتاعها . وكلما تقرب الى سني حياته المثلجة احس بوحدته ، كأنه شجرة شربين منفردة في غابة من الغرب مات اصدقاؤه واحدا واحدا ، واستمر هو في الحياة . ثم اصبح شغوفا بالاطفال « سكان السماء الصغار . » حتى قال :

«ان كان ملكوت السماوات هكذا ، فهو الفردوس حقا»

وعلى هذه الشاكلة غرق في احلام ايامه الاخيرة ، فكان شخصا اسطوريا وحيدا يعيش في ارض من الشهرة المنسية . وفي مساء يوم من ايام الخريف ، كانت سيدة تسير في وسط ضباب كثيف ، في شارع ومبلدون كومون ، وفجاة انحل خيط حذائها فانحنت لشده . تقول هذه السيدة « وبينا كنت مشغولة بذلك اذا باحدهم يعثر بي ويصرخ بنغمة عاطفية حزينة (اواه) . نظرت الى اعلى فوجدت وجها ابيض تعلوه شعلة من الشعر الاحمر ، يبدو كانه لهيب نار . ولم تمض لحظة حتى توارى شخص هذا الانسان الصغير الجسم ، النحيف الساقين ، كان الضباب ازدرده ، مثل رؤيا من الرؤى العابرة ... »

ذلك بان الشاعر الفاني ، والمغني الزائل لاغانينا الخالدة ، كان متوجها نحو غمائم الخلود .

العراق ــ بعقوبة — يوسف عبد المسيح ثروة

مشردان وقمر

٥

لماذا يطل علينا القمرْ
لماذا يطلُّ وفي مقلتيه
بريق حنانٍ غريب الصور
ويبدو كأن ورا شفتيه
تعمَّد يكتم عنا خبرْ

*

لماذا ترامى الينا سناهْ
يدغدغ عزلتنا القاسيهْ
ويصحبنا في المسير تراه ؟
أحسَّ بطعنتنا الجانيه
وتشريدنا في دروب الحياه

*

لماذا ؟ وينصب دفق حنين
جداول من قلبه الشاعرِ
يرش رحاب الدجى بالفتونْ
ويذرو الجمال مدى الناظرِ
ويبقى حزيناً دجانا الحزينْ

*

أسلوى لنا كان زحف الضياءْ
وسلوى لنا نحن رفّ القمر
ففي خاطر الضوء بعض العزاء
أحسَّ مشاعرنا فابتدرْ
أنسلو ؟ اذنْ أين منا الوفاء

أنسلو هناك لنا منزلا
على ملتقى السهل بالرابيه
تقول العصافير لا أجملا
ولا منه أغوى رؤى الساقيه
أقمنا به عامنا الاولا

*

هنالك حيث الحكايا الطوالْ
ينمقها حبنا الاخضرْ
وينقلها الطيب عبر التلال
فتزهو كروم وتخضوضرْ
وتنمو الرياحين بين الرمال

*

وروضتنا من عذارى الورود
حديث الفراشات والعاشقين
فزنبقة" خدعتْ بالوعود
وأخرى يغازلها الياسمين
وسرب طيورٍ مساءً يعود

*

أنسلو عشيّاتنا الفاتناتْ ؟
وبيت هوانا على المنحدر
أنسلو زنابقنا العاشقات ؟
محال" ولو رفّ ألف قمر
ولو مزّقتنا أكف الطغاة

جورج معماري
الجامعة اليسوعية ببيروت

قصة من جامعة القاهرة

نادية

بقلم فاضل السباعي

*

لقد استرعى انتباهها في الفتى انه كان يدخل المدرج دوما من بابه الخلفي ، فيتبدى امام ناظريها بطلعته النبيلة ، وقوامه السمهري ، وخطوه الرصين اذ يهبط المدرج في رفق وهوادة ليتخذ مكانه في الصفوف الاخيرة . ولقد انست فيه الدعة والرزانة والهدوء الى ابعد المدى وهو يجلس في المؤخرة بين طلبة لايتسمون بشيء من الدعة والرزانة والهدوء !..

على ان ما لفت نظرها فيه الى ابعد حدود اللفت ، انه لا يكاد يفطن الى وجودها من حوله ، في الوقت الذي كانت فيه الفتاة نهبا لعيون الطلبة ، يسترقون اليها النظر تارة ، وتارة لا يكاتمون ..

وظلت الفتاة على حالها تلك .. تتشوف مجيئه ، وتحس بالضيق الشديد ان هو تأخر في مجيئه حينا بعض التأخر . وتروح تخالسه النظر اذيجلسعلى مرمى النظر منها. وهي، في هذا ، اول امرها ، سعيدة راضية كل الرضا !

وتدخل الفتاة ، يوما ، وزميلة لها ، قاعة مكتبة « القانون الخاص » في الكلية ، لتراجع بحثا في القانون البحري .. فترى الفتى في القاعة يطالع ، وهو في جلسة ما اشبهها – في زعم الفتاة – بجلسة فقهاء القانون بهدوئه وتمام انصرافه الى المطالعة !..

على انها – ان راق لها هدوءه ذاك – لمنكرة عليه هذا الانصراف كله للمطالعة! فما كان أكمله لو رفع بصره ، في الفينة والاخرى ، وحط عليها !.. على جوانحها تهدا ، وعل قلبها الرغيب المتعطش للحب ان يصيبه من الندى قطرات تخفف من رغبته وصداه !.

وما خاب لها مأمل . فقد رفع الفتى بصره اليها ؛ لان همسات غير خافتة راحت تخف من ناحيتها ، ولعلها كانت تتحدث الى زميلتها .. عنه !

وقد لفتت الفتاتان – عند ما نظر اليهما – انتباهه ؛ فقد ظلتا تتطلعان اليه لا تنبسان ببنت شفة !..

وفي يوم تال .. رآها في المدرج .. تطيل النظر اليه ..

وفي الايام التاليات .. احس بهما معا تديمان اليه النظر .. فجعل يفكر فيهما ويطيل التفكير ...

وتمر ايام تتحرق خلالها الفتاة شوقا للتعرف اليه ! ولعل الفتى قد اصابه من امره مثلما اصابها ؛ فقدبات متشوقا للتعرف اليها !..

ولكن كيف السبيل الى التعارف ؟ وبأي الخطوات يبدأ ؟..

وراح كلا الطرفين يتحين الفرص ، ويترقب المناسبات !!..

* * *

حتى كان يوم .. دلفت فيه الفتاة الى المدرج من بابه الخلفي كعادتها ، قبيل بدء المحاضرة بدقائق ؛ لعلها عشر .. تحدوها امنية قد شغلت عليها عقلها وقلبها جميعا في الليلتين الماضيتين ، فارقتها ، وما خلت الكرى الى عينيها سبيلا . فلما اشرفت على المقاعد التي تنتظم في قاعة المدرج ، ارسلت بصرها سريعا يصول في المقاعد الخلفية بحثا عن الفتى .. ولكن بصرها سرعان ما ارتد اليها خائبا كليلا !..

ثم تقدمت بخطى متثاقلة الى اول مقعد ، لتلقي بجسدها عليه .

ليلتان نابغيتان امضتهما !..

يجب ان تفضي الى الفتى بما يعتلج في نفسها ، او ينهي اليه اي انسان بما يعتادها في لياليها من برحاء الشوق!

ان عهدها في زميلاتها يتقربون اليها ويتزلفون ، فما بال هذا الفتى لا يخطو خطوة في سبيل انشاء علاقة معها سداها الالفة والمودة ولحمتها الاعجاب والتقدير ؟!..

ايا ما كان الامر ؛ سواء أكان في الفتى ضن وبخل ام تردد وحياء ، فانها قد وطدت العزم على ان تقوم هي بالخطوة الاولى ، ما لم يقم هو بها!

وراحت تتواثب في خيالها صور وتخيلات شتى .. ثم ما لبثت ان انتصبت واقفة ، واستدارت لتخرج من المدرج لا تلوي على شيء !

ووقفت في منعطف قريب من باب المدرج ، ترقب الداخل من باب الجامعة .

فاذا مضت دقائق وجيزة ، لمحت الفتى يلج باب الجامعة . فلما اقترب من المدرج خرجت اليه من المنعطف ، متشاغلة بالاطراق الى الارض بادىء الامر ، فلما بصر بها رفعت اليه ناظريها .. فالتقت الاعين : وانبعثت رجفة في جسد الفتاة ، وبداعليها الاضطراب ، وتوقفت عن المسير لا تدري الى اي الجهات تمضي . ثم ما لبثت ان دلفت الى المدرج على عجل مبهورة الانفاس...

اما هو .. فقد تسمر في مكانه لحظة لا يريم .. حتى اذا غاب طيفها عن ناظريه في غيابة المدرج لحق بها ،يقفز الدرج قفزا ، كيما يتسنى له ان يتخذ مكانه بالقرب منها.

وتركن الفتاة الى آخر مقعد في المدرج . ويحار الفتى بين ان يجلس الى جانبها او لا ، فقد عد الجلوس الى جانبها « خفة » منه مستهجنة ربما تؤاخذه عليها الفتاة فيما بينها وبين نفسها . وبالطع عليه الحيرة ان يرى حيزا امام مقعدها يتسع له ، فيتدانى اليه ويجلس ، وقطرات ناعمة من العرق قد انعقدت على جبينه !

ويخيل اليه ، وهو جالس امامها ، كان قيودا من حديد تشده الى مقعده الشد المحكم ؛ فهو لا يكاد يحاول ان يلتفت الى خلفه حتى ترده عن قصده القيود !

وتمضي دقيقة ... ليسمع بعدها فتاته ترحب بمقدم زميلة لها .. انها المرة الاولى التي يسمع فيها صوتها. حقا ان في صوتها لغنة رخيمة

مستعذبة وهي تقول :
ـ اهلا .. لم تأخرت يا عزة ؟
فتجيب عزة :
ـ انها المواصلات .. يا ناديه !
حسنا !.. لقد نال فوزا عظيما ..
انه عرف اسمها ، واسم زميلتها .
ثم لا يعود يسمع كلاما ، بل همسا خافتا وضحكا ناعما .. انهما لا ريب تتحدثان عنه .
واخيرا يدخل الاستاذ المحاضر . فتقول ناديه :
ـ اسمعي يا عزة .. اريد ان اتعرف الى هذا الاستاذ !!
ـ ... ... !
ـ الا تفهمين !؟ اريد ان اتعرف اليه !.. كلميه .. قولي له ذلك !!
وتنحنح الفتى في جلسته ..
ما هذا الذي يسمع ؟.. اي «استاذ» تعني ؟.. أتعني الاستاذ المحاضر الذي دخل بالتو ؟ أم تعنيه هو ، وقد جرى الطلبة على التنادي بهذا اللقب تجوزا ؟ حقا انها لماكرة داهية !.. انها لاريب تعنيه هو في هذه التورية اللطيفة !..
انها توري عزمه ، وتشحذ همتــه ، وتبث في نفسه روح الشجاعـــة والاقدام .. فليتقدم اذن غير هياب !!
وعلا صوت الاستاذ المحاضر وهو يقول :
ـ « بدانا الكلام في المحاضرة السابقة في .. مقابل الوفاء في الكمبيالة .. وسنتكلم الان في .. ملكيته مقابل الوفاء ... »
وجعل صخب الطلبة يتلاشى شيئا فشيئا .. وانكب كل منهم على كراسه يكتب . وفتانا كان يكتب ويسل المعاني من بين العبارات التي يشرح بهـــا الاستاذ محاضرته ليسجلها في كراسه .
وسمع الفتى الهمس من جديد .. ان ناديه تقول :
ـ انني لا اعي شيئا من هـــذه المحاضرة .. انها اشبه بالطلاسم في يومي هذا !!
فتجيبها عزة :
ـ اجل ، انها لطلاسم .. ولكـــن بالنسبة اليك فقط !!
ويتنحنح الفتـــى من جديد .. ويحس بالقيود الحديدية تشده الـى حيزه . ولما يتوالى الهمس من خلفه ، يفلت زمام الانتباه من بين يديه ، فلا يقوى على الاسترسال في الكتابة ، فيغلق كراسه ، ويقعد مبهور الانفاس ! فيسمع من خلفه همسة خاطفة :
ـ لقد قفل الكراس !.
وتنتهي المحاضرة بعد وقت هو ـ في زعم الثلاثة ـ طويل .
والترويحة ما بين المحاضرتين ليست تتجاوز الدقائق العشر ، وها نصفهـا قد تقضى . و لعل الفتاتين تنتظران منه ان يقوم بالخطوة التالية ، بعدما قامتا هما بالاولى .. اتراه يلتفت اليهمـــا محييا ليطلب كراسا يستعين به لتكملة ما فاته من « نوت » ، تلك التعـلة التقليدية التي يتعلل بها الطالب اذ يريد التودد الى زميلته ؟.. لا ، ابدا ، انــه ليس يجرؤ على اتيان اي شيء مــن هذا القبيل !
وانسربت الدقائق المتبقية مــن الترويحة ، او كادت .. فاذا بالفتى يتمرد تمردا عنيفا على ما يشده الى مكانه من قيود ، فيلتفت الى خلف ، ويقول لناديه :
ـ مساء الخير .. يا ناديه !
فهتفت من اعماقها قائلة بجـراة وحياء معا :
ـ مساء النور يا استاذ !
ـ آنستي .. انني خارج من المدرج فهلا تخرجين ؟!..
ثم ينهض ، وينطلق من المدرج على الفور !..
ولقد كانت ـ في الحق ـ خطوة قام بها الفتى ما قدرت الفتاتان ان يقوم بها . وعقدت الفاجأة لسانيهما ، وحارتا فيما تعملان .. ولم يفض على هذه الحيرة سوى نفر من الطلبة جعلوا يتوافدون بصخب الى المدرج مــن ابوابه الامامية حيث قد اقبل الاستاذ المحاضر .. وهنا نهضتا من قبل ان يلج الاستاذ المدرج فيعز عليهمــا الانسلال !..
وهبطتا الدرج بسلمانه العشر بخطى تنم عن كبير تردد ووجل . ولمحـت ناديه الفتى امام الباب في الخـارج ، فتهيبته ، وارادت الى الوراء قليلا ، وقد كست الحمرة وجهها ، وازداد في قلبها الوجيب ، حتى اذا لملمت اطراف نفسها اندفعت من الباب تتبعها عزة .
وتبعهما الفتى ، على مسافة بينه وبينهما غير يسيرة . الى ان وقفتا بجوار مبنى قاعة الاحتفالات بالحرم الجامعي ، تتطلعان اليه وتتشوقـان مجيئه .. فيتدانى منهما اكثر فاكثر ، حتى اذا غدا على قيد خطوات منهمـا سلم ، فردتا عليه السلام والخفر يعقد لسانيهما ..
ومضت فترة صمت قصيرة ، قطعها الفتى يقول مازحا :
ـ لم تركتما المحاضرة ؟!
فينطلق وجه ناديه لهـذا السؤال بشاشة وبشرا ، واجابت بجراة حسدتها عليها عزة :
ـ ارى انه من العبث ان يحضـر الطالب محاضرة .. حين لا يتسـم ذهنه بالصفاء ، لانه لن يعي اذ ذاك من المحاضرة شيئا .
وقد نزعت هذه الجراة من نفس الفتى ما كان يتعاورها من مشاعـر التردد والتهيب .. وخيل اليه انــه يعرف الفتاة من زمن طويل ! وعلى ذلك لم يتردد في ان يقول :
ـ أتريدين الوقوف ام المسير ؟
فاجابت : الامر لك !..
وهنا استاذنت عزة مبدية رغبتها في العودة الى المدرج .. بينما جعلت ناديه ترمقه بجانب من طرفها عندما جعلا يسيران الى ما خلف مبنـــى الجامعة الرئيسي .
فاذا امتد بهما المسير بضع خطوات ، قال :
ـ انه لم يخطر على بالي يوما انني احب الكلية الى هذا الحـد الـذي احسسته في الثلاثة الايام الماضيات . لقد احسست خلالها كأن ثوبا مــن الجمر يلفني !.. لك ان تتصوري يا ناديه كيف قضيت يوم الخميس مـن الظهر حتى آخره .. والجمعة كله .. والسبت حتى ساعات المساء هذه !!
وتخطرت بسمة سعيدة على شفتي الفتاة ، وقالت :
ـ وعلى أية حال قضيت هذه الايام ؟
ـ على اسوأ حال !!
ـ ولما ؟!
ـ لانني كنت افكر .. افكر كثيرا !
ـ وفيم التفكير ؟..
ـ كنت افكر في «شخص» تبين لي فجاة انه عزيز لدي مقرب الى نفسي !
ـ وهل تعتقـــد ، يا استاذ ، ان « وجود » ذلــك الشخص امر لازم وضروري ؟.. اعني وجوده المـادي المجسد أمام ناظريك ؟
ـ اجل ، اجل ..
ـ الست ترى معي ان حياتك معه في الخيال ادعى للسعادة والهناءة ؟
ـ لئن كانت حياتي معه في الخيال سعيدة بالقدر الذي تصفين ، فـان حياتي معه في الواقع المحسوس لاسعد مما تتصورين !!..

باتت ناديه تحس بنشوة عارمة تجتاح كيانها، وبسعادة وارفة الاظلال تعتمر قلبها هذا .. الصادي المتطلع ابدا الى الحب ... انها نشوة الظافر وسعادة المحب .. ولله در ناديه من انثى ما تمنت حب رجل الا وسعى اليها ذلك الرجل محتملا قلبه بين يديه، ليقدمه اليها على مذبح الحب زلفة وقربانا !

وانها لتذكر زملاءها الثلاثة الاول ، الذين ضحوا بقلوبهم في محراب حبها، وما كان جزاؤهم ، من بعد ذلك ، سوى النكران والاهمال اللئيم .. ثلاثة « زملاء » تعاوروا السنوات الثلاث التي قضتها في كلية الحقوق. وكان يحملها على الهجران ان تحس بهوان المحب وتخاذله وامتهانه ذاته في سبيل مرضاتها .

لقد كانت ناديه انثى فيها من لؤم الطبع والشذوذ ما لم يجتمع في كثير من الاناث ، تدل على المحب ، وتتمنع وتجمح ، فتذوب نفسه جوى وصبابة فان هي احست بذله وتهافته ، انهالت بجمع كفها على حبه تدحره وتطرده من فؤادها !

وها هوذا «الزميل» الرابع .. انها لتحس نحوه بفيض عارم من الحب يجتاح فؤادها ،ويهدهد امانيها .. وهو في رأيها خير من عرفت من الزملاء طرا . لقد لمست فيه من المزايا ـ في بضعة الايام التي عرفته فيها عن كثب ـ ما زادها تعلقا به وشغفا .. انه انسان الصراحة رائده ، والاخلاص ديدنه ليس يحيد عنه او يستبدل به التذبذب والهوى !

لن يوصف بالمغالاة ـ اذن ـ قول فحواه ان ناديه قد احبت وحيدا وهامت به كل الهيام ... ولقد وجدت نفسها ذات يوم وليست تملك من امرها شيئا بين يديه .. كانا ، في ذلك اليوم ، يجلسان على الحشائش الخضراء ، في الحرم الجامعي ، بين احضان الساعة الشامخة بانفها دوما صوب السماء تشق ندي السحاب .. وامامهما تناثرت الورود والازاهير يعبق اريجها في الفضاء .. والشمس ترسل خيوطا من اشعتها فتنتشر في جو « يناير » الدفء اللذيذ ..

وكان الفتى متربعا قبالتها ، يعبث بالحشائش تارة ، ويغيب تارة اخرى نظره في وجه غادته الاسمر المشرب بحمرة طفيفة اخاذة . واذكره لون بشرتها باغنية شامية يعجب بها ترنم لها بمطلعها :

مرمر زماني ، يا زماني مرمر
تبلى عيونه اللى ما يحب الاسمر

ونفذ هذا المعنى الى صميمها ، فاخضلت عيناها بالدمع ، وكأنها خشيت من فرط سعادتها على هذه السعادة ، وحضرها قول لانجليزية ذكرته له : « لا بد ان يفترق الاصدقاء الخلص ، يوما ، لابد !.. »

وتواصلت الايام يدفع بعضها بعضا ، والفتيان غارقان في نشوة من حبهما تنقلهما من عالم الواقع الى عالم آخر قد نسجه لهما الخيال من زاهر الرؤى وعاطر الاحلام ..

واصبحا لا يكاد احدهما يفترق عن الاخر ، سواء في الدرج وهما ينصتان الى المحاضرة ، ام كانا خارجه يجوسان حدائق الجامعة في نزهاتهما الخلوية .

وقد اشتهر امرهما في الكلية ، واصبح خبر حبهما حكاية تروى بين الطلبة !.. الم يحصل يوما ان كان الفتى يسير في شارع الجامعة في منصرفه ، فاذا بسيارة تنطلق مسرعة من الجامعة ، وتكاد تصطدمه لولا ان قفز بخفة الى الرصيف ، فيقول طالب كان في السيارة للطالب الذي كان يجلس الى المقود :

ـ أتدري من ذا الذي كدت تدهسه ؟
ـ ابدا .
ـ انه .. « حبيب ناديه » !!

وجعل بعض الطالبات يكدن لوحيد بالسعي لدى ناديه ينممن ويشين به ، علها ان تنفر منه ، وهي المتقلبة التي لا يستقر قلبها في حب على حال .. ولكن ناديه كانت تصد الواشيات الصد العنيف ، وتردهن على اعقابهن خاسرات خاسئات !!

على انه كان في الفتاة بعض طباع مستنكرة بذل الفتى قصاراه في ان يقوم من اعوجاجها ، فما استطاع الى ذلك سبيلا !

لقد كان اكثر ماتنطق به الفتاة محض كذب ونسج خيال .. كما كانت تتباهى امامه دوما بان لها بين الرجال من صرعى ومعجبين ما ليسوا يقدرون عددا .. ولئن كانت ـ في الحق ـ لا تمتلك ذلك الرصيد الهائل من الملاحة والجمال ، الا ان ما يشفع لها في تهافت الرجال عليها انها تملك رصيدا ليس يفنى من السحر والجاذبية والانوثة الصارخة !!

وهي دوما تتفاخر بخلف المواعيد التي تضربها مع الاخرين ، فهي لا بدان تتأخر عن الموعد ، ان لم تتخلف بالمرة.

ولقد كان الفتى ، في حبه لناديه ، في سبيله الى الزواج منها في خاتمة المطاف .. لولا هذه العيوب التي كانت تطمس له الصورة الرائعة للفتاة التي نسجها له الوهم والخيال ، على انه كان واثقا من انه مستطيع حتما ترويضها ، من بعد ان يتخرجا من الكلية ، بعد تلك الاشهر القليلة المتبقية، حيث تنأى عن جو الكلية .. ذلك المحيط الذي يحيلها بالعبث ويدفعها اليه ، بما تضمه الكلية من طلبة لا يخلو بعضهم من تهافت وميوع !

* * *

وتحل اجازة نصف السنة الجامعية وكان على ناديه ان تغادر القاهرة الى عمة لها بالاسكندرية لتمضي اسبوعي الاجازة . وقد حاول وحيد جاهدا ان يثنيها عن السفر ، ولكنها تعللت بالف عذر وعذر ، فلم يجد مناصا من ان يرافقها يوم السفر الى المحطة، ليشد على يديها بحرارة مودعا والقلب منه يكاد ينفطر من الاسى ، وهو يذكرها بموعد اللقاء التالي.. في اليوم الاول بعد الاجازة .. قبيل بدء المحاضرات بساعتين .. في احضان ساعة الجامعة ..

ثم هو يعاني من مرارة الانتظار والاصطبار ، خلال ذينك الاسبوعين ، ما جعله يعتقد انهما اطول اسبوعين في لوحة الزمن !

فاذا ما افتتحت الجامعة ابوابها ، بعد هذا اللأي الطويل ، كان وحيد يجلس تحت ساعة الجامعة من قبل

ان يهل الموعد وتهل معه طلعةالحبيبة الغائبة .

وتدق الساعة دقاتها التسع معلنة ان الموعد قد حـــل .. ونظر الفتى المستوفز الاعصاب من جديد الى باب الجامعة ، ثم الى الطريق التيستسلكها الفتاة في مجيئها .. فما وقعت عينه على اثر لها ، ولا استشم انفه مـــن عبيرها شيئا .

وجعل يصبر نفسه ، وينشد لهـا السلوان ، ان ناديه ما اعتادت انتوافيه في الموعديوما ، فليس اذن من عجب ان هي تأخرت في موعدها هذا ولمـا يمض بعد على الموعد سوى دقائـــق خمس !.. ولعل التأخير وليد ســوء المواصلات !..

ولكن دقائق خمسا اخرى تلتالاولى. لتتلوهما خمس ثالثة .. ثم تمضي نصف الساعة .. وناديه لم تات !..

ان هذا التأخير لا يمكن تبريــره بانتظار لاوتوبيس او بازدحامركاب.. انما الذي يفيه حقه من التبريــر هو الاهمال الصارخ ، ان لم يكن التعمــد المقصود .. وسوء المواصلات معضلة معروفة لدى سكان القاهرة ، وهـي بالتالي معروفة لدى ناديه ، وما دام الامر كذلك ، وبما ان لناديه موعدا مع الغير ، بل موعدا في غاية منالاهمية ، فعليها انتتغلب علىكل عائق، وتتفادى كل تأخير ، وان تضع في حسبانهاكل احتمال لهما .. فتسعى الى الجامعة مبكرة ...

فلما استطال تأخرها ساعـــــة بتمامها .. درات ، كل وساوســه واوهامه ،فكرة ومضت في خاطره : ليس يعقل ان يكون المانع وهما مــن هذه الاوهام .. ان المانع لابد امـر جوهري .. لعلها لم تعــد مــن الاسكندرية بعد .. او لعلها عــادت ولكن المت بها وعكة طارئة .. اجل ، اجل ، لا بد ان يكون الامر كذلك ! ..

ونهض عند هذا القدر من التفكير ، وسار صوب الكلية ، وكان لا يزال بعد من الوقت لبدء محاضرات اليوم ساعة بتمامها .

ومر من تحت حجرة الطالبــات ، فوقعت عينه على عدد منهن قــد تهافتن على حافة الشرفة . فلمــا بصرت به احداهن ، لكزت زميلة لها ، وافضت اليها بان « حبيب نادية » تحت الشرفة يرقب . ثم سرتعدوى الهمس الىسائرهن ، فاذا بهن جميعا ينظرن اليه ويتهامسن ! ..

واحس وحيد كأن سهاما ناريـــة تنفذ الى جسده تطلقها عيون هؤلاء.. وخيل اليه انه يطالع في وجوههـن آيات الشماتةومعاني السخرية المرة.. الم تقم غالبيتهن يوما بدور العذول الواشي بينه وبين فتاته ؟.. بلى ، ها هي ذي بهيجــة ، وآمـال ، ومنـى ، وعواطف ، وعلية ، وليلى ... انهـن الان لا ريب يعرفن انه ينتظر نادية.. وانها ما دامت ليست معه او معهن في الحجرة ، فهي اذن قـــد نكثت بوعدها ، وليس ذلك ــ في علمهن ــ منها بجديد ، وهن صويحباتها قــد عاشرنها طوال سنوات اربع ، وسبرن غور نفسها ، وعانين من نكثها معهـن المواعيد واحترافها الكذب ما عانين .. وعرفن مغامراتها .. فهي في كـل سنة لها صيد جديد ، تهيم به فـــي مستهل السنة ، فان قدم بالصحبـة العهد ـ والعهد في عرف نادية يتقادم في شهور او اسابيع ! ــ خمد لهيب حبها وابتردت ناره ، وجعلت تبخل فـي المواعيد وتضن ، فـــان هي منحت موعدا فمن اجل ان تنكث به ، وان هي نكثت تعللت بفيض من المعاذير.. ومعينها في هذا المضمار لا ينضب !!

لقد استقرا وحيد هذا كله فـــي الوجوه التي تطل عليه من عل، فاحس بكبريائه تدمى وبرجولته تمس المس المهين ، وكره هؤلاء الشامتات ، وكره ناديه ، وكره نفسه.. وجعل يتسارع في مشيته يتعثر باذيال الخجــل ، ليواري ذاته عن عيون تطلق عليه نافذ السهام .

ويقصد ــ من بعد ذلك ــ الــى المبنى الملحق بالكلية ، ويركن خلفـه حيث لن يراه من الطلبة الا كل راغب في الوحدة ، واتكأ بساعديه عـــلى المنضدة ، ودفن وجهه بين راحتيه .. ليتنصت الى صدى يتردد في جنبات نفسه : « يا لك من احمق جهول !.. او لم تقــع في حــب غــير هـــذه اللعوب ؟!.. »

وما احس الا والساعة تكاد تعلن الحادية عشرة . فقام الى المــدرج يسعى ، ودلف اليه من خلف وهو لا يرفع بصره عن الارض .

فلما ارتقى الدرج ، واستقر بــه المقام .. راى نادية تدخل المدرج ، وتجلس غير بعيدة منه . وقد كان من عادتها ان تتلفت ــ اذ تدخل ــ حولها تبحث عنه ، لتصبح .. ولكنها ، في يومها ذلك ، لم تكلف نفسها عنــاء التلفت والبحث .. نشرت مجلــة مصــورة امامهـــا ، وراحت تقلب صفحاتها بشغف واهتمام ...

وآلمه ذلك منها كل الالم ، واسف من كل جوانحه على يوم كلم فيـــه انسانا مفطورا على هذا الطبــع اللئيم ! .

ولئن كان قد ابدى في سابــق الايام حبالها وشغفا بها ، فانه لــن يبدي لها من بعد اليوم الا كل جفاء وفتور فيا لعواطف ..

ومضت المحاضرات الثــلاث .. ونادية تنصت الى المحاضر اذ كــان يحاضر ، فان هو خرج عادت الـى مجلتها تقلب فيها الصفحات غــير مبالية بوحيد . وهو يتظاهر بقراءة ما دون في كراسه ، ويسترق ، بـين الفينة والاخرى ، النظر اليها من طرف خفي ! .

وتزاحم الطلبــة في خروجهــم ، ووحيد في طليعة الخارجين .. فلما نفذ الى الفضاء ، غذ في سيره متجها صوب باب الجامعة ، مطرقا الــى الارض ، لا يلوي على شيء ! .

فلما غدا في الشارع .. ترامى الى مسمعه وقع اقدام تتسارع خلفه ، ثم صوت ينادي : وحيد ، وحيد .. .

وقد عرف في هذا الصوت عزة . فتوقف والتفت اليها في تثاقــل . فلما اصبحت منه قــاب قوســين ، قالت :

ــ الى اين انت مسرع هكذا ؟ !

فاجاب باقتضاب :

ـ لا بشك الى البيت ! .
ـ يا سلام ! . ومن غير ان تسال عن نادية ؟!.
وما سؤالي عنها ؟ !
ولم يضف . فقد خشي ، ان هو اضاف ، ان يسهب ، فتنفجر مراجل غضبه .. ثم ما احس الا وهو منقاد لعزة تاخذه من يده عائدة به الى الكلية .
وقد كانت نادية تنتظر عودة عزة مصطحبة وحيدا . فلما لمحتهما مقبلين من بعيد ، هربت اللئيمة ، وراغت في ابهاء الكلية ! ..
وذلك هو طبع نادية .. ذلك الطبع اللئيم ! !
انه لا يشك في حب نادية لفتاها وحيد . ولكن لم اذن قامت بهذا الدور الشاذ في يومها ذاك ؟ ! .
انها ما تاخرت عن الموعد ، بل على العكس من ذلك تماما ؛ اذ وطئت قدمها ارض الجامعة قبيل التاسعة . ولقد لمحت ، في دخولها ، وحيدا مقتعدا الحشائش ، ساهما واجما ، وكانما ادخل هذا المراى الى نفسها السرور كل السرور .. وتحرك طبعها اللئيم ، وكذلك بدلا من ان تتخذ سمتها الى الفتى المترقب ، عرجت صوب الكلية ، ودخلتها ، وهي مرتاحة النفس تماما ، وكانه ليس ثمة موعد يربطها بانسان ! .
وقد صعدت الى حجرة الطالبات . وجعلت تتحدث وتمازح بقلب يفعمه السرور وتغمره السعادة .. وقضت ساعة في ذلك العبث .. ثم عرفت ان الطالبات المشرئبات من الشرفة قد راين الفتى يسير الهوينا ، وعيناه معلقتان حيث يقفن ، فما اهتزت فيها خالجة ، بل قالت لهن بجذل شديد : « دعنه وشانه ! ! .. » ، ثم قامت الى النافذة لتتسلى بمرآه ، فاحتجبت بالستارة ، لترى فيه سحنة المغيظ المحنق ، يتبدى ذلك في محياه واضحا جليا .. فلذ لها ذلك ما دامت هي التي بعثت في نفسه هذه المشاعر والاحاسيس .. وذلك ان دل في عرفها على شيء ، فانما يدل على اهتمامه بها وحرصه الشديد على ان يراها ابدا الى جانبه ! . .
ثم رات ان تسير في مهزلتها هذه الى النهاية ، فما التفتت اليه وهو في المدرج ، على علمها بمكان جلوسه . ومبلغ ظنها انه سينتظرها في خروجها ، ولن يبرح الجامعة من قبل ان يلقاها . على ان الالم كان قد تغلغل في نفس الفتى .. فكان ان خرج غير مبال بها ، عازما على شيء .. وكذلك لم تجد بدا من ان تنفذ عزة وراءه تسترخيه .. فلما راتهما مقبلين معا ، راغت في مبنى الكلية .. واذ قدرت انهما قد وصلا اليها ، خرجت اليهما تتضاحك قائلة :
ـ سعيدة يا وحيد ! ..
فلم يرد التحية وحيد ، بل ظل صامتا مقطبا . فتاملت ناديه قطوبه ، وتفكرت في ان مبعث هذا القطوب ليس بسوى اهتمامه بها الشديد .. فزادها هذا التامل ازدهاء ونشوة وطربا . وقد كررت عليه القول :
ـ سعيدة يا وحيد ! !.
ـ ... ...
ـ لم لا تسلم ؟ .. لم هذا القطوب ؟ .. هل انت «زعلان» ؟ ..
فاجاب بصوت كانه حشرجة وهو يتشاغل عنها :
ـ ابدا ! .. ومم «ازعل» ؟ !..
فقالت تعنفه برفق :
ـ وحيد .. ارجو ان تقدر الظروف ! .
واحس بها تهم معالجة الموقف ، فقال :
ـ اية ظروف تعنين ؟ !
ـ الست تعرفها ؟ .. حسنا ، حسنا ، ليس ثمة ظروف ! .. انا المخطئة ، انا المخطئة دائما .. حقك علي يا سيدي ! ! .
وتعجب الفتى من هذه المداورة والمراوغة ، وبان الدهش في عينيه ، فعاجلته الماكرة :
ـ اعجبك هذا ؟ ! .
ـ انني حتى اللحظة لم افهم المعنى الذي تقصدين اليه ! .. ماذا تريدين قوله ؟.. دون ما مواربة !.
فضحكت الفتاة ، وقالت :
ـ هل انت «زعلان» مني ؟ !
ـ بمستطاعك ان تجيبي الاجابة الصحيحة ! .
ـ اذن فانت « زعلان » ! .
ـ بكل تاكيد ! .
ـ ولم ؟ .
ـ لانك جئت في الموعد ! ! .
فضحكت ، وقالت :
ـ الا تستطيع ان تبرر غيبتي ؟.
فقال بحدة :
ـ اجل .. انها المواصلات ، من جديد ، هذا العذر الشائط ! ! ..
ـ لا ، بل هو عذر اهم ..
ـ ما هو ؟ ..
ـ لقد كنت طريحة الفراش ! ! .
ـ هذا عذر اوهى .. انت دائما تكذبين وتختلقين .. واكاذيبك مكشوفة ساذجة لا تنطلي على انسان ، كاكاذيب الاطفال ! ! .
فتضاحكت وقالت :
ـ اجل ، اجل .. انني حقا كذابة ، وكذابة كبيرة .. ولكن لتعلم يا وحيد ان تلك احلى صفاتي ! ! !
فانفلت بسمة وتعلقت على فم وحيد برغمه ، فاذا الماكرة تقول :
ـ « بذمتك » يا وحيد .. الست ترى انني خفيفة الروح ؟ ..
ولم يسعه الا ان يضحك . وشعر بانها حقا كالطفل ، وان عليه ان يتسع منه الصدر ليتحمل تصرفاتها الرعناء ، وهو الرجل العاقل الرزين ! .
ثم امسكت بيده ، واتجها صوب باب الجامعة ، وهما يتضاحكان . ولقد تلفت الفتى عند ذلك باحثا عن عزة ، فما وقعت عينه عليها ، الى ان لمحها امام باب الجامعة تنتظر مقدمهما .
ولما مضى الاوتوبيس بالفتاتين ، كان وحيد قد ضرب موعدا مع ناديه للصباح التالي ، وقد قال لها ، وهو يشيعها في الاوتوبيس :
ـ اياك ان تفعليها في الغد ، كما فعلتها اليوم ! .
فاجابت :
ـ وهل يقع المرء في خطا واحد مرتين ؟ ..
وكانها لم تتاخر عنه في موعد الا من يومها ذاك ! !.

★ ★ ★

ولقد تعمد الفتى ، في اليوم التالي ، ان يتاخر عن الموعد المضروب بعض التاخر . وكانت غايته في ذلك احد امرين : فاما ان تتاخر ناديه هي الاخرى كالعادة ، فيوفر بتاخره على نفسه وقتا كان سيمضيه مستوفز الاعصاب .. واما ان تاتي في تمام الموعد فلا تلقاه ، فيكون ذلك بمثابة عقوبة لها زاجرة رادعة ، فلعلها ترعوي بعد اليوم ! .
وكم كان عجب الفتى شديدا اذ اتى بعد الموعد ، فلم يرها . فعرج على حجرة الطالبات ، وسال عنها الآذن الذي اكد له عدم قدومها .. فكر الى

مكان الموعد ينتظر ..

وهلت ناديه بعد نصف الساعة .. وكان الفتى مستشيطا غضبا . فلما اقبلت اليه ، استرعى بصره «تجديد» ملحوظ في هامتها .. لقد قصت شعرها « آلا جرسون » ! .

وصبحت ، والبشاشة تغمر محياها ، واقتعدت الحشائش الخضراء .. فسألها بهدوء :

ــ لم تأخرت ؟ ..

ــ الا ترى شعري ؟.. لقد قصصته اليوم .. اتعجبك هذه القصة ؟..

ــ نعم ! .. ولكن الا ترين ان شعرك بات شديد الشبه بشعري ؟ !

ثم مال اليها ، يتفحص عنقها وياقة ثوبها ، فما لمح اثرا للشعرات التي تعلق عادة فيما يلي العنق لدى قص الشعر .. فقال :

ــ لست ارى اثرا للشعر في عنقك ! ..

فاجابت على الفور :

ــ لقد استحممت البارحة، وغيرت ملابسي ! .

ــ اذن فانت قد قصصت شعرك البارحة ؟ ! .

فاحمر وجهها لانكشاف اكذوبتها ، وتشاغلت عن ذلك بان اخذت تقهقه. فاعاد وحيد عليها السؤال :

ــ لم تأخرت هذا الصباح اذن ؟ !

ــ الحق ، انني صحوت متأخرة .. انني فتاة مكسال .. نؤوم الضحى .. ودفء السرير يسحرني ! !

فهز وحيد راسه هزة الهازيء ، والاسى يعتصر كيانه وقال :

ــ ان طبعك هذا ، يا ناديه ، قد سبب لي خيبة امل فيك كبيرة ! .. لقد احسنت الظن فيك في مستهل علاقتي بك ، ومن عيوبي حسن ظني بالغير ، وشيدت الامال الجسام ، وسمكت الاحلام الرائعة .. فاذا بالبنيان يتداعى ، وتنقلد منه في كل لحظة لبنة ، حتى اوشك ان يستوي في الارض .. اتفهمين ؟ ! ! .

ــ ... ...

ــ لقد قدرت فيك ، اول العهد معك ، فتاة خفيفة الظل ممراحا ، ولكنني لم اقدر ابدا انك اكذب خلق الله طرا ، رعناء ، حمقاء .. قد انعدمت لديها المثل ، وافتقدت القيم الروحية ، فهي لا تتحلى حتى باسط الفضائل ؛ اعني الصدق في الحديث، والاخلاص في معاشرة الناس ! !..

وكانت ناديه اثناء ذلك صامتة ساكنة لا تريم .. فاذا بلغ وحيد هذا المدى من الكلام .. انهارت رأسها الى ما بين كفيها ، وجعلت تنتحب بصمت ! ...

ابتدات ناديه ، منذ ذلك اليوم ، تصحو الى نفسها . واخذت تستشعر بمدى الاثم الذي ترتكبه بازاءوحيد.. ذلك الفتى المثالي الذي ما انطوت نفسه الا على كل تقدير لها وحب اكيد . فهي تقارف تجاهه الاثم الفاحش اذ تمعن في عبثها السخيف ذاك ، مما عبثت به من قبل مع زملائها الاول . فما الزميل الرابع هذا سوى نسيج وحده قل ان يوجد له مثيل بين الطلبة الذين تعرف ناديه تمام العرفان ما هم عليه من طباع ! .

وهكذا تعتزم ناديه ان تغير من طبعها بما يرضي وحيدا ، ويحلها من نفسه موضع الاعجاب والتقدير ، من جديد .

ثم هي تسير على وفق ما اعتزمت من امر ... ولكن الى حين ، حيث ترتد الى سابق عهدها معه لا تتنحى عن بعض من طبعها اللئيم ! !.

* * *

لقد ضاق الفتى بخلقها ذاك ذرعا ، فاعتزم ان يجتثها من خياله ، وعقله ، وقلبه ، وحياته جميعا .

ولكن كيف السبيل الى هذا القصد الجسيم ؟! .

ان خير سبيل هو ان يهجرها ، فلا تقع عليها عينه من بعد ذلك ابدا !! ..

وهكذا ينقطع عن الحضور الى الكلية الى حين ...

ويمضي على وحيد ، وهو في اعتكافه ، اسبوع ، يأتي بعده الى الكلية ، ليدخل المدرج ويلمحها جالسة في الصفوف الخلفية وحيدة دون مؤنس من صويحباتها . فيتجاوزها متظاهرا بعدم رؤيتها ، ويهبط الى الصفوف الامامية ، وهي تنظر اليه نظرات الغيظ والضيق الشديد ! .

وكان يعتلي المنبر ــ اذ ذاك ــ طالب يخطب مندداً بحال تعم البلاد لا يرضاها الشعب ، والطلبة من حوله بين مصفق وهاتف .. وما لبث وحيد ان اندمج في هذا الجو المعتكر ، فجعل يهتف ويصفق ويعنف في الهتاف والتصفيق ، من دون أن يلتفت الى خلف ، وهو متأكد من ان ناديه تحصي عليه حركاته كلها ! .

وقد حصل ، في ذلك ، هرج في المدرج ، حيث كاد بعض الطلبة يمسكون بخناق بعضهم الاخر ، وخشي سائرهم من وقوع ما لا تحمد عقباه ، فجعلوا يتسابقون في مغادرة المدرج من ابوابه جميعا . وقد خرجت ناديه من الخلف ، وخرج وحيد من الابواب الامامية في زمرة الهتافين الذين راحوا يكملون تظاهرتهم في ابهاء الكلية ، وهو بينهم يشهد ويهتف ...

وارفضت التظاهرة بعد وقت ليس باليسير . فذهب وحيد الى مكتبة الكلية ، وطالع نصف ساعة تبين له خلاله عدم جدوى مطالعته لانشغال باله .

وفي خروجه من المكتبة ، عبر مبنى الكلية بطلب الانصراف .. فلما اقترب من باب الجامعة ... راى ... ماذا راى ؟ ؟

لقد بصر بناديه واقفة امام الباب الحديدي الفخم ، تترصد مجيئه ، وقد عقدت يديها على صدرها ، ترسل اليه نظرات قد قدت من الغضب ، والحزن ، واللوم ، والعتاب جميعا .

ويدهش اذ يراها هكذا .. ويأبى عليه سمحه الا ان يلقي عليها التحية بهزة من راسه ، وهو يتابع المسير ، فلا ترد التحية ، بل تستدير الى حيث اتجه ولا تغير من وقفتها تلك شيئا .. فلما يرى منها ذلك ، يقبل عليها ، ويقف قبالتها لحظات لا ينبس ولا تنبس .. الى ان يقطع هو حبل الصمت :

— ابن عزة ؟ .

فتجيب على الفور :

— في الجحيم ! ! ..

— لم ذلك ؟ .. اليست عزة صديقتك ؟ ..

— ليس لي في الدنيا ، بعد اليوم ، من صديق ..

ولئن كان حظي من الصديق الاول هو ما فعلته معي طيلة اسبوع ، فما عساه ان يكون حظي من الصديق الثاني ؟ !..

— تماما كحظ صديقك الاول منك ! .

— كيف هان عليك ان تغيب عني اسبوعا كاملا ؟ ... فاذا اتيت بعده دخلت المدرج بكل تصلف وشموخ ، ولست تكلف نفسك حتى عناء الالتفات الى الانسانة الحقيرة الجالسة خلفك ، والتي راعها غيابك وحسبت له الف حساب .. ثم هي تترصد مجيئك في باب الجامعة ما يقرب من الساعتين ! ؟ .. ماذا يقول الطلبة عني ؟ ! !

وتحدرت الدموع من مآقيها ، ولم تستطع تمالك نفسها من فرط الغضب والانفعال الجامح ، فما كان الا ان استدارت صوب سور الجامعة .. واجهشت في البكاء .

وكان لا بد ان يقتادها وحيد الى مكان تنفر منه العيون ، حيث استطاع ان يهدىء من روعها بعد لاي طويل . وقد سألته :

— اي قصد ينطوي عليه تغيبك ؟ .

فأجاب قائلا في تريث واستئناء :

— انصتي الي جيدا يا ناديه ...

لقد كنت امام احد امرين : اما ان اسير معك في حبي الى النهاية ، ولعلك فاهمة ما اعني .. واما ان اهجرك واستاصل شأفة حبك من فؤادي استئصالا .. ولقد فضلت بالامس الامر الاخير لما لاقيت منك من طبع شاذ وخلق عجيب ! ! ..

— اذن فقد كنت عازما على هجراني ؟ ! ! .

— اجل .

وتمثل لها — اذ ذاك — مدى ما آلت اليه من حال ليست تطاق ، لم تعد تشجع فتاها على المضي في حبه لها .. فراحت تبكي وتبكي ..

وقد افهمها وحيد ان البكاء ليس يجدي بعد اليوم فتيلا ، وان الذي يجدي هو ان تغير ما في نفسها .. فعاهدته بين الدموع والزفرات الحرى واقسمت ، على ان تغدو فتاة عاقلة لا تقع تصرفاتها من نفسه الا موقع الرضا والقبول والاستحسان !

* * *

على ان ناديه ، اذ خلت الى نفسها في يومها العاصف ذاك ، جعلت تجتر حوادث اليوم ، وتسترجع صور الامس القريب والبعيد .. فراعها ان تجد نفسها — في الحق — فتاة ليس يرضى عنها ، رجل عاقل كوحيد ، فان هو راضي نفسه اليوم عنها ، وتقبلها على علاتها ، فانها لن تكون له الزوجة التي تملأ حياته بالبهجة والحبور بل بالتنكيد والتنغيص . وهي — على حبها له اليوم ، ليست تستطيع شيئا ازاء طبعها الاهوج وخلقها الجامح ، فهل تستطيع تقليم اظفار هذا الطبع والخلق بعد ان تغدو له زوجة ؟ .

لقد ثبت لدى ناديه بالدليل القاطع الذي لا يقبل النقض ، انها لا تستأهل هذا الفتى . فينبغي اذن ان تزيح نفسها من طريقه وتحيد عنها ..

وتلك اكبر تضحية يقدمها انسان للذي يحب ويهوى ! ..

وفي اليوم التالي .. دخل وحيد المدرج ، والطلبة منصتون الى الاستاذ المحاضر ، وجلس غير بعيد من ناديه .

وقد هم بان يقوم اليها ، اذ انتهت المحاضرة ، ولكنه استأخر نفسه ، ريثما يستملي صديقه بضعة اسطر فاتته في مستهل المحاضرة . فلما قام اليها ، لم يجدها حيث كانت ، فلحق بها الى حيث قدر ان تكون ..

ولف مبنى الكلية ... فلم يعثر على اثر ! . وهو يستبعد ان تكون قد انصرفت ، اذ ليس من عادتها — على لؤم عاداتها ! — ان تغادر الجامعة قبل انتهاء المحاضرات ، وان هي مستها ضرورة للانصراف فلا بد ان تلقاه من قبل ان تنصرف !

وعاد الى المدرج ، فاذا بالمحاضرة قد ابتدأت ، فوقف يتطلع الى الرؤوس يسائلها عن ناديه ، فكان جوابها النفي القاطع . فأولى المدرج ظهره ، وخرج يبحث عنها من جديد .. وطفق يلف في ابهاء الكلية ويدور دون ما جدوى ! .

ثم امتدت رجله في خطوها الى ما وراء مبنى الملحق ... وهنالك .. رآها ... رآها بصحبة اثنين عرف فيهما طالبين في السنة الرابعة معه ، وتذكر ان رآهما منذ برهة يجلسان الى جوار ناديه في المدرج ! ! ..

وفي الحال استرجع في خياله يوم لقائه الاول بناديه .. لكم هو شديد الشبه بهذا الموقف ! ! ..

واحس بالغيرة الصارخة تغلي مراجلها في صدره وتجيش .. ولكنه سمر اقدامه حيث كان ، وظل يتطلع الى الثلاثة الذين يولونه ظهورهم ، وهم عنه لاهون باطلاق دعابة ومزاح . فلما استداروا نحوه ، وقعت عينا ناديه عليه وهو في وقفته تلك وشرر الغضب يتطاير من احداقه الملتهبة .

وقد احس بالفتاة تهتز ، اذ رأته ، من فرط الاضطراب ، وتحتار على اي المرئيات تضع بصرها !..

اذ ذاك .. اولاها ظهره بهدوء .. وتوارى عن ناظريها خلف مباني الجامعة ! ..

وليلتها .. بكت ناديه مر البكاء .. وهي التي قد آلت على نفسها ان تغرس في نفس الفتى الذي تحب بذور الحقد والكراهية .. وها هي ذي غرستها الاولى ! ! .

ودخل وحيد في اليوم التالي الجامعة .. فكان اول ما وقعت عليه عينه ان رأى صاحبته برفقة طالب ، ضئيل الجسم ، قميء ، ما فوق اذنه اليمنى دملة زرقاء بحجم البرتوقة لا تنفتيء ، وفي عقله مس يتخذ منه الطلبة اضحوكة كلما قام فيهم يخطب في غير ما مناسبة متأتأ ! ..

وقد بصرت ناديه بوحيد ينظر اليها في دخوله ، فراحت تمعن في استثارة كراهيته ، ذلك انها التفتت الى صاحبها ذي الدملة الزرقاء ، وجعلت تحدثه بشغف ، وتنصت اليه باهتمام ، وتنظر اليه في ذلك نظرات التقدير والاجلال ! ! ..

فاذا دخلت ناديه المدرج ادنت هذا المسخ منها ، وجعلت تميل الى كراسه اثناء المحاضرة لتسد منه ثغرات في كتابتها .. ووحيد من خلفها يشهد ذلك كله عن كثب ، ويحترق من الغيظ ، ويتلوى من الالم .. ثم هو لم تعد به طاقة لاحتمال رؤية ما يجري امام ناظريه .. فقام — على مرأى من ناديه — وغادر المدرج ...

ووقف امام باب المدرج يستعيد الصور .. ويحاول ان يبرر ما يلمس من صاحبته من تصرفات نكراء .. ولكن منطقه خانه ، فلم ير لهذه التصرفات من مبرر او دافع ! ..

وظل في موضعه حتى نهاية المحاضرة الاولى يترقب خروجها . ولكنها ما بارحت المدرج .. فلما دخل اليه رآها بجوار صاحبها ذي الدملة تتحدثاليه وتمزح ، بالاهتمام ذاته الذي احس به من قبل ذلك .. فعاد من حيث اتى .

فاذا شارفت المحاضرة الثالثة والاخيرة على الانتهاء كان وحيد يقف في مواجهة باب الجامعة تحت شجرة نخيل باسقة ، مستندا بظهره الى جذعها .. يتربص خروج الفتاة ..

وقد خرجت ناديه بعد منصرف الطلبة جميعا .. والى يسارها عزة ، والى يمينها ذو الدملة .. فاتجه وحيد صوبهم وهم اليه ساعون .. فلما بات على قيد خطوات منهم ، صاحت عزة بجذل :

— ناديه .. ناديه .. ها هو ذا الاستاذ وحيد ! .

ثم تقدمت اليه باشة الوجه تصافحه ، بينما راغت ناديه وصاحبها وتابعا المسير .. فعقدت المفاجأة لسان عزة ، وقالت تستوضح وحيدا :

— ماذا ؟ .. هل من سوء تفاهم جديد ؟ ! ..

على ان وحيدا كان ينظر الى ناديه نظرات المقت والحقد الشديد ، وهو يصرف باسنانه بعنف من غيظ في نفسه كظيم . ثم ما لبث ان قال :

— هذه الحشرة التافهة .. ما خطبها ؟ ! ..

فصاحت عزة في دهشة :

— الله ، الله ! .. ما الحكاية يا وحيد ؟ ! ..

— ناديها .. اريد ان اكلمها .. للمرة الاخيرة .. اريد ان اعرفها بمدى قيمتها ! ! ..

— .. .. ! !

— هيا اذهبي اليها ! ..

فلحقت بها عزة مسرعة ، واستوقفتها في الشارع ، تحت النصب ، وافهمتها ان وحيدا في غاية من الغضب والانفعال ، وانه يطلب مقابلتها .. وهنا صرفت ناديه صاحبها المسخ ، وانتظرت الفتاتان وحيدا حتى اقبل ، وامارات الغيظ تتطاير من احداقه .. فسار ، وسارتا الى جواره ، لا ينبسون بكلمة واحدة ..

فلما خطوا بضع خطوات في الشارع العريض المؤدي الى الترام ، قال وحيد بصوت يابس :

— ما تقصدين بهذه التصرفات يا ناديه ؟ ..

اجابت ، والوجه منها اصفر كالليمون :

— ذلك هو طبعي ! ..

— الم تعلمي بعد انه طبع لئيم ؟ ! .

— بلى قد علمت .. ولكنه طبعي ، وليس لي منه مفر .. ايفر المرء من نفسه ؟ ! .

— اهذا مدى بلاغتك في الاجابة ؟ !

— رصيدي من البلاغة صفر ! !

— يا لك من فتاة متبذلة لك في كل يوم صديق ... ولكن شتان ما بين صديق وآخر ! ..

— في كل صديق ضرب من المزايا ! ..

— اظن ان في صديقك المسخ ذي الدملة الزرقاء من المزايا .. كونه اضحوكة للطلبة ؟ ..

— لا تمس الغير ! .

وما ملك وحيد نفسه اذ انشأ يقول :

— قبحت من حمقاء ، رعناء ، طائشة ، مجنونة .. الا لعنة الله على الساعة التي عرفتك فيها ...
اغربي عن وجهي ... انني والله لن احمل لك في نفسي الا كل ذكرى سيئة تليق بخلقك .. بل لن احمل لك في نفسي اية ذكرى ، لانك اتفه من ان يفكر فيك انسان ! ! ..

— لقد خشيت ، لو سرت في علاقتي معك الى النهاية ، ان ادمر لك حياتك ! ..

— خسئت .. انت احقر من ان تدمري حياة امريء ، ايتها البعوضة ! ! ..

وهنا .. لم تعد ناديه تستطيع ان تتمالك نفسها .. فادارت برأسها صوب حديقة الحيوان ، وارخت لمآقيها العنان لتذرف من الدمع ما يشاء لها التذراف ! ..

واستوقف وحيد سيارة اجرة كانت تمرق من جانبه .. ودلف الى داخلها .. والقى بنفسه فيها .. ولم يجب عزة وهي تناديه متوسلة ... وانما دفن وجهه في راحتيه .. وطفق يبكي ، لاول مرة في شبابه .. يبكي غرامه التعيس الذي ولد في الجامعة . وترعرع فيها .. ليموت وهو في مثل عمر الزهور ! !

★★★

ومضت السيارة تتهادى في الشارع العريض .. حاملة قلبا قد اصطلحت عليه الهموم .. مخلفة قلبا آخر قد اثقله الاسر واثخنته الاحزان جراحا ! ...

وقالت ناديه ، وهي تشرق بدمعها :

— لم يكن ، يا عزة ، من ذلك بد .. ان في تصرفي هذا لتنطوي الرحمة والاشفاق على الفتى الذي احب واهوى !

ثم القت الفتاتان النظرات الاخيرة على السيارة .. وهي تغيب في منعطف الطريق .. لا تلوي على شيء .

حلب — فاضل السباعي

قصة
قلب

*

بالامس كان
متلظيا مثل السعير
قلبي كبركان يفور
حتى اذا نفذ اللظى
اضحى لظى ـ اضحى دخان
قلبي الذي بالامس كان
عذبا كأنفاس الربيع
او كالندى
يبكي على الليل المباح
وعلى خدود الورد يبسم للصباح
قد كان اوسع من خيال العاشقين
يسع السنين
قلبي الذي بالامس كان
يلهو ويمتلك الزمان
والارض والنجم البعيد
والسحب والنسمات والفجر الوليد
وحديثها يوم اللقاء
والنظرة الكسلى تلوّح بالوصال
لا لم يكن صعب المنال
حبٌ يغذيه الوفاء
بالنور يخفق والرجاء

*

بالامس كان
كالطفل يرعاه الحنان
يلهو ويمتلك الزمان
حتى اذا ازف الفراق وراح يبحث في جنون
عن عينها بين العيون
هربت وقد ازف الفراق
بئس الفراق بلا لقاء
ويعود مكلوم الرجاء
يتوعد القدر الغشوم
وتمر ايام الفراق ثقيلة مثل الغبار
يجثو على رئة السقيم
ويعود يحلم من جديد
بلقائها ... بهوى سعيد
حتى اذا نفرت يردد في ذهول
متوعدا « قد عدت ان شئت اغضبي
او فاهربي
لكن ستبقى في دروبك لن تموت
ذكرى الهوى ابدا ستبقى لن تموت »

*

قد كان ... كان
يلهو ويمتلك الزمان
قلبي الذي عرف الحنين
وبكى كما يبكي الصغار
في كل حين
ما زال يمتلك السنين
وما تنوء به السنون
من الهموم
تعبى كليل الصيف تثقله النجوم
اضحى كأوراق الخريف
صفراء اذبلها اللغوب
حتى اذا سقطت ترفرف كالجناح
غبراء تحملها الرياح
غابت كعين الشمس تغمض في المغيب
بالامس كان
متلظيا مثل السعير
قلبي كبركان يفور
حتى اذا نفذ اللظى
اضحى لظى .. اضحى دخان

بغداد — عبد الوهاب عبود الغريري

قصة شاعر

بقلم الفرد خوري

على منحنى حالم من منحنيات الكورة الدائمة الخضرة، يغفو على انفاس الصنوبر والسنديان والوزال، بص شاعرنا نعمان نصر النور، فاذا في المنحنى هزة ورعشة، وفي الشحارير طرب وترنح، وفي النسائم وشوشة وهمسة. ترى، ايولد الشاعر كما يولد سائر الناس؟ اينحدر من المجهول كما يفد كل شخص لم تكتب له الحياة ان يحدث دويا؟ ألا تحلم الطبيعة بميلاد شاعرها المنسلخ من حناياها الذي سيبثها نغمات الحب ويوقع على اوتار الجمال؟ أنى لنا ان نكشف عما يسري في عروقها وينبض في اعصابها؟

هي قرية يلفها السحر ويخادنها جمال عتيق وتواكبها الفتنة منذ ان كانت الفتنة... هي فلحات من المنفسح الشمالي من لبنان لا تزال ترشق المتوسط بغمزاتها المغناجة واذا ما امالت جيدها رات جبال الارز تسكب عليها من ظلالها وحبها. بقعة من هذا التراب شهدت بناء دير البلمند الذي رافق التاريخ، وترددت في واديها وشعابها ومنعطفاتها تواقيع نواقيسه، وعاصرت جهاد رهبانه يوم كان الراهب ينطوي على ذاته، يعتكف متعبدا متأملا يذيب نور عينيه على سواد الحرف، ولا يتوانى عن ان يسقي التراب عرق العافية.

في حياة نعمان نصر قصة رائعة بأروع ما في السير في الوان البطولة. قصة شاعر انسان غالب اليتم ومرارته والفقر وحرمانه، فكانت حياته في صميم النضال والكفاح والعراك... واني للفقر ان يثبت في وجه العبقرية؟ ويسلخ شاعرنا عهدا حلوا من صباه يتسلق التلال ويتتبع الشحارير ويواكب مزامير الرعاة فيعمر قلبه بحب الطبيعة فاذا به يعب بنهم من جمالاتها.

ان في عيني الصبي نورا نفاذا وذهولا بعيدا وفي نفسه حلما قصيا. ان في اعماقه نزوات لا تهدأ ولا تستكين. انه قلق فلا تروق له هذه الحياة الساكنة المتواضعة. ان الحياة تضطرب فيه، وتدفعه بان لا ينجر كما انجر سواه على الدروب دون ان يتركوا اثرا.

وكما للفجر ان ينبلج، وللنور ان يتفتق، وللنسيم ان يسرح، وللنبع ان يصطفق، وللعنادليب ان يصدح، وللزهر ان يبوح بأريجه، وللموجة ان تهمس، وللبرعم ان يستفيق، وللديمة ان تهمي، هكذا للشاعرية ان تتفجر بكل ما في التفجر من ثورة وانفتاح وانطلاق. وما سيتبقى لنا من قيم الحياة اذا مات النغم في الوتر واختنق الصوت في الشعر؟؟

ويكدح نعمان نصر غضون الحرب الكبرى الاولى يوم كان الناس يتناثرون كالخرق البالية على الطرقات والمنعطفات ويرمي بنفسه في متاهات الدروب المزروعة بالعفاريت المنقضة على بني آدم ترتوي بالنجيع وعلى حساب الاطفال الخاوية بطونهم. يسعى الى ارتشاف العلم يحدوه نشاط غريب مزقت قدماه دروب « المحيدثة » حيث اسس العلامة الشيخ ابراهيم المنذر مدرسة توافد اليها الطلبة فكانت منارا يهتدى به. سعي حثيث الى العلم العصي المتداني من المستحيل. وما تنفست الحرب وعاد للانسان شيء من ايمانه، وعاودته مسحة من طمأنينة حتى كان فتانا في قوافل الطلبة المرتادين مناهل العلم في مدرسة الفرير في طرابلس... وفي هذه الفترة من الزمن تعرف الشاعر الظمىء الى شيء من بلاغة العرب وتنشق شيئا من نفحات الادب الفرنسي. ويرتد الشاعر الى قريته بعد ان عانى من آلام الحياة ما عانى. واني يتسنى للقلم ان يكشف عن التجارب التي اجتازها في تلك المرحلة من العمر؟ راى ابناء تلك القطعة في لبنان يصبون للعلم ولكن اين الوسائل؟ فقام بايمان مسعور يؤسس مدرسة تضم في كنفها القرويين الذين تقذفهم الفاقة الى وهاد الجهل. وهنا تصدى الى تحطيم العراقيل التي نسجتها عناكب الناس الذين لا يروق لهم العلم خوفا منه على مراكزهم « المرموقة ». أسس مدرسة وليس لديه الا ايمان في النفس ومحبة منهمرة مستمرة. وفي تلك المدرسة نظم نشيده العذب:

دمت يا صرح « الصفا » — صرح انس وصفـــــا
ناصرا كي نقتفي — منك مجد الوطن

يا رفاقي اسرعوا — شددوا آمالكم
وعلى المجد اقرعوا — يفتح المجد لكم

نحن فتيان الادب — أمل الآتي العتيد
سوف نحيي للعرب — عصر هارون الرشيد

نكره القيد ولو — قطعوا اوصالنا
ونحب الموت أو — ننجز استقلالنا

هذا هو النغم الذي كانت تبعثه حناجر ابناء الكورة في صبيحة كل يوم من على الشرفة المطلة على المتوسط فيغلغل في الهضاب والوادي السحيق. ولك ان تتنشق الشميم المنبعث من هذا النشيد. وتخيل القرويين في تلك الفترة تتدحرج على السنتهم كلمات مجد الوطن — هارون الرشيد — العرب — تقطيع الاوصال — الاستقلال.

ولكن الموت العاتي لم يمهل ذلك القلب الكبير فأبى الا اسكاته؛ وينطفىء النور في العين النفاذة الذاهلة؛ وتمزق العاصفة القيثارة اشلاء مبعثرة متناثرة في الثامن عشر من كانون الاول سنة الف وتسعمائة واربع وعشرين ١٩٢٤. نعم، ان الحياة لم تتح له أن يمر على الارض اكثر من اثنين وعشرين عاما. مات الشاعر المعلم

الانسان على مشهد من طلابـــه في صفه . لقد اختلـــج الاختلاجة الاخيرة على خفق افئدة الناشئة الهالعة الواجفة. لقد اكتفى من دنياه ان تزود بالنظرة الاخيرة الى الفتـــوة تدعو وتبتهل . وانت لا تمر على تلك الطريق الا وترى بقعا من الدماء وبقايا من ريش النسر .

لقد ترك فتى قلحات في هذه اللمحة من الدهـــر نفحات شعرية عجز الكثر من اقرانه عن ارسالها . لقـــد كتب بدماء قلبه النازفة سطرا خالدا في خاطرة الزمان . فما اقيم مهرجان ادبي في الكورة وطرابلس حتى وفـــي بيروت الا كان نعمان نصر يرقص عيدان المنابر ويحـــرك دخائل النفوس ويداعب الاباء والشمم . وها هي مجـــلة « صوت المرأة الجديدة » تفتح للفتى صدرها لنفثـــات قلمه وهمسات قلبه ونزوات ثورته . أقول : ان كان الشعر العربي لعبا على الالفاظ وتركيبا غريبا وتغييبا للمعنى في ركام من الكلام ، أو كان صقلا وتزويقا فقد قصر عنه شاعرنا الفتى . وان كان الشعر تعبيرا عن النفس التي تتغشاهـــا الآلام وتعصف فيها الثورة ، واستيحاء للطبيعة ، وحركـة عفوية لا اجهاضا وتعسفا وتكلفا ، فقد أبدع ايما ابـداع . ان نعمان نصر قد مسح الحرف العربي باحساسه وطيبـــه بعبير نفسه ، وقد اشربه كل ما فيه من عزم الشباب وقوته. وفيما اطلع على ديوانه « شقائق النعمان » الذي نشر بعـد وفاته تأكد انه وضع اصبعه على امراض بلاده التي تنهش رئتيها . لقد وعت نفسه آلام وطنه فأخذ يضمد جراحهـا فعكف على الحرف يحمله شظايا نفسه :

ولقد وقفت لدى البلاد أرى بهـا … السكـان في حضن الخمول نياما
وأدرت طرفي في الجهات مصعدا … زفرات آلام تزيــد ضرامـــا
اطلقتهـــا وشفعتهـــا بمدامع … تهمي على صحن الخدود سجامـا
ما المتني ذي الحياة وان يكـــن … كاساتهـــا مملوءة أسقامـــا
ما ضرني الا غضاضـــة امـــة … عقدت مع الحظ الشقي ذمامـــا
دهيت باصناف العذاب واصبحت … ما بين اشداق البلاء طعامـــا
نلقى نبوغ الفكر في افرادهـــا … والضعف في مجموعهـــا اقوامـا

ان نعمان نصر عين تبصر المرض فلا تتقزز ، وعين تعي الانين ولا تشمئز . انه من يسكب من حنانه في فيض محبته على وطنه المتألم .

يا ويحكم اتعلقون رجاءكـم … بالمفسدين أسافلا ولئامـــا ؟
من كل مختال خسيس النفس قد صلى على دين الفلوس وصاما
أم تطلبون الخير من قوم غدوا … نصبا بدور الحكم او اصناما ؟
عربية اوطانهم لـكـــن اذا … ما حدثوك تخالهـــم اعجامـا
يترفعون هنا على ابن بلادهم … ولدى الاجانب يخفضون الهاما

ألا ترى الصدق يرف على هذه الابيات ؟؟ تنصت الى هذه الهمسات الحلوة اللاذعة . دعك من الصياغة الشعرية وتحسس هذه اللفحات المطوفة على أجنحة الحرف . أو لا ترى توقيعا واحكاما ؟ فلنكن منصفين !! ثم انظر كيف يقف عند ارض بلاده :

الله من ارض يفيض ترابها … عسلا ويمطر جوها الهامـا
يمشي الخيال مع الجمال بجوها … متعانقين صبابة وهيامـــا

لا شك انك وقعت على حرف مبتل بالعاطفة وعـــلى سياق متناغم شجي . ويومىء لك الشاعر ان فيه مـــن الغليان اكثر بما لا يقاس مما صبه في قالب الشعر .

ويحث الشاعر الفتى ابناء قومه على الاستقلال ، انـه يؤمن بحيوية هذه البلاد ونزوعها الى التقدم . ويتراءى له هذا الاستقلال من خلال غيوم داكنة سحماء :

الام الام نقنــع بالقليـــل … ونرضى العيش في ظل الخمول؟
وينعم غـيرنا بالعيش حرا … ونفني العمر في قـال وقيل
اليس لنا كمـــا لهم قلوب … تثور بهـا براكين الميول ؟
اليس لنا كمـــا لهم نفوس … تود الانعتـاق من الـكبول ؟

لا ادري اي عطر يضوع من هذه الابيات واية نفحـة تهب الى النفس وتنعشها . لقد أضنى الشاعر ان يـرى الشعب متهاونا فعمد الى هذا الاستفهام يحثه الى الانعتاق، الى تحطيم القيود . وترضيك اضافة (براكين الميول)

وشاعرنا الفتى مهما استرسل في عاطفته او سما في وصفه فهو متعمد ان يتصيد فكرة في اكثر قصائده . ففي قصيدته « صلبوه » يدعو ابناء قومه الى الاستشهاد كمـا ختم المسيح رسالته بدمه :

انما الحظ فرصة وتفوت … والمنى ما تحوكـــه العنكبوت
وهو المجـــد رغبـة وثبوت … فابلغوه جميعكم او فموتوا

شهداء الهوان في سوريا

وكاني في قصيدته « اليتيم » يصور لنا يتمه ومرارته فاذا على كل حرف اثر لدمعة وعلى كل قافية شهقة وانـة. ثم يخلص بفكرة معاضدة اليتيم واحتضانه .

قل لقاس يعيش دون شعور … ولقوم تمسكـــوا بالقشـور
ان فلسا تعطونـه للفقـــير … لهو خير من الف صوم كبير

غاية الصوم ان نعين اليتامى

اليتيم لا يمسي يتيما في امة تفهم الانسان وتعرف مرامي العطاء . وانظر الى ((**تمسكوا بالقشور**)) كم فيها من الايحاء .

وينفجر النداء من قلبه الكبير الى نواب لبنان الذين يتسلمون مقدرات هذا البلد الحبيب :

هل فيكم من قائـــل فعال … حي العواطف صالح الاعمال ؟
ثبت الجنان بكل مشكلـة له … بأس الشباب وحكمة العقال ؟
هل فيكم من ليس ينخر قلبه … سوس التعصب دائنا القتال ؟
هل فيكم من ليس يجلس صامتا … متربعا في الصدر كالتمثال ؟

اقولها ثانية انه راى بعين نافذة الى الاعماق الـــداء الناهش . وهذا الداء لا يزال ينزل ضيفا في سويــــداء القلب . استفهامة محرور . وعاطفة أذكاها الشوق الـى الخلاص .

وهو معجب بالامير فيصل بن الحسين فيمدحـــه بأبيات قوية فخمة اللفظ :

هو الملك الـذي عمت يداه … بني الاعراب احسانا ورفدا
ابو الهيجاء وضـاح المحيـا … كنصل السيف لكن ليس يصدا
مثير عجاجها والنقـــع باد … وخائض غمرها جزرا ومـدا

وهذه الابيات لا تنقصها جزالة اللفظة وفخامتهـــا . والكلمات تتراقص على موسيقى ترتمي أصداؤها في قرار هادىء .

وكان للمرأة نصيب في شاعريته الفياضة . ويبدو لنا انه شكا تباريح الحب :

أنا لو كنت كالهزار المغنـــي نحو غصن‌اطير من فوق غصن
لجثمت المساء اسكب لحني في كؤوس الهوى فتاتيك مني
نغمة تسمعينها في سكونك
أنا لو كنت كالهلال المنـــير في‌الدجى ذا أصابع من حرير
لتسللت من خـــلال الستـــور جاثيـــا خاشعا ازاء السرير
لاثما بالشعاع نبل جفونـــك
أنا لو كنت‌في الورى سلطانا ذكره العذب يملا الاكوانـــا
لتركت القصور والتيجانـــا ولعفت العروش والصولجانا
كل هذا بنظرة من عيونـــك

أرأيت هذا التمني البريء المليء بالحرارة والشوق ؟ وان الحياة بكل ما فيها وعليها لا توازي بسمة من بسماتها ورفة من عينيها الحلوتين !

ومن لك بعاشق يقتنص لحن الهزار ليسكبه‌في اذن الحبيبة ؟ ويتمنى ان يستعير رقة الضوء وخفته ليبلـغ سريرها باصابع من حرير ، ويعاف العرش ويحطـــم الصولجان على قدميها ؟

ولا يزال يضنيه الشوق ويأكل من حشاشته ، ويلج فيه الحنين ، ويذكر الحبيبة في اصباحه وامسائه ويعـد خطاها الناقرة الارض الخاطة الجمال والبهجة في الحياة :

سائلاها كم عذبت بنواهـــا مغرما يبتغي منال رضاهـــا
وكم استنزفت‌عصي دموعي وفؤادي‌في الحب‌ما ان عصاها
وكم استاسرت‌حشاي المعنى واباحت دمي لها عيناهـــا
وانثنت توسع الخطى وانا من فرط شوقي لها أعـــد خطاهـا
فاذا ما سرى النسيم مساء خلتـــه ينحني لكيما يراهـــا
واذا ماشدا الهزارعلى‌الافنان صبحا اخال ذاك غناهـــا

حب طاغ جارف ملك عليه نفسه . فأحب بحبهـــا الغصن والطير والنسيم . الطبيعـــة شغوفة بهذه الحبيبة وكل شيء جميل يذكره بها ويصبيه اليها .

وله في المرأة وصف يبلغ الروعة في صميمها :

كشفت عن الصدر الجميل كأنــــه لـــوح الجمـــان
يترجرج النهـدان فيــــه ومن جـوى يتعانقــــان
صبغـــت يمـــين الحسن خديهـــا بلـــون الارجـــوان
لهب الجحيم حكاهمـــا وهمـــا بقلبي جنتـــــان

ما الذي يقذفه ذلك الصدر من الفتنة ؟ ما الذي ينفثه من العبير والارج ؟ اي شهاب من النار يبعث ، ونار ترخي في القلب ظل طمأنينة ؟ والنهدان متعانقان من جوى صورة حلوة على براءتها .

ولتناثر الثلج ورجرجة الزلزال واصفرار الورق في الخريف وافول العام وتكسر الامواج ترجيع في نفسيـــة الشاعر وله في كل هذا قصائد يعمر بها ديوانه « شقائـق النعمان » . لقد أحب هذه الطبيعة الساحرة وارتمى في احضانها وعب من جمالاتها وتأملها فافرغ ذاته فيها وافرغت ذاتها فيه ، فارسل في الحرف العربي قصائد وجدانية فيها خطرات ورمضات تحدث عن شاعرية ثرة .

ولعل قصيدته « الامومة » التي نالت قصب السبق في موضوع الامومة الذي اقترحته مجلة « المرأة الجديدة » والذي اشترك فيه المرحوم الشاعر فوزي المعلوف ، هي من احلى انتاج هذا الشاعر ففيها يتشابك ذوب العاطفة‌والحنين والنداء الصادر من اعماقه واحاسيسه ، وفيها شميم عبير الامومة الخالدة :

امي ! أهذي سنة الارحـــام تتعذبـين لراحتـي وسلامـي
تشقين‌ان اشق وتنتحبين ان أبك وتشتركـين في آلامـي
يا فجر آمالي ومغرب شقوتي ياطيب مبتدئي‌ومسك ختامي
ياشمس ارشادي‌وبارق‌بهجتي وضياء أفكاري ونور ظلامـي
ما كان اسعدني صغيرا هادئا في حضنك المملوء بالانعـــام
أتلو أقاويلي عليـك مثرثرا ومن الاشارة تفهمين كلامـــي
يا ليتني‌ما زلت مضطجعاعلى مهـد الطفولة مرتـع الاحلام
يا ثغرها مذ كنت أعذب مورد بلماك كم ارويت حر اوامـي
ياضعف‌زنديها بحق كنت لي من نائبات الدهر اعظم حامي

الورد تنثره الرياح عواصفا فيبيد تحت مواطىء الاقـدام
والمجد يفنى والاماني تنقضي ويدالردى‌تسطو على الاجسام
لكن حبك سوف يبقى خالدا يا ام ! رغـــم تواتر الايـــام

غص الى هذا الحرف العبق بعطر الامومة . فمـــاذا ترى فيه غير ام تفنى – في طفلها وتذوب فيه فتمســـي الامه الامها وهناءته هناءتها . هي فجر اماله ومغرب شقوته تمسح بأنملة جبهته فاذا به‌يحس‌بنشوة‌وانتعاشة . وماذاترى غير طفل يتمسح باذيال رداء امه وغير حضن رحب حنون وفيء ؟ ماذا ترى غير قبلة جريئة تنشق حجب الغيب على وهجها ؟ وماذا ترى غير اتصال روحي يفهم الام ثرثـــرة الطفل واخف اشارة من اشاراته . وحب الامومة خالد خلود الانسان . اي شيء لا يمسه ذبول وفناء وتناثر ؟ الامومة وحدها يقف الفناء على عتبتها منكسرا مندحرا ؟ اقول : اقرأ ، فهل لك ان تحبس الدمعة ؟ ثم انظر الى هذه النسج المشدود والقافية الكملى المفبفبة بهناءة .

هذا هو نعمان نصر الشاعر الفتى المعانق الابدية . سكت وفي حنجرته غناء وامسك وفي نفسه العطاء كل العطاء . . . برغم لفحته الحرارة ولما يزل نضرا غضا . . . شاعر لم يصنع كلام غيره ولم ينبش القبور ليكتسي باكفانهـــــم ، حـاك رداءه من عصبه ، من صميم نفسه . وهو على حداثتـــه فجر في الحرف جمالا وانبعث حرارة . ولم يلعب علـى الحرف ليخفي عجزا وعياء . وهو على حداثته روض القافية القسية على غير عنت .

فانت الان امام شاعر فيه الكثير من صفاء النفس يحسن الهمس والشكوى والنجوى ويلهب الحرف بثورة ايمانه الذي لا حد له بقومه .

فاهنأ ، يا شاعرنا ، في غمرة الخلود حيث تزول فـي فسحاته الطمع والجشع ولن يبقى الا الجمال والمحبة .

الجامعة الامريكية بيروت الفرد خوري

في ريفنا

لا احلى ، ولا اشهى من ليالي كانون في ريفنا
الساعة عندنا اكثر من ستين دقيقة
والسهرات... كتاب ضخم كل كلمة فيه حكاية عن المحراث، والبيدر « والجلال » السمر .
لكانون رهجة في نفوس القرويين .
يتربعون حول الموقد مستانسين برائحة حطب السنديان ، والملول ...
ويقصون ... قصة البركة ، والقلال التي غصت بالغلال .. حتى لتشعر معهم — متناسيا طمع ابن آدم — ان الدنيا ... سنبلة ، ومعول ، وطلة على المرج .
جفون لا يعركها النعاس ، وأياد رشيقة تعرف كيف تقهر برد كانون بمغزل .
طيبة حياتنا في القرية . حلو هذا القنديل الذي لن ينوس ما بقي بيتنا لا يعرف الشح
شهية ليالي كانون ...
انى للصبيات الحسان شعر فاحم مثلها .
أنى للقصر المتشامخ في المدينة رائحة السنديان ، وخيرات الايدي المباركة ، وحكاية منغومة عن ارضنا

عرزال

لـن اهجر العرزال ... وقد اقمته على المتكأ الحلو ، المطل على المرج ... حبكته من ضلوع الحور ، وعروق الدفران ، والملول ...
وعلقت في سقفه ابريقا لا يعرف الا فك الجرار الحمر عندنا في البيت .
لن اهجره ... وقد قالت لي جارتي الحسناء ان الصبايا توشوشن على « العين » بأن لي عرزالا اجمل من خيمة الناطور ، وتمنين لو يطرزن زواياه في غفلة حلوة ...
وقال لي الراعي — ما اكبر رعيان بلادي — انني وحدي ارى كل بيادر الغلة في الضيعة ، واني والناطور وحدنا نسمع غصات منجيرته وسحبات « لياليه » ساعة تغفو الشمس ، ويلف القمر اشجار الحور السامقة بمشالح من فضة .
لا ... لن اهجر العرزال . حكاية الصبايا الرائحات الى « العين »
خيمة الناطور لن تبقى وحدها في المرج . ولن يستبد الناطور وحده بهدهدات النغم الحنون ، وغصات منجيرة الراعي .

جميل نمور

ومضات من رسالة بوذا

بقلم فهد ابراهيم

•

وصايا بوذا الثماني

– سعداء هم الذين يعرفون ، ومعرفتهم تتنكر لكل وهم او ادعـاء .

– سعداء هم الذين يصارحون بما يعرفـون بلطف وصراحة واخلاص .

– سعداء هم الذين يستهدفون بسلوكهم السـلام والشرف والنقاء .

– سعداء هم الذين يكسبون خبزهم دون ان يسيئوا الى احد ، او يهددوا حياة مخلوق آخر .

– سعداء هم الذين ينبذون الخبث والكبرياء والرثاء ، ليستعيضوا عنها بالدماثة والتواضع والمحبة .

– سعداء انتم اذا كرستم احسن ما فيكم للقيام على مراقبتكم ، والسيطرة عليكم ، على ما يعتلج فيكم من ميول ونزعات .

– سعداء انتم ، الى ابعد حدود التعبير ، اذا تمكنتم بهذه الوسائل ، من تحرير انفسكم من عبودية الانانيـة الشخصية .

– واخيرا ، سعداء هم الذين يجـدون السعـادة والاطمئنان في تأملهم وتعرفهم الى الحقيقـة العميقـة الازلية ، حقيقة هذا العالم ، وحقيقة وجود الانسان .

هذه هي خلاصة تعاليم بوذا المصلح الهندي العظيم ، اختصرها في ثماني وصايا او نصائح ، منذ قرابة ٢٥ قرنا ، فكانت ، وما برحت ، احد المشاعل التي يطلقها الشرق ، في حقب متفاوتة الابعاد ، لهداية الانسان ، والحد من شراسته ، والجام شهواته ، وتوجيهه وجهة الخير والحب والرحمة والايمان بالمثل العظمى والحياة .

ولم يهتد بوذا الى هذه الفلسفة الا بعد سلسلة مـن المشاق والزهادة والالام والحرمان ، قهر نفسه على تحملها ، سعيا وراء الحقيقة ، ونشدانا للاشراق الروحي ، والكمـال الانساني ، حيث يتبلور فيه الخيال ، ويستشف الوجدان ، وتنقى البصيرة ، فتتكشف له اسرار الكون وحقائق الوجود !

لقد اختار (غوتاما) هذا المصير – هذا هو اسمه الحقيقي ، واما بوذا فهو لقب معناه : « المستنير » – واعتزم تحمل هذا الشظف ، متخليا عن مجده العريض ، كامير من امراء قومه ، ووريث لعرش ملك دافق الخيرات ، طيـع الجنبات ! واقدم ، ببطولة تتحدى سائر البطولات ، ولا سيما اذ ندرك ان ذلك كله انما كـان وراء مثل اعـلى يستهدف خير الانسانية ، وخلاصها مما تعانيه من آفات ! أقدم على هجر زوج وفية حسناء ، وولد وحيد كان يرى آمال الدنيا معلقة عليه ، الى جانب المغريات التي تدعوه بالحاح الى التمسك باسباب الرغادة وتلابيب الوجود !

التجربـة المأسويـة

في ليلة ارقه خلالها التفكير فيما آلت اليه الحيـاة حوله من فوضى وبأساء ، وما راح يسود علائق الناس من مكر وخبث ورياء ، ويفشى مجتمعاتهم واجواءهم من رذائل وموبقات ، هب (غوتاما) من فراشه ، وقد انتصف الليل ، ورقت حواشيه لوسنى العيون ، فاستسلمت للكرى الهنيء ، هب واقفا وقد لمعت في عينيه شرارة العزم والمضاء ، واستبد به هاتف داخلي يدعوه الى الانعتاق والانطلاق وراء رسالته العظمى التي اعدها له القدر !! وقف يتأمل شريكة حياته المحبوبة وولده الحبيب ، يغطان في نوم عميق ، جاهلين ما يخبئـه لهما الدهر من تنغيص وحرمان ، ينشق عنهما غد ، تؤرخ فيه هجرة فذة ، تأتي بالطمأنينة والايمان لمئات الملاييـن من الخلق التائهين الضالين ! ! وكانسان من لحم ودم ، لـم يستطع امام هذه التجربة الهائلة ان يمنع دمعات ملتهبة من الهميان على جفونه المسهدة ، ووجنتيه الشاحبتين ، وكانه احس بالخور ، فخاف الانهزام ، فاسرع الى القاء نظرة وداعية اخيرة على احب الناس اليه – زوجه وولده – ثم انطلق يعدو في ظلام الليل ! !

كان ذلك في حدود السنة الخمسمئة قبل المسيح ، وكان عمر (غوتاما) ٢٩ عاما ، وكانت الهند تجتاز مرحلة قلقة ، تصطرع فيها شتى العوامل ، وتعتمل في نشئتها ميول صوفية مترجرجة ، تحاول ان تتجسد في مفهـوم عام ، يلقي على الوجود والحياة لونا رائعـا مـن الاستتباب والاستقرار .. وكانت نزعة مغالبة قوى الشر والفساد ، بقهر النفس ، وعن طريق العذاب والالام ، والزهادة والنسك قد عمت ارجاء الهند ، وذلك بقصـد تهـذيب النفس ، وخلاصها من شوائب المادة اللاصقة بها ، والتي تقصيها عن التمتع بجلال المعرفة ، وجمال الطيبة ، والانعتاق من قيود الارض ، على اعتبار ان لا شيء كالالم يطهر النفس والوجدان ، ولا بد من مقاومة النزوع الى اللذاذات ، واهراق معيـن الانانية ، واهدار دم الكبرياء ، اذا صبا المرء الى الصفـاء الكامل ، والاندماج الكلي في حقيقة الكون العظمى ، وسر الحياة الازلي ، وكنه الوجود الابدي ، مما تقتضيه طبيعة التقمص وما يلازمها من صوفية ، ويستتبعها من تشوق الى السمو وتطلع الى الكمال .

ولذلك لم يكن من المستغرب آنذاك ان يشاهد شبان من مختلف البيئات والطبقات ، وقد استولى عليهم الحزن والقنوط ، مما يرونه من سيطرة الشر على العالم ، وتفشي الاحتيال والفجور بين الناس ، يهجرون ذويهم وبيوتهم ومعارفهم واوطانهم ، حيث الدفء والايناس والاطمئنان ، ليتيهوا في الغابات والادغال ، حيث الاخطار والجوع والحرمان ، لا يملكون سوى سلال او اكيال يستعملونها في استجداء بعض الغذاء ، كلما اشتد بهم الجوع وهددهم الفناء !

وهكذا كانوا ينشدون استنارة الروح ، واشراقـة القلب والعقل ، باماتة شهواتهم ، واذلال انانيتهم ، والاغراق في تعذيب انفسهم ، وهدفهم فجوة من فجوات النـور ، تنفتح امام ابصارهم وبصائرهم ، فتغمر كياناتهم واعماقهم بالق المعرفة ، وضياء الحقيقة ، ووهج السلام والامان !

ولكن الوصول الى مثل هذه الدرجة من القداسة ليس في مكنة اي كان ، كما ان احتمال ما يتطلبه هذا السلوك ، لهو فوق ما تعورف عليه من طاقة البشر العاديين ، وكان لا بد لهذه النزعة من ان تتكشف وتشتـد في فـرد موهوب

فتمتلك عليه حواسه ولبه ، وتقسره على المضي في سبيل تحقيق الغاية منها ، فكان ذلك الفرد الموهوب (غوتاما) الامير النبيل ، الذي رايناه يهجر دنياه الرخية ونعيمه الارضي ، الى الغابات والادغال ، يصحبه خمسة من الرفاق ، آمنوا بمواهبه ، وآلوا على انفسهم ان يقاسموه المصير . وكانوا ، لفرط احترامهم اياه ، يقضون اوقاتهم حوله ، وهم يتأملونه في غيبوباته الحالمة وصمته العميق !

وانقضت ست سنوات على هجرته ، ذاق خلالها ما لا يقوى على احتماله الا الشهداء والمرسلون المختارون ، حتى بات من فرط الضعف والهزال هيكلا عظميا مخيفا ، وخيالا يبعث على الرعب ، مما انضب معين المقاومة فيه ، وشل جهاز تفكيره ، فهوى ، اثر نوبات حادة عنيفة من التشنج والالام ، فاقد الحركة والاحساس .

وافاق من اغمائته ، متلاشي القوى ، صريع الجلد ، خاوي البصر والخيال ، وهنا اكتشف انه ، لكي يستطيع اختراق حجب الغيب ، واكتناه سر الكون ، والوصول الى الحقيقة الرائعة ، عليه ان يتبع خطة متوسطة ، او طريقا وسطا ، من التقشف والزهد ، واماتة النفس ، اي ان يكون « معتدلا بين محاربة شهوات الجسد ومغريات الوجود ، وبين المحافظة على حيويته ونشاط الحواس » . وعالن رفقاءه الامر ، فابوا عليه هذا التراجع ، ونعتوه بالجبن والحنين الى ماضيه ، وتركوه وحيدا يجد في نشدة الحكمة العليا ، ومضوا في سبيلهم مستقلين !

لقد كانت خطته الجديدة ان يعمل على ابقاء كيانه النفساني في يقظة تامة ، مع المثابرة على مقاومة كل ما من شانه ان يعيده الى حظيرة الحياة الترفة ، اي ان يكون نسكه وتصوفه منسجمين مع القوة الاحتمالية فيه ، حتى تتم معجزة الاشراق الروحي والعقلي ، فتنداح عن عينيه غشاوة الجهل ، لتتالف اشعة الحكمة ، وتغرب عن وجدانه ووعيه قتامة المسكنة والقصور ، لتشرق شمس المعرفة ، ويضيء كوكب الخلاص فيه !

لقد اقتصر طعامه على الارز ، يتناوله فطورا ، ولن يعود يأكل شيئا شديدا ، طوال يومه ، وقليلا ما كان يأخذ بعضا من الكعك في المساء . وقد افاده هذا النظام الغذائي كثيرا ، ليس من الناحية الصحية والنقائية فحسب ، بل ومن الناحية الارادية ايضا ، اذ اضحى من ابطال الثبات على العقيدة ، ومن جبابرة العناد الادبي ، والصمود المعنوي ، وفي هذه النقطة من سلوكه الفذ سر جديد من اسرار بطولته الخارقة ؛ وليس ذلك بالمدهش الغريب ، لان المعروف عن اصحاب الرسالات العظمى ، انهم ، وهم ذوو مواهب عقلية وفكرية نادرة ، يتمتعون بصلابة في الارادة ، وبقوة مدهشة على تحمل الالام ، ومجابهة الشدة ، بصرف النظر عن تكوينهم الجسدي . والمقول عن سقراط انه قضى ليلا كاملا وهو واقف يتأمل ويحلل احدى مسائله الفكرية على مختلف الوجوه . وكذلك فعل بوذا ، مع فرق بسيط ، هو انه اعد العدة للجلوس اذا ما خارت قواه ، وشعر بعدم قدرته على متابعة الوقوف ، تمشيا على خطته في حفظ فراهة وعيه ، استعدادا للساعة الفاصلة بين ماضيه الجاهل ، وفجر حاضره ومستقبله المشرق المنير !

لقد جعل اقامته تحت شجرة تين ، دعيت فيما بعد بشجرة الحكمة ، ولا تزال ذرية هذه الشجرة حية الى الآن ، لانهم ثابروا على استنبات بذورها على مر العصور . والذين يدفعهم ايمانهم لزيارة (بوذاغيا) يشاهدون هذه التينة ، ويتبركون بها ، حتى اليوم ! .. اقام بوذا تحت هذه الشجرة لا يبرحها ، وكأنه على موعد مع الحدث العظيم ... وفي منتصف ذات ليلة ، احس بشبه دوار يغشى روعه ، وبغيبوبة مسكرة تستولي عليه... وفجأة راح يرى بعين بصيرته ، سلسلة طويلة من العلل والمعلولات التي تنسل منها الانسجة البائسة لهذه الحياة ، تتهافت في دفق من نور يبهر الابصار ! وخلال هذا النور الساطع ، لاح له طريق الخلاص المؤدي الى الغبطة الابدية ! واكتفى بهذه النتيجة الرائعة يتوج بها جهاده الطويل ، مقتنعا بان الحكمة قد واتته ، والمعرفة استجابت له ، والحقيقة سفرت امامه عن وجهها الوضاح ، تدعوه الى هداية الناس ، والعمل على خلاصهم من جحيم الجهل الذي يهيمون فيه . نهرع الى رفاقه الذين انكروه ، وهم ما برحوا في مجاهلهم يفنون على بطء ، ينبئهم بنصره المجيد ، فلما رأوه مقبلا تهامسوا فيما بينهم قائلين :

« يجب الا نظهر له اي احترام ، وليعد الى لذاته الدنيوية حيث ينتظر الفناء ! »

ولكنه ما كاد يدنو منهم ، وقد بهرهم البريق المتالق في عينيه ، وما يحيط وجهه من هالة علوية للكرامة والنبل ، حتى احسوا بقوة خفية تدفعهم اليه ، فأسرعوا يرحبون به صائحين : « اخانا ... ايها المستنير !!! »

وهنا هتف بهم قائلا : « ايها الرهبان : لا تدعوا (غوتاما) بالاخ ، بل ادعوه (تاتا غاتا) ، وبوذا الاعلى » . ومن تلك اللحظة بات اسمه « بوذا تاتاغاتا » ومعناه : المستنير الكلي الكمال !

ثم قص عليهم رؤياه ، ونطق امامهم ، للمرة الاولى ، بوصاياه المدرجة في صدر هذا المقال . ويلاحظ انها قريبة الشبه بوصايا الجبل العشر ، رغم تباعد الزمان والمكان وتفاوت الخلق ، غير انها اكثر تشاؤما من وصايا الجبل فبوذا يعتبر ان الوجود ممزوج بالالم والشقاء ، وربما كان مرد ذلك الى ما يكتنف اصقاع الهند من فقر وادواء ، فكان لا بد من نشدان حياة افضل ، والتطلع الى جو روحي يسوده الاطمئنان والسلام !

« ان عذاب الانسان وشقاءه مصدرهما الجهل » ـ هذا هو ، في مجمله ، اكتشاف بوذا في ظل شجرة الحكمة :

« نحن مولعون بتمجيد اشخاصنا ، وعلى ظمأ لا يروى الى تبجيل هذه الانا » ـ « ولكن ليس هناك « انا » وما نحن سوى اشكال تحولية تنفصل ، اذ تتكامل وتشف ، من نبعة الاحداث والاشياء ! .. يجب ان نتخلص من وهم هذه « الانا » ، ومن الرغبات التي ترافقها ، ومن الجهل الذي يطوقها ! »

وهنا يوضح بوذا ما يرمي اليه : « الرغبة في تلبية العواطف ؛ الرغبة في حياة مقبلة والرغبة في نجاح سفلي . » ثم يقول :

« علينا ان نحرر انفسنا من الاوهام ، وان نملي على ارادتنا طاعة عمياء ، وان نحب قريبنا ، لكي نكون اهلا للوحدة مع الكون ، ونصبح ، بعد تخلينا عن كل رغبة ، قطعة حقيرة منه... ههنا يكمن سر السلام والغبطة العليا!! »

ورغم ان بوذا لم يتكلم عن الله ، فانه كان يؤمن بنظام معنوي لا يتاح لغير الوهة عادلة وذات جبروت ، ان تضبطه وتمليه . وقد كان يعتقد بان كل عمل طيب ملاق ثوابه ،

كنت معهم في السجن

*

لا اعلم بالضبط (١) مدى نجاح العلم والتوجيه في معالجة الفطرة التي تبعث على الاجرام.

ولكني على يقين بان حسن التوجيه المبني على الاسس العلمية والتجاريب التي اجريت بمقتضى تلك الاسس كانت ذات اثر كبير في معالجة ما يسمى (الاجرام بالفطرة) ، كما يتضح ذلك من مئات التجارب ، والبحوث التربوية التي تصورها بعض الكتب النفسية ، والقصص الواقعية ، والحوادث التي تشير اليها بعض الجرائد والمجلات .

ومثل هذه الجرائم المنسوبة للفطرة وان كانت اقل عددا من الجرائم الاخرى . ولكن ذلك لا يعني ان حوادثها قليلة ، وانها غير جديرة بالعناية والمعالجة والاصلاح ، فلقد ظهر ان هذا النوع من الجرائم اذا ما اغفل شأنه عاد على المجتمع بضروب لا تحصى من الوبال والاضرار وفساد الخلق واختلال الامن والنظام .

ويحوي تاريخ العراق في الفترات التي تفلت منها النظام قصصا غريبة عن الجرائم بداعي الفطرة ، وبعض تلك الجرائم مما يقزز النفس ذكرها ويقف لهولها شعر السامعين، ومع ذلك فلم تترك في نفس مرتكبها اي اثر ولا اي وقع ، ولقد روي عن لص انه راى طفلا يبكي فخشي ان يوقظ بكاؤه امه فتتحسس بوجود اللص فلم يمهل الطفل اكثر من ثوان حمله فيها من مهده ، ثم دس رأس الطفل في جب الماء ، وتركه يختنق على هذه الكيفية حتى تم له انجاز مهمته كأنه لم يأت بشيء منكر ، ولم يرتكب جرما .. !!

ولقد روي عن البعض وهو حي يرزق من ارباب الوجاهة المعروفين ، لقد روي عنه انه أمر بشد وثاق شخص والقائه في النهر لمجرد الرغبة برؤيته كيف يغرق متلذذا بهذا المنظر .

وروى لي مأمور السجن عن شخص بحثت عنه اياما في قلاع السجن فلم اجده وذلك لنسيان مأمور السجن اسمه وهويته ، لقد نقل لي عنه انه حدثه ذات مرة عن تلك الايام التي مرت ولم يكن فيها النظام سائدا ، ولا الحكم شاملا ، قال اني خرجت مع صديق الى الصيد ، وقد ظفرت بصيد كثير في ذلك النهار فعدت مزهوا بقوتي منتشيا بانتصاري مباهيا امام صديقي بما كان من اصابتي الاهداف حتى كادت تكون كل رصاصة بظبي من الظباء ، او طير من الطيور ، وجرى الحديث ونحن عائدان من الصيد في الطريق عن مدى اصابتي الهدف فقلت لصاحبي وقد مر فارس على مسافة بعيدة منا .

قلت له : اني قادر على ان اطلق الرصاصة من بندقيتي على ذلك الفارس فأرديه قتيلا رغم بعده منا . فضحك صاحبي وهو يعلم اني منجز ما اقول ، وتناولت البندقية من وراء كتفي وصوبتها الى الرجل فاخطأته في الرصاصة الاولى ولكني اصبته في الرصاصة الثانية .. ! ومررت عليه وهو يلفظ انفاسه ... !

وقال لي مأمور السجن ان هذا السجين نفسه قد حدثه في مقام آخر انه قد اطلق الرصاص على راعي غنم لمحض التفكه .. !! ورآه بعينه كيف يفحص الارض برجليه وهو ينازع .. !

ولم تكن هذه الجرائم التي حدث عنها بالجرائم التي عوقب عليها هذا المجرم لانها كانت قد وقعت له في زمن متقدم ، وليس هناك من مشتك ، ولا مدع خاص او عام ، وانما حكم عليه اليوم ـ كما قال مأمور السجن ـ لقتل طارىء .

وعلى اني سأفرد لغرائب الجرائم ـ وللشذاذ من

---

(١) سيخرج قريبا الى عالم المطبوعات كتاب جديد طريف في موضوعه باسم « كنت معهم في السجن » للاديب العراقي الكبير جعفر الخليلي وقد قضى المؤلف اكثر من ثلاثة اشهر في سجن بغداد مختلطا بالمساجين ، ومستقصيا اخبارهم واحوالهم حتى تم له تأليف هذا الكتاب الذي ننقل منه هذا الفصل للقراء .

وكل عمل شرير ملاق عقابه ، ويؤكد ان ما من حركة نفسية او جسدية تخفى على ذلك الناموس .

وهنالك عامل قوي ادى الى انتشار دين بوذا هذا الانتشار الكبير ، حتى يقدر عدد اتباعه ، بـ ٤٥٠ مليون بوذي ، الا وهو تسامحه الذي لا حد له ، اذ لم يرو تاريخ هذه الديانة الطويل ان احد تلامذته او اتباعه اعتدى على احد او انكر غيره بسبب انتمائه الى غير مذهب او دين . ولعل في قوله هذا ما يفسر تسامحه المنقطع النظير ، ورحابة أفق دعوته المسالمة ، فاسمعه يقول :

« لا تؤمن بشيء لمجرد انه شهد به من قبل حكيم قديم ... لا تؤمن بسطوة الاسياد والكهان ! .. بل آمن بما يتفق واختبارك ، ويوائم ، بعد درس عميق ، عقلك ، ويؤدي في النهاية الى ما فيه خيرك وخير باقي الاحياء ! »

والغريب اننا نرى في هذه الدعوة اول نداء لحرية الفكر ، واول توجيه لعبقرية الانسان ، فكأن صاحبها يعيش بيننا الان ، في هذه البلبلة التي يتسم بها القرن العشرون !

هذه هي رسالة بوذا ، وهذه هي فلسفته التي ما برحت ، منذ زهاء ٢٥٠٠ عام ، حية ، تزيدها الايام صلابة ومنعة ، وتفسح لتعاليمه القلوب قبل العقول !

وقد يدهشك ان تعلم انه ظل قرابة ٤٥ عاما ، اي حتى مماته عن ثمانين سنة ، مواظبا على التبشير برسالته ، بهمة وارادة وذكاء واخلاص لا مثيل لها ، اذ كان ينهض من الفجر، ويسير على قدميه مسافة ٢٥ و٣٠ كيلومترا يوميا ، في وادي « الكنج » وفي الهضاب والسفوح ، ليكرز على الجميع ، دون استثناء ، ودون النظر الى الطبقة او المذهب ، ودون ان ينتظر مكافأة من احد ، ويدلهم على الطريق القويم الذي اهتدى اليه ! .

ماذا يهمنا من آرائه ومعتقداته الخاصة بالكون والتي لا يمكن لاحدنا ان يستدرها وهو جالس تحت شجرة تين ؟ ولكن ما لا نستطيع نكرانه هو هذا الانسجام في تعاليمه ، وما ادت اليه من تحديد نبيل سعيد للحياة الى الموت في هذا الوجود !

جبال الالب ـ فرنسا **فهد ابراهيم**

المجرمين بالفطرة خاصة ــ كتابا مستقلا ارجو ان اخرجه بعد هذا الكتاب مباشرة فاني ارى ان هذا الفصل اهم بكثير من تلك الفصول التي ازمع النية على اخراجها فيما بعد ، والسبب هو ان الشاذ الخارج على القاعدة بعيد على الغالب عن متناول ايدي المصلحين لشذوذه ، ولمصادفة وقوعه ، اما هذا القسم الذي اعرضه عن الاجرام بداعي الفطرة فعلى الرغم من عدم خلوه من الندرة والشذوذ فانه كثير الوقوع نسبيا ، والعلاج في مثل هذه الاحوال معين ومضمون .

ومع ذلك فليست معالجة (المجرمين بالفطرة) من الامور الهينة اليسيرة ليستطيع كل احد ان يتولاها ، او يضع لها الخطط التي تكفل تذليلها ، وتلطيفها ، او محوها من جذورها ، لذلك كان على الحكومة ان تبادر قبل هذا اليوم الى الاستعانة بالخبراء الاجانب لدرس جميع الاحوال ووضع المناهج اللازمة للاصلاح ، والقيام بتطبيقها بجذافيرها لكيلا يتسع ميدان البيئة الاجرامية فيتأثر بها الكثير من الذين لم يفهموا الجريمة بعد .

ونسبة الجريمة اليوم في زيادة مضطردة ، ولكل ذلك عوامل وعلل ، لا يمكن التوصل اليها بدون عدد من الخبراء الاجانب ، ولا يبدأ الاصلاح لكل امر ما لم يتم الوقوف على علة الفساد ، واننا لنعرض هنا لونا من الجريمة التي تبثها الفطرة وقد سجلها اصحابها بمحض اختيارهم كنموذج لما نريد ان نجلب اليه اهتمام المسؤولين .

الفطرة في معرض الجريمة

محمود ابراهيم ابو الدكات ، شاب في الخامسة والعشرين من العمر ، مفتوح القلب ، لا يمنعه مانع من ان يبوح بكل شيء يعلق في ذهنه ، ولا يرى في ذلك ضيرا ، اما تسميته (بابي الدكات) فهو لان نقط الوشم كثيرة في وجهه وفي يديه ، وقد كانت له صورة طير من الوشم على ذراعه الايمن ، وصورة تاج على ذراعه الايسر ، فمحاهما (بجوهر الليمون والجويت) كما قال ، ليقضي بذلك على بعض ما يحمل من علامات فارقة .

قلت له ــ هل من بأس لديك ان تحدثني ببعض ما تذكر من الحوادث ؟

قال ــ ابدا . . . ولكن مثل اي شيء تريد ؟

قلت ــ اي شيء خطر على بالك .

قال ــ لا اذكر في بالي شيئا معينا ولكني اقص عليك ما اعرف عن نفسي ، فانا شاب كثير الاعتداد بنفسي لم اتذكر انني خفت مرة من شيء او اهتممت بشيء ولقد اديت الخدمة العسكرية معفوا من حمل السلاح بالنظر لفقدان احدى عيني نورها وقد وقع بيني وبين الانضباط والشرطة ، وكثير من الناس الذين يلاحقونني عدد كبير من المصادفات التي جرى فيها اطلاق الرصاص ، او استعمال السكين وغير ذلك تخلصا منهم ، وتملصا من ملاحقتهم اياي ، وان لي من تلك المصادمات علامات في كل بقعة من جسدي منها رصاصتان في احدى رجلي ، ورصاصة في الرجل الثانية ، واصابات من سكاكين وخناجر في كثير من جهات جسمي ! ! وقلما تجدني حين امشي اعزل من السلاح ، فانا اعتمد المسدس تارة ، والسكين اخرى ، واحمل (قامة) ــ وهي ضرب من السيوف ــ احيانا و (بوكسا) من البرنز احيانا اخرى ، وقد دفعت بي كل حالة لاستعمال نوع خاص من السلاح ، فكانت لي بسبب ذلك حوادث كثيرة مما تسمى (بالسوابق) في عرف الناس ، واطلقت لنفسي العنان لتعبث مختارة ، وغير مختارة ، اقول غير مختارة لانني قد اسرف في شرب الخمرة لحد بعيد ، وحينذاك تجدني افرض ارادتي فرضا على من تسوقه المصادفة امامي بدون ان اعدل عن تنفيذ رايي .

ولقد صادف لي مرة وانا تحت تأثير السكر ان طلبت من صاحب مقهى (جابخانه) ان يبادر الى اغلاق محله حالا وبدون توان والا احرقت له محله ، وقد بدا لي انه لم يصدق انني اعني ما اقول ، وان كان يعرفني حق المعرفة ، فاسرعت الى مقدار من النفط فسكبته على دكانه واحرقته ، ومن سجن التوقيف كنت اوصل تهديدي الى المشتكي ليسحب شكواه واذا كان لم يعرفني فسيخبره الذين يعرفونني بانني رجل عند كل قول اذا قلته .

وهنا سألت محمودا : ــ وفي كم حادثة احرقت المحلات ؟ !

قال ــ في حادثتين فقط على ما اذكر ؟

قلت ــ ثم ماذا ؟

قال ــ وحين افلس واجدني بحاجة وقتية ماسة الى النقود كنت اقطع الطريق ما بين (الجعيفر) والخارج ، فاصرخ في وجه المار واشهر عليه المسدس صائحا به بأن يرمي بما يحمل من النقود فيرمي بها ، وقد اطلب منه ان يتخلى عن البسته اذا وجدتها ذات قيمة .

وفي ليلة من الليالي المظلمة وانا ملثم لم يبن من وجهي غير عيني ، ومشتمل بعباءتي ، رأيت ابي يسرع في طريقه الى بيته فعضعضت بلثامي لئلا يعرف صوتي ، وصحت به عن بعد بان يرمي ما يحمل من نقود ، وينزع ثيابه ويبقى (بالفانيلة) والسروال والا اطلقت عليه الرصاص ، وكان ابي كثيرا ما قص علينا القصص عن شجاعته ، وفتوته وعدم تهيبه لاحد في ايام شبابه ، فكنت اتهيبه ، واحسب لشجاعته كل حساب ولم اعرف ابي بحقيقته الا تلك الليلة فقد رمى لي بما كان يحمل من النقود وخلع ثيابه والقى بها حيث طلبت وراح يعدو الى البيت ، ولم يكن بيني وبينه من المسافة الا مائة متر او اقل من ذلك .

وحين اريد الخروج من الحانات بعد سكرة كافية وليس معي ما اعطيه ثمنا لما شربت من كؤوس العرق ، وما تناولت من النقل فليس هنالك اسهل عندي من الشغب والعربدة تخلصا من دفع ثمن (المشروب) ومع ذلك فلا اخرج مكتفيا بالشرب مجانا وحده بل كثيرا ما عمدت الى اواني النقل فحملتها معي ! !

والمضحك في الامر ان حانة من الحانات قد قدمت لي ذات يوم الباقلاء (وكانت النقل المرغوب فيه للعراق) لقد قدمته فوق قطعة من الورق ولم تقدمه في صحن كما هي العادة ! ! واعتذرت لعدم وجود صحن او طبق لديها فارغا ، فضحكت كثيرا وعرفت مغزى تقديمها النقل فوق الورق .

وحين كنت املك النقود الكافية كنت ادفع ثمن العرق بدون حاجة للشغب والعربدة .

وقد تصدر عني امور تسبب حوادث ذات شأن في عالم الجريمة بدون ان يكون لي يد فيها فانا اذكر قضية ربما سمع بها الجميع في وقتها ، فقد نشرتها الصحف وتناقلتها الجماعات ، وسجنت بسببها سنة وبضعة شهور لانني سببت موت شخصين واصابة شخص ثالث بكسور

ورضوض عانى منها الامرين : وموجز القصة : هي اني كنت اعمل اجيرا عند سائق احدى سيارات (البوكس) التي اعتاد السواق ان يشحنوها شحنا فلا يستثنون اطرافها ولا سطحها ولا اي موضع يمكن ان تثبت فيه قدم واحدة دون ان يشغلوه بالركاب والامتعة .

وكنا قد حملنا احدى الجنائز من (المحمودية) لدفنها في (النجف) وعدنا ببعض المشيعين وبالتابوت بعد دفن الجنازة ، ولما لم يكن لي مكان داخل السيارة ولم استطع الوقوف لمدة طويلة على حافة السيارة كما اعتدت ان افعل من قبل رايت ان اصعد سطح السيارة واتخذ لي مقرا منه هناك .

وهكذا رقيت السطح من خلف السيارة ، ولم يكن فوق السطح حينذاك غير التابوت الخشبي الذي عدنا به معنا خاليا ، ولم يستقر بي المكان بعد حتى احسست برذاذ المطر ينغص على راحتي ففتحت التابوت ودخلت فيه ملتمسا النوم .

ومضت ربع ساعة او اقل واذا بثلاثة اشخاص من القرويين يستوقفون السيارة ويبدؤون مع السائق بالمساومة لنقلهم فوق ظهر السيارة ، ويتم الاتفاق ، ويصعد هؤلاء الثلاثة الى سطح السيارة حيث التابوت وانا المسجى فيه ، دون ان يعلموا بوجودي في التابوت ، وتنطلق السيارة وكانوا قد اتخذوا من عباءة احدهم خيمة ضربوها فوق رؤوسهم اتقاء من رذاذ المطر الذي كانت تنث به اجزاء السيارة المكشوفة ، ثم اخرجوا من صرة كانت معهم شيئا من الخبز والتمر والبصل وبداوا ياكلون .

فكانت فرصت ، والفرصة ليس لاني كنت جائعا وقد حان الوقت الذي اسد فيه غائلة الجوع فحسب ، وانما جاءت الفرصة التي ارضي فيها مزاجي بالضحك على ذقون هؤلاء وتخويفهم ، والحق اني كنت اعرف بانني ساجعلهم مجانين او شبه ما يكونون بالمجانين اذا ما باغتهم وقمت ببعض الحركة في التابوت ، ولكني لم اكن اعلم باني سأسبب قتل اثنين منهم واجعل الثالث على شفا جرف من الهاوية ، فانا لم ارد من ذلك غير اشباع اللذة وان كانت النهاية لم تخل من اللذة على رغم اني لم اقصدها بهذه الصورة .

وهكذا كان : فقد رفعت غطاء التابوت الخشبي قليلا وبصورة مفاجئة واخرجت يدي مصحوبة بزعقة صائحا بهم: اذكروا موتاكم بالخير ... ولا تاكلوا الطعام وحدكم ...

ولم ادر كيف تطاير هؤلاء ؟ ثم كيف قذفوا بانفسهم من فوق سطح السيارة الى الارض ؟ فقد جرى هذا كله في اقل من بضع ثوان ، وكان ما كان مما قلته لك من قبل .

واستطرد محمود ابراهيم يقول : واني املك ما يقارب مائة مفتاح استعملها لفتح الابواب ، وكيفية الاستعمال هي ان اعين اولا الدار التي اعتقد انها تحقق ما انشد من المال ، ثم اجيء بمقدار من الشمع فاضعه على ثقب الباب واضغط عليه حتى يتم ضبط القالب تماما فاحمله الى البيت وابدا تجربة المفاتيح ، فاذا وجدت المفتاح الذي ينطبق على القالب عينت الوقت المناسب لولوج الدار وحمل ما فيها من اسباب .

واني لاذكر اني راقبت دارا مدة شهور ليتعين الوقت الذي اطمئن فيه من خلوها فلم احصل على نتيجة ... وكنت قد فرغت من اخذ القالب لثقب الباب وتجربة المفتاح، ولم ازل اروح واغدو حتى جاءت فرصة خروج الناس للاشتراك في مهرجان تتويج صاحب الجلالة لاول يوم من تسلم جلالته سلطته الدستورية ، وفي هذا اليوم فرغت معظم البيوت من سكانها بداعي المساهمة في الاستعراض والمهرجانات ، وكان هذا البيت الذي راقبته منذ شهور من ضمن البيوت التي خرج اهلها الى الخارج ، وقد شاهدت اخر من ترك البيت يخرج منه ويدير المفتاح فيه فيغلقه .

وكنت قد خططت الخطة قبل هذا اليوم فيما اذا اتيحت الفرصة اللازمة بكل مقتضياتها فرحت انفذها بحذافيرها وكانت عندي بدلة عسكرية لبستها وقد وضعت النجمة التي تشير الى رتبة ملازم ثان ثم وضعت على عيني نظارة سوداء واسرعت باستئجار سيارة حمل كبيرة وعدد من الحمالين ، وبسرعة البرق الخاطف كنت اقف بالسيارة بالقرب من الدار المذكورة ثم اسير بالحمالين اليها واضع المفتاح فافتحها ثم انقل كلما فيها حتى المكنسة .

وهنا قاطعته سائلا : — وما تعمل بالمكنسة وقد فزت بالحاجات الثمينة ؟

قال — هذا مثل لا احسب انه يفوتك ، فليس معنى ذلك انني حملت المكنسة حقيقة ، بل اني اردت ان اقول لك انني لم ابق ولم اذر على سبيل المبالغة ، واذا وجدتني الخذ صحون النقل فادسها في عبي معنى ذلك انني الخذ حتى المكنسة ..

والخلاصة اني ذهبت بالاثاث والامتعة وبالمبالغ الكبيرة من النقود والحلي الى مدينة الرمادي ، ومن هناك بدات اخرج بعض الاثاث فاسافر به الى احدى المدن لبيعه، فاذا ما بعت شيئا هنا فلن افعل ذلك مرة اخرى ولن اعود الى المكان الاول .

وتوصل تحقيق الشرطة الي من دفتر الخدمة العسكرية الذي سقط من جيبي في تلك الدار في اثناء املاء جيوبي بما كنت اعثر عليه في الخزانات ، وشرع التحقيق يجد في البحث عني فلم يحصل على طائل ، حتى مضى على ذلك نحو من اربعة شهور وقد تعين للشرطة مقري ، فاحاطوا بي ، وجرت بيني وبينهم مناوشات لم تلبث ان انتهت بالقبض علي وسوقي الى المحكمة ... ولم يكن هنالك ما يثبت وقوع السرقة ، اما دفتر الخدمة العسكرية فقد دافعت بانه لا يبعد ان يكون قد سرقه عدو لي والقاه في هذا البيت المسروق ليوقع بي ! ! ولكن المحكمة استندت الى قناعتها الناشئة من السوابق الكثيرة الماضية فحكمت علي بالسجن ثلاث سنوات قضيت منها اكثر من سنتين .

قلت — فاذا انهيت البقية الباقية فماذا انت فاعل ان شاء الله .

قال وهو يضحك ... لا احسبني استطيع التخلي عما انا فيه اللهم الا اذا تسنى لي ان اضرب ضربة واحدة تغنيني غناء يصرفني عن العودة الى هذه الاعمال .

فسألته — هل انت متزوج ؟

قال — لا ... وقد اقترح البعض على ابوي بان يزوجاني لعل في ذلك بعض الرادع ، اما انا فلا ادري ما الذي اقوله ؟

قلت — أفيزورك ابواك في السجن ؟

قال — انهم يزورونني غبا وقد انقطعوا عن زيارتي اكثر من شهرين ولم يبعثوا بما طلبت من شفرات للحلاقة وبعض

سهرة في الشرفة

○

جلست بشرفتي العاليه ترف بي النسمة الحانيه
ويغمرني في ظلام المساء حنين احاسيسه العاتيه
وكان بعقلي شتى الامور والف شعور بأعماقيه
فقلت لانفض عبء الخيال لأهرب من الفكر من ذاتيه
امامي الطبيعة هيمانة لانساب في حضنها راضيه
لانعم قليلا بهذا الجمال فما من عيون هنا صاحيه

* * *

واطلقت عيني نحو السماء وطفت بأجوائها الصافيه
ورحت اراعي ضياء الهلال وارقب اطواره الناميه
وكان صغيرا كطفل ينام تظلله كلة داجيه
تكاد الشياطين تغتاله الى ابن ؟ ويحك يا جانيه !
واذ هو « حكة ظفر الاله » تمزق ستر الدجى الغاشيه
واذ هو هالة ثدي تعرى لعذراء في فرشها غافيه
واذ هو وجه غلام يراهق ترعشه الشهوة الصاليه
وبحرة ماس على رقعة من الافق شطآنها قانيه
واذهو وسط الفضاء«موزة» تدلت وقد نضجت هانيه . . .

* * *

وناحت على سطح بيت قريب بنعقتها بومة باكيه
فحزت بقلبي كلوح الزجاج تكسره طوبة هاويه
واطرقت راسي نحو الطريق وفي كل ركن الى زاويه
وقد حضن الارض خيط دقيق من النور والظلمة الساجيه
فقلت احتى الضيا والظلام تضمهما الصبوة الحانيه
واحسست ان الوجود كبير واكبر ارواحنا الساميه

واني ذرة حب تطير الى اللانهاية في ثانيه
واقلق حلمي صدى حركات هنالك في الوجهة الثانيه
فحدقت تحتي اذا بي احس الحقيقة تبدو هنا جاريه
تركت الخلود الذيفوق راسي وعدت لهذي الدنى الفانيه
فهذا غلام تمدد فوق الرصيف بأسماله الباليه
ينام ؟ وهل مثل هذا الشقي يحس الحياة . يرى ما هيه ؟
وذلك شاب وقد جلس القرفصاء وسيقانه عاريه
« يفلي » ثنيات سرواله ويقتلها « قملة » داميه
وتلك فتاة لعوب تسير وفي خطوها عثرة الزانيه
فيا مصر يا كعبة القاصدين حنانك هذي الرؤى العانيه

* * *

وشق السكون دوي طبول هنالك في حارة نائيه
واناة ناي شجي حنون ورنة زغرودة عاليه
وما زال يدنو رويدا صداه ويعلو بضجاته اللاهيه
الى ان تراءت جموع تسير وتزحف تحتي هنا آتيه
وكانت بها نسوة راقصات على دقة الطبلة الشاديه
وفوق رؤوس الرجال رايت مقاطف واسعة خاويه
تدلت باطرافهن ثياب واقمشة رخوة زاهيه
فبعض البشاكير من زاويه وبعض المناديل من ناحيه
وساروا وخلف الجميع حمار يجرجر عربته الواهيه
محملة بسرير كبير وبعض الصواني والآنيه
كذلك كان اثاث العروس يزف الى دارها الغاليه

القاهرة — جليلة رضا

الاسباب ، فكتبت لهم بانني لو كنت ميتا لحق ان يزور اهلي قبري كل اسبوع مرة فكيف بي وانا حي ارزق ، ولكن الله كريم وساخرج من السجن ، وستتواجه الوجوه ان شاء الله .

قلت — وماذا كان جواب اهلك ؟

قال — الك شك في الجواب ؟ لقد جاؤوني ساعة وصول كتابي مستغفرين متعذرين ومعهم كلما طلبت من الحاجات وزيادة . لانهم يعرفونني جيدا . انهم يعرفونني منذ الصغر . . .

بغداد — جعفر الخليلي

[تتمة المنشور في صفحة ١٩]

وهو عندما يدعو الانسان الى الحرية والى الايمان بذاته ، فانما يدعو الى البناء والخلق والابداع الابداع العملي، والروحي والفني .

ولا استطيع في هذا المجال تناول جميع ما جاء في هذا الديوان التقدمي من فكرات ، وما وعى من نقدات اجتماعية لاذعة ، تاركا ذلك لقارئه يتملى ما فيه من روح ايجابي متوثب رفاف .

ويطيب لي بعدئذ ، ان اتناول فن الاغنية لدى ابى الوفا ، وهي الناحية التي برز فيها ، حتى ليعتبر رائدا من روادها المجلين في مصر .

وقبل تناول هذا الموضوع ، اود ان انبه على خصائص الشعر الغنائي بعامة والاغنية بخاصة واغنية فردية او فنية ساحرة ، او قومية او شعبية ، تقوم على البساطة التعبيرية ، واصالتها ، وعلى سرعة الحركة ووحدتها ، وعلى العذوبة الموسيقية ورخامتها ، وعلى الوحدة الغنائية ، وعلى التلقائية ، ويقوم محتواها على حدة العاطفة او الانفعال (1)

والعنصر الغالب عليها هو الموسيقى ، وللموسيقى البارعة اسرار واسرار نذكر منها : اولا : انسجام حروف الالفاظ وخروجها من منطقة واحدة من الفم او من مناطق متجاورة وهو ما يسمى بالانكليزية Assonance وبيان ذلك ان الحروف اما ان تخرج من الحلق مثل الخاء والضاد ، واما ان تخرج من داخل الفم مثل اللام والميم ، والقاف ، والكاف ، واما ان تأتي نطقها من خارج الفم مثل الفاء ، والواو والشاعر الموسيقي المبدع هو القادر ، في غير قصد منه ، على استعمال حروف قصيدة من منطقة واحدة ومن طراز هذا ما تجد في قصائد الشابي ، والصيرفي ، ونسيب عريضه ، ومحمود ابو الوفا برع في هذه الناحية .

اسمع اليه في اغنيته عندما يأتي المساء التي يقول فيها :

عندما يأتي المساء   ونجوم الليل تنثر

فحروف هذا البيت تخرج من منطقة داخل الفم : العين ، والميم ، والياء ، واللام ، والتاء ، ما عدا الواو فانها تأتي من منطقة مجاورة خارج الفم .

ثاني أسرار الموسقة البارعة ، وجود تقفية داخلية ، مصحوبة بالتقفية النهائية ، ويقصد بالتقفية الداخلية وجود الفاظ في البيت الواحد متماثلة في الوزن ، ومن آيات ذلك في شعر ابى الوفا ما جاء في الفقرة الاخيرة من قصيدته « في انتظار الصباح »:

هات اسقني يا صاح   كأس الهوى الفضاح
سكران ، لكن فؤادي   مما يعانيه صاح
يا هل ترى لي صباح   ام ليس لي من صباح

فان لفظة يا صاح في البيت الاول تماثل لفظة فضاح وزنا ، وفي هذه الابيات تكرار لبعض الالفاظ يضفي على موسقة القصيد نكهة ، لذيذة مثل تكرار كلمة يا صاح ، وصاح ، والصباح . وفضلاً عما تقدم ، فان القافية الاخيرة مكسورة وكسرها يزيد امتدادها عند التلاوة ، مما يقوي النغم ، ويعقب الراحة .

وثالث اسرار الموسقة . هو التاكيد الصوتي باستعمال المحركات ، فاذا جمع الشاعر بين التاكيد الصوتي وبين انسجام مخارج الحروف ، انتج اعجوبة موسيقية ؛ كما يقولون . وشواهد هذا نجده في قصيدته « أريد » :

اريد وما عسى تجدي اريد   على من ليس يملك ما يريد
اريد افي الى الدنيافاعطي   لها الثمن الذي يبقي الوجود

فالشاعر يستعمل الالف المهموزة المتحركة ليحدث تأكيدا صوتيا ، أريد ، اريد ، اريد ، فاعطي . والشاعر في الشطرة الاولى يخرج حروفه من منطقة واحدة من خارج الفم ، اريد ، وما تجدي ، اريد .

وثمت سمة اخرى في هذه الابيات هي استعمال حرف متماثل في اول كلمة وهذا ما يسميه الانجليز بـ Allitération ، اريد ، واريد ، يملك ما يريد ، الالف المهموزة اتت مرتين ، والياء في يملك ويريد .

ولا يمكننا في هذا المجال الكشف عن اسرار الفن الموسيقي الشعري . كمسايرة الموسيقى للانفعال ، وتنوعها ارتفاعا وهبوطا بتنوع الانفعال ، في حدته او في سكونه وقراره ، وغير ذلك ، مكتفين بما ذكرنا من اسرار فنية .

وبقول الانصاف ان ابا الوفا لم يقتصر على الاغاني الغزلية كما رأينا في اغنيته « عندما يأتي المساء » التي حللنا موسيقاها ، ولكنه تناول انواعا اخرى من الاغنية مثل اغنيته الانسانية الساحرة « انفاس الزهر » والتي جاء فيها قوله :

تعالي زهرة الآس   نديع الحب في الناس
فلا يصبح في الدنيا   سوى قلب على قلب
ولا نلقي امرأ يحيا   لغير العطف والحب
وتصبح زهرة الآس   شعار الحب في الناس
تعالي زهرة الآس   نديع الحب في الناس

والشاعر الذي يغني هذه الاغنية ، من السهل على موهبته الفنائية ان تطرق كل ضرب من ضروب الاغنية ، وليس عزيزا عليه ان يكتب الاغنية الشعبية بتعبيره السهل اللطيف ، فتسمع منه اغاني الفلاح في مواسم الحصاد ، واغاني العامل في صخب الآلات ، ودخان المصانع ، واغاني الحرية ، وهذا ما نترقب منه قريبا .

وقد يسأل سائل ، ولماذا لم يستمر ابو الوفا في اغانيه المنوعة ، ولماذا لم تنتفع به اذاعتنا الكريمة ، وجواب ذلك عند رجال الاذاعة القدماء الذين حذفوا اسم ابو الوفا من القائمة ، فقد اريد في ايام الحرب الكبرى الماضية على ان يكون داعية في الاذاعة للحلفاء ، فأبى عليه اباؤه ، وثارت مبادئه ، ولم يعد الى هذه الدار من يومئذ . على ما نعلم .

وها انتم اولاء تسمعون اغاني مبتذلة ، بل عابثة واثمة من امثال « يا شمس يا شموسه » ، او « انا مش فاهمه الدنيا » .

فهذه اغاني واجناسها مسممة للروح المصرية ، وعامل من عوامل الهدم لها ، واذاعة هذه الاغاني مما تثير النفس نفورا ، ومما يجعل امثال محمود ابو الوفا يفر من هذا الجو المثيف الوبيء ، صونا لكرامتهم ، وضنا بفنه ان يزال .

وبعد فهذه آراء قلال في شعر محمود ابو الوفا اقتضانا الانصاف ان ننوه بها ، في عصر ضاعت فيه قيم الشعراء بين الآراء المنحرفة ، واشعر اني لم اف البحث حقه ، ولكنها صورة قريبة تكشفت فيها الظلال في زاوية منها ، ونصلت الاضواء في زاوية اخرى ، وعذري اني رسمتها عفو الساعة ، تاركا للاوفياء المنصفين تهذيبها ، واكمال ما اعتورها من نقص .

القاهرة   **مصطفى عبد اللطيف السحرتي**

(1) Charles Miles Gaylen —Methods and Materials of Literary Criticism.

[تتمة المنشور في صفحة ١٢]

لبنان ، فروا من استبداد العثمانيين او ما ظنوه تعصبا دينيا ، واحتضن الانجليز هذه العناصر واستخدموها في تغليب سياستهم .

على ضوء هذه الحقائق وفي خضم هذه التيارات نستطيع ان نحدد الوضع الذي لم يكن بد ان يوجد فيه ولي الدين يكن العثماني بمولده ، والساخط على الخلافة وحكمها الظالم الفاسد ـ بطبعه ومزاجه ، وثقافته وظروفه ، ثم موقفه من الانجليز وموقف الانجليز منه بعد ان تيقنوا انه من شباب تركيا الفتاة المناهضين لعبد الحميد ، فضلا عن نزعته العنيفة نحو التحرر الديني ، والتخلص من سيطرة الكهنوت والتزمت ، واتجاهه بكل قوتـــه نحو الحضارة الحديثة .

وهكذا تامرت الظروف والاحداث لتضع ولي الدين في وضع لا يرضى التيار الوطني المسيطر ، وهو تيـــار الحزب الوطني ورجاله الذين يحاربون الانجليز ، ويستمدون العون ضدهم من الخلافـــة ، ويحرصون على الوحدة الاسلامية ، وقد كان هذا الوضع من الاسباب الرئيسية التي اصابت ولي الدين وادبه بالخمول حتى يومنا هـــذا ، بالرغم من نزعته التحررية ونبلها وافناء حياته في سبيل مثل الحرية والتقدم التي آمن بها وتعصب لها ، ودفع في سبيلها ابهظ الإثمان من عذاب النفي والفقر والمرض وانهاك الاعصاب .

وقد اتهم ولي الدين بمناصرة الانجليـــز والاشادة بعدلهم لانه وجد فيهم حماة من الظلم العثماني ، حتـــى كانت مصر تعتبر موئلا للاحرار من الاتراك والعرب الخاضعين للحكومة العثمانية المستبدة ، وكان ولي الدين يجاهر بهذه الآراء وينشرها في الصحف في مقالات او قصائد ، مثل المقال الذي نشره في « المقطم » واعاد نشره في كتابـه « الصحائف السود » تحت عنوان « المحتلون يخرجون من مصر » ، وفيه يقص حلما رآه لموكب خروج الانجليز وما يترتب عليه من آثار مدمرة ، ويختتم المقال او الحلم برؤية تمثال ابراهيم باشا وهو ينزل الى الميدان ليمنع جيش الاحتلال من الخروج قائلا : « .. ارجعوا الى ثكناتكـــم ماجورين غير مازورين ، انما يأنس اليكم اهل الوقار وانصار الفضل . »

وهو يعترف بجميل انجلترا على الاحرار من اعضاء تركيا الفتاة في رثائه لادوار السابع فيقول :

ابا الاحرار لا ينساك حر ... شبابهـــم يجلـــك والكهـــول
رفعت بناءهم وجريت معهم ... كذاك الليث يتبعه الشبول
تناديك الشعوب بكل ارض ... فليتـــك سامـــع ماذا تقول
تناجي منك حاميها المرجى ... وصولتهـــا اذا قامت تصـــول

ومع ذلك فالظاهر ان ولي الدين لم يناصر الانجليز الا لانهم يحمونه من عسف العثمانيين ، لا طمعا في مغانـــم الدنيا ، لانه كان رجلا ابيا عفيف النفس ذا كبرياء ، وقد خاصم عبد الحميد خصومة عنيفة لا هوادة فيها ، وتحمل في شجاعة الذل والنفي ، والظاهر ان بغضه لعبد الحميد كان من ذلك النوع العنيف الجامح الذي يغشى البصيرة ، ويسوق الى التماس كافة الوسائل لاطلاق بغضه حتى بعد عزل عبد الحميد ، لذا نراه يغضب من شوقي لرثائه لعبـــد الحميد وابداء اسفه لعزله عن الخلافة في قصيدته التـــي مطلعها :

سـل يلدزا ذات القصور ... هـــل جاءهـــا نبـــا البدور

يغضب ولي الدين من شوقي بسبب هذه القصيدة ، ويرد عليها قائلا :

هاجتك خاليـــة القصور ... وشجتـــك آفلـــة البـــدور
وذكرت سكان الحـــمى ... ونسيـــت ســـكان القبـــور
وبكيت بالـدمع الغزيـــر ... لبـــاعث الـــدمع الغـزيـــر
ولـــواهب المـــال الكثـــير ... وناهـــب المـــال الكثـــير
حامي الثغـــور الباسمـــا ... ت ، مضيع آهلـــة الثغـــور

وبعد ان عدد مآسي عبد الحميد وظلمه وفجـــوره ، انتهى الى التعريض لشوقي فقال :

لمـــا اديل مـــن السريـــر ... بكـــاه عبّـــاد السريـــر
اسفـــوا عليـــه وانمـــا ... اسفوا عـــلى المـــال الوفـــير

وفي الحق ان المقارنة بين هاتين القصيدتين يمكن ان تحدد لنا منهج كل من الشاعرين في الحياة ومزاج كـــل منهما الشخصي مما يعيننا على ان نفهم كيف استطـــاع شوقي بلباقته ومرونته ان يكسب اكبر عدد ممكن مـــن الناس حتى يذيع صيته ، ويشغل الناس بذكره ، بينمـــا نرى ولي الدين الصلف العنيد يستكثر من خصومه ، ولا يداري او يواري فيما يراه حقا وعدلا ، في حين شوقي يتجنب المزالق ويحاول ان يرضي الجميع ، فهو فـــي قصيدته يرثي لعبد الحميد ، ويصف ترفه ونعيمه ، وحزن جواريه ، ويبدي اسفه لان عبد الحميد المحتال الخبير لم يحتفظ بعرشه وقصوره وجواريه ، ثم ينتقل في مرونة ـ نخشى ان تكون نفاقا ـ الى تمجيد الثوار الاحرار، ثم يود لو احتفظ عبد الحميد بالدستور ثم ينتقل الى مدح الجيش وقادته ، بل ويهنيء الخليفة الجديد ويبايعه ، وما كـــان لشاعر القصور شوقي ان يغفل عن مثل هذه التهنئة :

المؤمنون بمصر يهـــدون الســـلام الى الاميـر
ويبايعونك يا محمد بالضمائـــــر والصدور

وكل ذلك لا يروق رجلا عنيفا كولي الدين الذي يقول الشعر لينفس به عن مكنون صدره ، ولو اغضب من اغضب

* * *

وبالرغم من بغض ولي الدين لعبد الحميد وكل حاكم تركي مستبد ظالم ، نراه يتعصب للعثمانيين كما يتعصب للعرب ، حتى ليثور اذ يطالع في المقطم مقالا يحمل علـــى الاتراك ونكبة البلاد العربية بهم ، فيرد بمقال ثائر بعنوان « الشقاق » يبدؤه ببيتين من الشعر القديم :

مهلا بني عمنا مهلا موالينـــا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا ان تهينونا ونكرمكم ... وان نكف الاذى عنكـــم وتؤذونا

ثم يستمر في الدفاع عن العثمانيين ، ثم يندد بروح الخصومة بين العرب والاتراك ، ويدعو الى التآخي بينهم .

والواقع ان عصر ولي الدين كان شديد التذبذب بين الاتجاهات المختلفة ، وكان من الشاق ان يتبين المرء سبيله السوي . ولا نملك الا ان نأسف للظروف التـــي تآمرت فساقت ولي الدين الى المعسكر الانجليزي ، يتقي بـــه استبداد العثمانيين مما اساء الى سمعته ، وحد من المجد الادبي الذي يستحقه ككاتب جيد ، وشاعر كبير ، ورجل حر عزيز النفس ، لا يهاجم ولا يتملق ، ولا يسخر قلمه ومواهبه لاعراض الحياة الفانية .

محمـــد منـــدور
القـــاهرة

[تتمة المنشور في صفحة ١٥]

السابق من الرمل ، وهو يكرر :

« يعني ما راح يجـي الامير ، يعني ما راح يجـي ؟ غاطس في احلامه ، وعندنا شغل ، وعندنا مسؤوليات ، وعلينا فلوس ندفعها ... يعني ما راح يجي ؟ »

واخيرا ، قال لي حنا :

« اذهب الى بيته ، وجره من اذنيه ! »

كان « بيت » يوسف ، على ما اعلم ، في طريق قريبة من المصنع . نقد كنت اراه كلما خرجنا مساء من العمل يدحل بوابة خشبية بين دكاكين الحدادين ، ويختفي وراءها ولا يطلب الى احد زيارته . ففتحت البوابة ودخلتها في كثير من الاستطلاع . ولكن لم ار اي بيت في المكان ، بـل رايت درجا في عمارة لم يتم بناؤها . وكان الدرج ينتهي الى دكة عليا عند حائط ، ليس فوقها الا السماء . وعـلى طرف من الدكة اقيم كوخ من خشب ، لا يكبر اكواخ الكلاب الا بقليل ، كانت الواحه مخلعة غير منتظمة ، والمسامير تنتأ منها في امكنة كثيرة ، كخناجر صغيرة ، لكثرة ما استعملت لاغراض اخرى في السابق .

وصعدت الى الدكة وصحت : « يوسف ، يوسف ! »

فاجابني صوت ضئيل كئيب : « مين ؟ تعال ، ادخل »

لم يكن « الباب » الا القطعة من كيس قديم . فرفعتها ورايت يوسف ممددا تحت غطاء رث مسود ، وبقربه جرة ماء ، وصحون من صفيح ، وطباخ « بريموس » ، وعدة زجاجات فارغة بعضها ملقى على بطنها . ولكن عيني تسمرتا فجأة بكومة من الاسطوانات قرب صندوق ازرق ادركت فـي الحال انه غرامفون . لم يبد هناك اية علاقة بين الشخص الملفع بالرقع وبين الاسطوانات والغرامفون .

فتح يوسف جفنين ثقيلين وتمتم : « مالك ؟ مـاذا تريد ؟ »

قلت : « الاسطى يريدك في الحال . »

فتنحنح ، وتأفف ، ورفع عنه الغطاء — واذا هو في ثيابه النهارية — وقال : « الى ارتاح ساعتين بلا عمل ؟ يعني ما راح ارتاح »

فقلت : « راح الشر يا برنس . »

نقعد في فراشه واجاب : « ولا تراه . والله هـذه ليست حياة يا يعقوب . هذه ليست حياة . »

— ولكن من اين لك هذا ... « الصندوق ؟ »

— الغرامفون ؟ هل بقي لي شيء غير هذا الصندوق ؟

— وعندك اسطوانات ايضا .

زوجتي هربت ، وابني ، قصف الله عمره ، ذهـب وترهب في ايطاليا ، وانا لا استطيع ان اوفر قرشـا كاولاد الحلال .

— شد حيلك يا رجل .

فقال ، دون ان ينظر الي : « والله هذه ليست حياة ، ليست حياة . »

ولكني قرفصت على مقربة من الاسطوانات ، وجعلت اقرا عناوينها ، واتلذذ بملمسها الصقيل . لم تكن تربو على العشرة ، وبعضها مفطور او مكسور الحواف . ومع ذلك فقد بانت لي كثروة هائلة .

وقلت : « الا تسمح لي ان ازورك احيانا لاسمع هذه الاغاني ؟ »

— اهلا وسهلا كل يوم . ولكن خذ الحذر منها . ما خرب دياري الا هذا الغناء .

فضحكت مندهشا ، وقلت : « الغناء ؟ »

— ماذا تظن انني فعلت في مصر ؟ احببت منـيرة التركية ، هذه التي ترى اسطواناتها عندي . حنجـرة كالفضة ، كالذهب ، كالماء السلسبيل ، ووجـه نالورد ، كالقرنفل . بس ايه ؟ ... اخرجتني من بيتها بالزلط ... بالله ناولني الجرة .

ناولته اياها ، فصب منها ماء في راحته رشقه عـلى وجهه وكرر ذلك مرتين او ثلاثا ، وهو يقول :

« حنجرة كالذهب ، كالماء الصافي . »

واخرج من جيبه منديلا من الخاكي الملوث ومسـح وجهه .

فقلت : « اسرع يا يوسف . عندنـا شغـل كتـير اليوم . »

فنهض ، واخرج من عبه علبة السكاير ، واشعـل سيكاره ، وقال : « الا يحق للمرء ان يمرض شويه ؟ والله ما هذه عيشة . »

ونزلنا الدرج وقلت : « اتسمح لي اذن ان اعزف بعض اسطواناتك ؟ »

— اهلا وسهلا . ولكن اذا جئت احضر لي معك كاسين من العرق ، يا يعقوب ، هـا ؟

— من اين لي عرق ؟

— لا ، ضروري ، ضروري جدا .

— طيب ، طيب .

كان لبيتنا كوة عليا ، تاتينا من خلالها في الاماسي اغان رفيعة الصوت ، صادرة عن غرامفون جيراننا ، دار ابو عبد الله . وكنت ، كلما سمعت الغناء ، اصغي اليه متنعما بالرغم من ان ذخر جيراننا من الاسطوانات لم يكن غنيـا . وقد يجيئنا ضيف ذات مساء ، ثم تنطلق الاصوات الحادة من الكوة العليا ، فنقـول مفسرين : « جـيراننا عندهم غرامفون » ، فيهز الضيف راسه معبرا عن ادراكـه لاهمية جيراننا ، ما دام عندهم غرامفون واسطوانات . وقـد تجرات مرة وصعدت مع امي لزيارتهم فـي غرفتـهم ، ورايت صندوق الغناء فاغر الفكين ، وفيه اسطوانة يتالـق قرصها . واشد ما اشتهيت لو يعزفونها في تلك اللحظـة ، ولكنني خجلت من ان اطلب اليهم ذلك ، وبقي الغرامفون صامتا ، ونزلت عائدا الى غرفتنا في كثير من الخيبة .

يبدو ان صفاء الليل ، والوقت آخر الربيع ، قـد راق لجيراننا في تلك الامسية ، فراحوا يعزفون اسطواناتهم واحدة واحدة ، وانا مضطجع على فراش على الارض اقرا في المجلة . كنت متعبا بعد ارهاق النهار ، ولكن المقـال عن موسيقى القصور في القرن الثامن عشر ، كان فيه من الاثارة ما يوقظني من كل غفوة . كانت الاسماء الاجنبية الغريبة تفعل في فعل الرقي والطلاسم ، ولم استطـع التأكد ان كانت تلك الانغام الرفيعة الحادة التي اسمعها ، والتي تحاكي احيانا صيحـات البنات ، هي مـن ضرب الالحان التي يتحدث عنها المقال ، ولكني قرنت بين الاثنتين، حتى سقط راسي على كتفي في غفوة رايت فيها يوسف بملابس الامير ينزل الابرة على الاسطوانة في غرامفونه ، ثم يتكسر وجهه خطوطا واخاديد وهو يغني بحرقة وتوجـع ، فافقت وقلت : « والله لاذهبن الى كوخ يوسف الان ! »

وعندما اعترضت امي قائلة : « ولكنها الثامنة تقريبا : ارايت صبيا في عمرك يتسكع في الشوارع مثل هـذه الساعة ؟ » قلت : « سأرجع بسرعة . اوصاني الاسطى حنا بتبليغ يوسف رسالة ، نسيت ان ابلغه اياها . ثم ان كو... بيت ... يوسف قريب جدا ، يا يمه . »

كان الشارع الذي تملأه مطارق الحدادين رنينـا وقرقعة في النهار ، ساكنا الان سكونـا رهيبـا ولكنني تشجعت واسرعت الى البوابة الخشبية ودفعتها . ومن اسفل الدرج رأيت خطوطا من الضوء بين اخشاب الكوخ ، فصحت : « يوسف ! »

فخرج كالشبح واطل علي من الدكة ، وقال ، ممعنـا النظر من مرتفعه : « مين ؟ يعقوب ؟ »

ــ نعم .

ــ اصعد .

فلما صعدت قال : « ها ، اين العرق ؟ » وفاحت من فمه رائحة اليانسون .

فقلت : « من اين لي عرق ، يا شيخ ؟ »

ــ الا يشرب ابوك ؟ اليس في بيتكم زجاجة عـرق تسرق لي منها كأسين ؟ اهكذا تكون الصداقة يا يعقوب ؟

فقلت متطلعا الى داخل كوخه ، لاستوثق من وجود الغرامفون والاسطوانات : « جئت لاسمـع شيئا مـن الموسيقى عندك . »

ــ طيب . ولكن ... طيب ، ادخل .

وجلسنا ارضا ، وعزفنا صفحة من احدى الاسطوانات غير ان يوسف كان شاردا ، صامتا على غير عادته . ثم امسك بزجاجة ، رفعها الى فمه واخذ منها جرعة ، وكشر لحظة ثم قال : آح...

وفجأة قال : « اسمع . اتشتريه ؟ »

ــ ماذا ؟

ــ الغرامفون .

لم يخطر ببالي قط ان شيئا مثل ذلك ممكن . فقلت مندهشا : « وكيف ؟ »

ــ بجنيهين .

ــ اتحلم يا برنس ؟

ــ هو والاسطوانات بجنيهين ، ها عندي مشروع . مشروع مهم . ولا بد من الفلوس .

ــ وما هو ؟

ــ ماذا يهمك من امره ؟ بجنيهيـن ، الغرامفـون والاسطوانات . تصور يا يعقوب ! ستكون الموسيقى بـين يديك ليلا نهارا ... تصور .

واخذ بيدي ، ونهض ، وانزلني معه الدرج ، وهـو يقول : « عندي مشروع لا بد منه . لقد وفرت بضعة دراهم بعيشة الشحدة هذه . بس ، اريد جنيهين .. وشوية عرق ... »

فقلت وانا اودعه عند البوابة : « يا ليت لي هذا المبلغ يا ليت ! »

* * *

كان حنا المواسيري ظهر يوم السبت في حالة مـن المرح لم نكن نراه فيها الا عندما يقبض مبلغا كبيرا من المال . يظهر ان سبائك الزنك والنحاس التي صنعناها في اثناء الاسبوع كانت صفقة رابحة ، فلم يبخل علي وعلى يوسف بشيء من البخشيش علاوة على اجورنا اليومية التي كان يدفعها لنا عصر كل سبت . وقد بالغ في الكرم هذه المرة فقال : « لن نشتغل بعد ظهر هذا اليوم . ما رأيك يـا يوسف ؟ وانت يا يعقوب ؟ »

فقال يوسف : « والله انت عظيم ، عظيم ! » وتلألأ وجهه بالبشر ، وشد حزامه لئلا يزلق عن خصره بنطلونه المرقع المقطع .

وقال لي حنا : « اشتر لك كتابا اليوم . هاك عشرة قروش اخرى . »

فصحت : « اشكرك ، معلمي ! » وذهبت الى البيت ، ويدي تشد على القروش التي في جيبي .

وفي البيت هيأت لي امي حماما ساخنا (كنت استحم في طشت من الصفيح نضعه في المطبخ) وبعـد الحمام خرجت اتمشى في شوارع المدينة ، وكنت اقف احيانا عند ابواب المقاهي التي تعزف فيها الاغاني . وعند عودتي اخر النهار سمعت صوتا صادرا من غرفتنا دهشت له ... كان ذلك صوت يوسف وهو يحدث والدي عن مصر وطنطا والاسكندرية ، ووالداي يصغيان اليه مفتونـين بسحـر كلامه . كانت تلك اول مرة يأتينا فيها هذا الزائر ويجالسنا ويا للتحول العجيب ! لقد وجدته لابسا بنطلونا جديـدا ، وقميصا نظيفا ، ومعطفا لا رقعة فيه !

وعندما احضرت القهوة ، تناول يوسف فنجانه وقال: « بارك الله في ولدك هذا ، يا ابو يعقوب . انه لا يتحلى بالشطارة والذكاء فحسب ، بل بالاخلاق الممتازة ايضا . اقول له ، يا ابني اشتر لك شيئا تأكله ، فيقول ، لا بـل اشتري شيئا اقرأه ... كنت في صباي التهم الكتب انا ايضا . كل كتاب دنيا عجيبة يعيش فيها القارىء وكـأنـه ليس في هذا العالم المليء بالمخازي . هل هناك ما هـو خير من المطالعة في عالم كعالمنا ، يخجل الانسان من الانتماء اليه ؟ اينما ينظر الانسان حوله لا ير الا الاخلاق تتدهور ، والفضائل تغلب على امرها . الاصدقاء ، يخون الواحد الاخر ، الابناء يثورون على آبائهم ، الامهات يكدن لبناتهن ، الشبعان يلتهم الجائع ، والجائع يريد ان يفترس الجميع . اي والله ، الكتاب خير جليس . كما يقول الشاعر . ولكنني عندما كبرت انشغلت عن الكتب . بماذا ؟ بالدنيا ... الدنيا عجائب ، يا ابو يعقوب ، عجائب ... » ورشف اخر ما في فنجانه .

فقالت امي وقد راق لها ولا شك اطراؤه عـلـى اخلاقي : « لماذا لا تزورنا احيانا ما دمت تسكن في مـكان قريب ؟ »

فقال : « ولم لا ؟ سأتشرف . » ونهض . وفجأة رأيت في ركن قرب الباب صندوق الغرامفون ، لم الحظ وجوده لانشغالنا بحديث زائرنا . اتجه يوسف نحوه ، والتقطه من ممسكه ، وودع ابي عند البـاب ، ثم التفت الي وقال : « امش معي شويه . »

فخرجت معه متسائلا ، العله يريد ان يهنئني بالغرامفون

ــ او يعيرني اياه ؟ ولكنه حالما بلغنا الزقاق قال : « لم اذكر المسألة في حضور ابيك وامك لئلا يغضبا . لقد احضرت لك الصندوق . »

فهتفت : « لي ؟ »

ــ لكي تشتريه .

فقلت مخيبا : « آ... ولكن من اين لي جنيهان ؟ »

ــ اتعتقد انه من السهل علي ان افارقه ؟ لم يبق

لي من ايام العز الا هذا الصندوق . لقد بعت كل شيء ، ولكنني قلت والله لن ابيع هذا الصندوق ، مهما حدث . ضيعت اموالي ، وعدت من مصر ، وعشت كالحيوان في ذلك الكوخ ، وما بعته . ولكن عندي قضية ــ قضية مهمة هذه الليلة . انا لن ابيعك اياه . سارهنه لديك . اعطني جنيها واحدا ، واتركه عندك ــ هو والاسطوانات بالطبع . جنيها واحدا فقط . وليبق عندك الى ان اعيد لك الجنيه . . بل ليس من الضروري ان تعيده الي حينئذ . ليبق عندك الى ان اطلبه منك في يوم من الايام .

ــ ولكن يا يوسف ، لا جنيه عندي .

ودسست يدي في جيبي اتحسس القطع الفضية التي عندي ، وتخيلت مبلغ نشوتي وقد حصلت على الغرامفون . ولكن ثلاثة وسبعون قرشا كل ما عندي .

ــ دبر لك جنيها يا يعقوب .

واخرجت ما في جيبي من قطع نقدية فجاة وقلت : « هذا كل ما املك . »

فدهش لرؤيتها في حفنتي ، كانه لم يكن يتوقع استخراج ذلك المبلغ كله مني ، ووضع الغرامفون على الارض وقال : « طيب . هاتها ، وخذه . »

فأفرغت ما في حفنتي في يده ، ثم استرجعت منها خمسة قروش ، فلم يعترض .

ــ والاسطوانات ؟

ــ تعال خذها .

فاسرعنا ، وقد انتشيت بصفقتي الرابحة ، الى كوخه ، لاخذ الاسطوانات ، وكنت على وشك مغادرته حين اوقفني قائلا :

« رايت في البيت عندك كومة من المجلات . »

ــ نعم .

ــ اتقدر ان تعطيني اياها ؟

ــ ولكنها قديمة .

ــ لا باس . اعطني اياها لاتسلى بها .

كنت اجمع كل ما اشتريه من مجلات ظنا بانني ساعود يوما الى قراءتها من جديد ، غير انني لم اتردد في العودة مع يوسف ، لاعطائه بعضها ، معللا نفسي باسترجاعها بعد ايام . ولما دخلنا الغرفة ، ورحب به والدي من جديد ووضعنا الغرامفون والاسطوانات جانبا ، اخذ يوسف كومة المجلات بين ذراعيه ، فقلت ممانعا :

« استقراها كلها؟ خذ لك بضعا منها فقط . »

فغمزني ، كما كان يفعل في المسبك ، وضحك ضحكة مبحوحة ، وقال وذقنه فوق حمل المجلات : « ما لي والقراءة وقد بلغت هذا العمر يا يعقوب سابيعها بالرطل ، واحصل بها على بضعة قروش ! . . » ثم اردف : « وحالما استرجع الغرامفون اعيد اليك ثمنها واحدة واحدة ! »

وقال ابي : « لا باس . لا باس عليك . خذها يا رجل . »

وخرج والمجلات مكردسة بين ذراعيه .

ثم سالني ابي : « ايشرب يوسف ؟ »

قلت : « نعم . »

فضحك وقال : « يظهر انه بدأ سهرته في بيته قبل ان يزورنا هذا المساء . اليست هذه ليلة الاحد ؟ يظهر انه بحاجة ماسة الى الفلوس هذه الليلة . »

ثم انصرفنا الى الغرامفون ، وجعلنا نعزف الاسطوانات ونعيد عزفها ، وامي تبتسم مغتبطة ، وتقول : « سيندهش جيراننا جميعهم . وستقول ام عبد الله : يظهر ان دار ابو يعقوب ايضا عندهم غرامفون . . . عين الحسود فيها عود . »

* * *

صباح يوم الاثنين ذهبت الى المسبك فوجدت يوسف، في ثيابه المهلهلة المعهودة . فهتفت به باشا : « صباح الخير ، برنس ! »

غير انه اجاب بتمتمة كئيبة : « صباح الخير » ، ولم ينظر الي . ولما حاولت ان احدثه ، اجابني باقتضاب وممانعة ، فادركت انه لا يريد الكلام ، وانصرفت الى عملي .

وبعد قليل دخل الاسطى حنا ، وقال ، وهو ينزع معطفه : « ولك شو سويت ، يا برنس ؟ »

فنظر الى الاسطى بعينين كسيرتين ، وتمتم : « حكوا لك ؟ »

ــ طبعا حكوا لي .

ــ كلهم اولاد حرام .

فقهقه حنا ، وقال : « شايب وعايب . . . اما يكفيك الشرب ؟ »

فأجاب باستعطاف اليم : « الست انسانا يا حنا ؟ قل لي بربك ، الست انسانا من لحم ودم ؟ »

ــ الم تجد الا صبحية تحط عينك عليها ؟

ــ اما صبحية او بلاش . . .

ــ كم واحدا سقيت واطعمت على حسابك طول الليل ؟

ــ اربعة ، خمسة ، لا والله ستة .

ــ حتى ترضيها ؟

فقهقه حنا مرة اخرى ، ثم اقترب منه وهمس : « وما سمحت لك »

ــ من قال ذلك . . بستها ، والله بستها .

ــ طيب ، صادق ، صادق .

وبعد لحظات ، استدار يوسف نحو الاسطى وقال : « اسطى حنا . اشتري بنطلونا . . . انه جديد ، لم يلبس الا مرة واحدة . »

ــ اله معطف ايضا ؟

ــ لا .

ــ اين معطفه ؟

ــ بعته تلك الليلة . لم تكف النقود التي كانت معي لمصاريف الليلة فبعته لابو شلومو والله ما هذه عيشة ، يا حنا ، ثلاثمائة جنيه صرفتها في شهرين ، شرب ، وضحك، ونسوان ، و. . . .

فقاطعه حنا : « يكفي ، يكفي . انصرف الى شغلك . عندنا قوالب جديدة اليوم . يعقوب ! كم كيلو من الزنك بقي عندنا . »

فقلت : « حوالي ثلاثين كيلو . »

فقال : « لا باس . لنبدأ بصنع القوالب . »

بغداد **جبرا ابراهيم جبرا**



● ديوان الكرخي — لعبود الكرخي — الجزء الثاني — عني بجمعه وطبعه حسين الكرخي — ٣٢٧ صفحة — حجم كبير — طبع على نفقة المحامي رشيد الصفار صاحب مكتبة الحقوق ببغداد — مطبعة المعارف بغداد .

● في دروب المغيب — شعر — لفؤاد رفقه — ٦٣ صفحة — مطابع دار الكشاف بيروت .

● من اغاني البحرين — شعر — لاحمد محمد الخليفة — ٩٧ صفحة — مطابع دار الكشاف بيروت .

● التطور الكبير — تاليف فردريك لويس الن — ترجمة عبد المنعم البيه — مراجعة واشراف وتقديم حسين كامل سليم — ٢٨٤ صفحة — حجم كبير — منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين — مطبعة مصر بالقاهرة .

● الاشواق — شعر — لمحمود شوقي عبد الله الايوبي — ٢١٨ صفحة — منشورات رابطة الادب الحديث بالقاهرة — مطبعة دار العهد الجديد بالقاهرة .

● الاشواق — شعر — لمحمود شوقي عبد الله الايوبي — ٢١٨ صفحة — منشورات رابطة الادب الحديث بالقاهرة — مطبعة دار العهد الجديد بالقاهرة .

● الاقتصاد المنهاجي — تاليف جان روموف مدير المعهد الفرنسي لدراسة الاقتصاد المنهاجي — ترجمة احمد مراد — ١٦٤ صفحة — منشورات دار دمشق للطباعة والنشر — مطابع فتى العرب بدمشق .

● نذير العاصفة — مجموعة قصص — تاليف عادل الاعور — ١١٦ صفحة — منشورات دار الفكر ببيروت — دار الطباعة العربية بيروت .

● صور — تاليف عزمي علي البغدادي — ١٥٦ صفحة — اخراج متقن — منشورات دار الرواد بدمشق — لم يذكر اسم المطبعة .

● الدوامة — تاليف جان بول سارتر — ترجمة مروان الجابري — ١٦١ صفحة — منشورات المؤسسة الاهلية ببيروت — لم يذكر اسم المطبعة .

● انا عائد من جنوب الجزيرة العربية — تاليف احمد محمد زين السقاف — ١١٦ صفحة — مطابع دار الكشاف بيروت .

● وحي الخريف — شعر — لعلي بن هادية عضو نادي القلم بتونس — ٥٧ صفحة — منشورات دار الكتب الشرقية بتونس — طبع الشركة التونسية لفنون الرسم بتونس .

● زورق الغياب — شعر — لرياض المعلوف — ١٢٠ صفحة — حجم صغير — منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر بصيدا .

● صور متحركة — تاليف سعيد فياض — ٢٢٠ صفحة — منشورات دار المختار الجديد ببيروت — مطابع الآداب بيروت .

● النظام السياسي في الولايات المتحدة — تأليف دافيد كوشمان كويل — ترجمة توفيق حبيب — تقديم الدكتور علي ماهر — ٣٢١صفحة — منشورات مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين — مطبعة مصر بالقاهرة .

● قطار الظلام وقصص اخرى — تأليف سامي طه الحافظ — دراسة ونقد غانم الدباغ — ٩٤ صفحة — مطبعة الهدف بالموصل .

● المختار الثقفي — تاليف احمد الدجيلي — ١٢٨ صفحة — منشورات مكتبة النجاح بالنجف — مطبعة النجف بالنجف العراق .

● حديث اليوم والغد — تاليف محمد العربي الخطابي — ٩٩ صفحة — صادر عن تطوان بالمغرب الاقصى — لم يذكر اسم المطبعة .

● صدر الدين الشيرازي مجدد الفلسفة الاسلامية — تاليف جعفر آل ياسين ب. ع. في الفلسفة بدرجة شرف — ١٤٧ صفحة — الجزء الاول من سلسلة دراسات اسلامية — مطبعة المعارف بغداد .

● اعلام الافارقة عبد الله الشقراطسي — تاليف الهادي مصطفى التوزري — ٦٤ صفحة — من سلسلة دراسات ادبية في اعلام النهضة الافريقية التي تصدر عن رابطة التضامن الادبي بتونس — مطبعة الترقي بتونس .

● ثلاثة من الاعلام : الشريف الرضي ، دعبل الخزاعي ، عكاشه العمي — تاليف خليل رشيد — ١٣٠ صفحة — حجم صغير — مطبعة الغري الحديثة بالنجف العراق .

● مجرى الاوشال — دراسة للاوشال وهو الديوان الخامس لجميل صدقي الزهاوي — تأليف سالم علوان الجلبي — ٢١٨ صفحة — الطبعة الثانية — مطبعة الاديب بالبصرة العراق .

● المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر — تاليف كارل ل. بيكر — ترجمة وتقديم محمد شفيق غربال — ٢٦٢ صفحة — منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين — مطبعة مصر بالقاهرة .

● شهريار — مسرحية شعرية — تاليف عزيز اباظة وعبد الله البشير — ١١٥ صفحة — مطبعة مصر بالقاهرة .

● كنديد او التفاؤل — تاليف فولتير — ترجمة وتقديم عادل زعيتر — ٢٩٢ صفحة — مزينة بعدة لوحات ملونة — نشر وطبع دار المعارف بمصر .

● في زحام المدينة — مجموعة قصص — تاليف انور شاؤل — ١١٠ صفحة — شركة التجارة والطباعة ببغداد .

● اوراق الاديب — دراسة ونقد وتوجيه نحو الادب الخالد بروحه وفنه وصوره المتالقة وافكاره الحرة — تاليف علي الزين — ٢٣٦ صفحة — منشورات دار الفكر ببيروت — لم يذكر اسم المطبعة .

● لبنان الطائفي — تاليف انيس صايغ — ١٧١ صفحة — منشورات دار الصراع الفكري ببيروت — طبع الكتاب في مطبعتين لم يذكر اسمهما .

● ظلال حزينة — شعر — لاحمد محمود عرفه — ١٤٨ صفحة — حجم صغير — مطابع المستقبل بالاسكندرية .

● صاحب الزنج او ثورة الزنج في العصر العباسي — سلسلة من التاريخ الاسلامي — تأليف جميل المدفعي — ٣٤ صفحة — مزين بعدة رسوم بريشة مهندرة مع خريطة من رسم متري زيادين — منشورات مكتبة الاستقلال بعمان — المطبعة الوطنية بعمان .

● العالم اينشتين - تأليف لنكولن بارنت - ترجمة محمد عاطف البرقوقي - الجزء ١٥٤ من سلسلة اقرأ - ١٢٨ صفحة منشورات دار المعارف بمصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين .

● مثلهن الاعلى - قصة طويلة - تأليف الشيخ عبد الله العلايلي - ١٢٠ صفحة - منشورات دار الحكمة بيروت - مطابع الوفاء بيروت .

● المجنون يعشق الموت - مجموعة قصص - تأليف ميشيل الحاج - ٩١ صفحة - دار الطباعة والنشر بعمان .

● من القصص الانكليزي - تأليف نعمان ماهر الكنعاني المقدم في الجيش العراقي - ١٢٠ صفحة - حجم صغير - شركة التجارة والطباعة المحدودة ببغداد .

● قصة شعب - تأليف زين العابدين موسى - ١٤١ صفحة - منشورات ندوة عمر المختار بدمشق - مطبعة النسر بدمشق .

● البرعم الاشقر - شعر - للدكتور عارف قياسه - ١٠٠ صفحة - حجم صغير - منشورات دار الرائد العربي بحماه - المطبعة الاهلية [لم يذكر اين ؟]

● الهند والغرب - تأليف علي أدهم - الجزء ١٥ من سلسلة اخترنا لك - ١٣٢ صفحة - نشر وطبع دار المعارف بمصر .

● دموع الخاطئة - قصص من صميم الحياة والمجتمع - تأليف الانسة منورفوال - ١٢٥ صفحة - منشورات حمد بيروت - لم يذكر اسم المطبعة .

● نادي الابطال - تأليف ميشال حتوني - ١٥٩ صفحة - مطبعة عون وحداد [لم يذكر اين ؟]

● طريق المجد - تأليف ميشال حتوني - ١٢٢ صفحة - مطبعة النصر [لم يذكر اين ؟]

● المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها - تأليف الدكتور عبد الله الطيب المجذوب دكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن والمدرس بكلية الخرطوم الجامعية وبمعهد اللغات الشرقية من جامعة لندن سابقا - الجزء الاول في النظم العربي - تقديم الدكتور طه حسين - ٤٩٢ صفحة - حجم كبير - طبع ونشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

● دولة المجانين أنت من رعاياها ؟ - تأليف الياس قنصل - ٦٤ صفحة - منشورات دار الرواد بدمشق - المطبعة العمومية بدمشق .

● سوانح - الجزء الاول - تأليف توفيق حسن الشرتونسي - ١٦٠ صفحة - مطابع سميا ، بيروت .

● النواظر في الجزيرة العربية - تأليف داود محمصاني الدباغ - ٢٠٥ صفحة - مطابع الاداب بيروت .

● الظل الكبير - مجموعة قصص - تأليف سميرة عزام - ١١٤ صفحة - منشورات دار الشرق الجديد ببيروت - مطابع دار الكشاف بيروت .

● تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل اي القرآن - لابي جعفر محمد بن جرير الطبري - حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر - راجعه واخرج احاديثه احمد محمد شاكر - الجزء الثاني ٦١٥ صفحة - الجزء الثالث ٦٢٥ صفحة - وهما من الحجم الكبير - سلسلة تراث الاسلام - نشر وطبع دار المعارف بمصر .

● رصيد البنك الكبير - تأليف كاترين فوربز - ترجمة احمد محمد عيسى - رقم ٤٩ من سلسلة روايات اليوم - ١٧٩ صفحة - نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين - لم يذكر اسم المطبعة .

● احوال السكان في العالم العربي دراسة مقارنة - محاضرات القاها الدكتور عزه النص على طلبة قسم الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ١٩٥٤ - ١٩٥٥ - في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية بالقاهرة - ٣٢٦ صفحة - حجم كبير - منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة - مطبعة الرسالة بالقاهرة .

● مصادر الحق في الفقه الاسلامي دراسة مقارنة بالفقه الغربي الحديث - القسم الثاني - توافق الارادتين في مجلس العقد ، صحة التراضي (الغلط ، التدليس ، الاكراه) - القاها الدكتور عبد الرزاق السنهوري على طلبة قسم الدراسات القانونية ١٩٥٤ - في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية - ٢٤٢ صفحة - حجم كبير - منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة - مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة .

● محاضرات في اقتصاديات سوريا - القاها الدكتور احمد السمان على طلبة قسم الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ١٩٥٥ - في معهد الدراسات العربية لجامعة الدول العربية - ١١٦ صفحة - حجم كبير - منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة - مطبعة الرسالة بالقاهرة .

● محاضرات في اقتصاديات العراق - القاها الدكتور عبد الرحمن الجليلي على طلبة قسم الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ١٩٥٥ - في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية - ٢٦٥ صفحة - حجم كبير - منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة - مطبعة الرسالة بالقاهرة .

● وثائق ونصوص - الجزء الاول - دساتير البلاد العربية - نصوص جميع الدساتير التي صدرت في تواريخ مختلفة في كل من الاردن وسوريا والعراق ولبنان وليبيا ومصر - ٤٣٠ صفحة - حجم كبير - منشورات معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية بالقاهرة - لم يذكر اسم المطبعة .

● قضية العرب - تأليف علي ناصر الدين - الطبعة الثانية - ١٥٥ صفحة - منشورات دار الحكمة ببيروت - مطابع الوفاء بيروت .

● الاذينة والزباء - تأليف دار الحكمة باشراف علي ناصر الدين - الجزء الاول من سلسلة الثائرون في التاريخ - منشورات دار الحكمة ببيروت - مطابع الوفاء بيروت .

● الملك سيف - تأليف دار الحكمة باشراف علي ناصر الدين - الجزء الثاني من سلسلة الثائرون في التاريخ - منشورات دار الحكمة ببيروت - مطابع الوفاء بيروت .

● علم النفس التربوي - الكتاب الثالث - تأليف ارثر جيتس وارثر جيرسيلد وت . ماكونل وروبرت تشالمان - ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ ، والسيد محمد عثمان ومحمد عبد الحميد ابو العزم - اشراف وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصي - ٢٤٨ صفحة - حجم كبير - نشر وطبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

● الفردوس المغتصب - شعر - لمنور صمادح من رابطة القلم الجديد بتونس - ١٦ صفحة - مع عدة رسوم بريشة علي بوسريح - مطبعة القيطوني بتونس .



ومضات عن الحركة الادبية في لبنان

●

أمضيت في لبنان شهرا وبعض شهر عن لي في خلاله ان ارقب عن كثب اتجاه الحركة الادبية والعوامل التي تتحكم فيها ، وان اعرف عن قرب الادباء الفحول الذين جعلوا رجلا كطه حسين يقول ويعيد القول ان زعامة الادب قد انتقلت الى بيروت او هي توشك ان تنتقل

اما العوامل التي تتحكم في توجيه الحركة الادبية في لبنان فكثيرة ، اهمها الحرية الفكرية المطلقة التي يستمتع بها ادباء لبنان ومفكروه ، فلا حجر على حريتهم يحد منها ، ولا وصاية على تفكيرهم تحول دون انطلاقه ، ولا سيطرة ادبية يفرضها رعيل قديم على رعيل جديد . وبهذا يتعذر عليك ان تقول ان في لبنان مدارس ادبية على راس كل منها اديب معقودة عليه الزعامة . فكل اديب هناك مجتهد ، ولكل منهم منحاه الخاص يسلكه واقفا على قدميه لا يعتمد على دعامة من أي نوع كان .

فبولس سلامه شاعر ذو فحولة وطاقة شعرية لا تكل ، ولهذا برع في الملاحم الطويلة ، واعانه على ذلك نفسه وقدرته على الترسل في غير املال ولا تكرار . وملحمتاه الطويلتان « عيد الغدير » و « الرياض » تدرجان اسمه في سجل الخالدين من شعراء العرب في جميع العصور ، لانه حاكى فيهما ملاحم الاغريق طولا ، وكاثر بهما ملاحم العرب الاقدمين اصالة وشاعرية وتجديدا ورصانة .

والبير اديب رائد لا قرين له في الشعر الطلق . عماده على الرمز في غير غموض ، ومعينه ثروة لغوية يغترف منها الالفاظ الحسنة الاداء كانما هو نقاد يختار من الكلم الجياد . وديوانه « لمن ؟ » فتح جديد في الشعر المعاصر وهو فريد في نغمه اصيل في فنه ولن تجد له في الشعر الحديث مثالا لان لالبير اديب اتجاهه الخاص الذي به يستقل عن سائر افراد اسرة النظم .

وسعيد عقل يمثل الغلو في الرمز والافراط في الخيال المجنح . وشعره مما يصدق وصفه بالشعر المهموس أي الذي يستعصى على الفهم المباشر ويتابى على العقل المجرد . وقارىء شعره يحتاج الى استعداد خاص حتى يتمكن من معرفة مقصد الشاعر ، وديوانا « قدموس » و « رندلي » خير مصداق على هذا .

ومارون عبود نقادة يحمل مطرقة وسندانا ، ومذهبه في النقد يخالف جميع مذاهب النقد المعروفة في القديم وفي الحديث . وقلمه ذو سلاطة وذهنه حاضر شديد البداهية ، واطلاعه واسع وموازينه يقيمها وحي الساعة فترشد حالا الى القيمة الحقيقية للمنقود ، واحكامه قاطعة باترة لا تقبل نقضا ولا تحتمل جدالا .

وسعيد تقي الدين متفرد في فنه القصصي وفي اسلوبه البلاغي وهو يخلط الجد بالهزل ، وينحت كلمات قد ينكرها المعجم ولكنها بليغة التعبير تؤدي المعنى اداء مباشرا اما قصصه فذو هدف سياسي او اجتماعي وقد اعانه القصص على ترويج آرائه في السياسة في هينة ويسر . وله من سخريته الباطشة ما يكسبه معارك القلم التي يخوضها دائما . اما شعره « فحلمنتيشي » نفاذ .

وامين نخله اتباعي في منهاجه الشعري ، ولكنه مجدد في آفاقه ورؤاه واساليبه الشعرية . وابلغ شعره ما كان عاطفيا . وقصائده لا تقاس بطولها ، بل بأخيلتها المبدعة التي يصوغها في الكلم القليل والمقاطع الشجية الانغام .

وهو لا يعرف شعر المناسبة لانه لا يعرف كيف يصطنع المعاني اصطناعا ، فالمعاني ترد على خاطره عفوا كالوحي النازل على ملهم .

وعبد الله العلايلي بحاثة لغوي ثابت القدم ، له على البحث جلد مستعجب ، وقد قبل تحدي القرن العشرين فاخرج معجما يحمل اسمه تباعا هو بلا ريب عمل شامخ يقوم به فرد كبير الامال وسيجيء الحكم على هذا العمل بعد انجازه .

هذه بعض امثلة على الاتجاهات الحديثة في الادب اللبناني ، وهي اتجاهات ابتدعها ادباء وشعراء موهوبون لا ينتمون الى مدارس قديمة وقد لا يكون لهم مقلدون يبرعون مثلهم في ارتياد هذه الاتجاهات .

والادباء اللبنانيون عامة يكرهون التقليد والمحاكاة ، ويريد كل منهم ان يكون ذا منحى خاص يشتهر به في ادبه وشعره وقصصه . وهذا يصدق ايضا على الذين يعملون في الصحافة . فلسعيد فريحة اسلوب فكه خفيف الروح ، وليشال مكرزل اسلوب طلي مستحب ، ولرشدي المعلوف « قفشات » في الصميم ولاديب مروة تمكن من معالجة السياسة الخارجية باسلوب يتميز بالبساطة والوضوح وهكذا .

ولكن ادب لبنان على استقلاله عن ادب مصر ، يتجه بخطى سريعة نحو الغرب آخذا بالمذاهب الفكرية الحديثة . وهو في هذا يدين بمبدأ القائلين ان على الاديب التزاما امام مجتمعه ، وان الادب المحض والفن المحض لا وجود لهما في جماعة تريد للادب ان ينساق وراء خدمة المجتمع . ولهذا عكف عشرات من الادباء على ترجمة مؤلفات كتاب الغرب من وجوديين واشتراكيين وماديين وواقعيين وسرياليين ، وكان هذا الاقبال السريع سببا في تضحية اللغة والدقة على مذبح النشر . وقد قرأت طائفة من هذه الترجمات فاذا هي هزيلة بادية الاضطراب اساءت اليها السرعة وهلهلها السباق بين دور النشر .

ودور النشر في لبنان اكثر منها في مصر واعرف منها بوسائل العرض والترويج . ولهذا سار الادباء المصريون يقصدون دور النشر البيروتية لطبع مؤلفاتهم بدلا من ان يقصدوا دور النشر المحلية . ولو احصى نتاج المطبعة اللبنانية في عام ونتاج المطبعة المصرية في زمن مماثل فلست استريب في ان نتاج الاولى سيرجح الثاني من ناحية الكم وربما من ناحية الكيف ايضا . والكتب اللبنانية عادة اكثر اناقة واجرأ عرضا واعمق اخلاصا من الكتب التي تطبع في اماكن اخرى ، وما ذلك الا لما يتمتع به الكاتب اللبناني من استقلال في الراي وحرية في التعبير وبعد عن الملق وقدرة على ايتاء باب النشر من اكثر من ناحية واحدة .

فلا غرو ان يشرع ادباء لبنان اقلامهم ، وان يدخلوا ميدان التزاحم الادبي وان يجيء كاتب كطه حسين فيبدي ويعيد ان زعامة الادب قد انتقلت الى بيروت او انها توشك ان تنتقل الى هناك . [صوت العروبة]

القاهرة **وديع فلسطين**

زيارة الى موسكو ولينينجراد

●

سافر الى الاتحاد السوفييتي في هذا الصيف ، لاول مرة بعد الحرب العالمية الثانية ، جماعة من السائحين لزيارة موسكو ولينينجراد وغيرهما من المدن الهامة .

وما من احد يجهل اهتمام اليونسكو بتشجيع التبادل بين الطلبة والعمال والمدرسين ، وتشجيع السياحة كوسيلة لتنمية التفاهم الدولي

وتبادل المعارف الخاصة بعادات البلاد المختلفة وتقاليدها الثقافية . وقد كانت دول اوروبا خاصة والاتحاد السوفييتي منهمكة خلال السنين العشر الماضية بتعمير بلادها مما لحقها من اضرار الحرب الماضية . ولكننا اليوم نراها قد استعدت لاستقبال الاجانب ، بينما يرحل مواطنوها عن بلادهم لقضاء عطلاتهم في الخارج .

وقد هيأت لي الظروف اثنا عطلتي في موسكو ولينينجراد مقابلة السيد انكودينوف ، رئيس السياحة ، فسألته عن تقدم التبادل السياحي بين روسيا والخارج . وعرفت منه انه في عام ١٩٥٥ تمت اتصالات مع منظمات السياحة في المملكة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا وبلجيكا وهولندا . كما قام بعض السائحين السوفييت هذا الصيف لاول مرة بعد الحرب الماضية بزيارة بولنده والسويد وفنلندا ، وينتظر ان يزور جماعة اخرى اوروبا للتزحلق على ثلوجها في الشتاء المقبل .

ويثق السيد انكودينوف من انه سيتاح لمواطنيه السفر الى الخارج في العام المقبل على نطاق واسع ، كما يعتقد ان على بلاده ان تستغل المناسبات الرياضية والثقافية لاجتذاب اكبر عدد من السائحين اليها . وقد ذكر لي ان مصلحة السياحة عندهم تعاني نقصا في الموظفين المدربين الى جانب قلة عدد الفنادق والمطاعم اللازمة لاستقبال الزائرين . ولكن العمل يجري سريعا لتجميل ساحل البحر الاسود واعداده لاستقبال الزائرين من الخارج ، ويقال انه لن يكون اقل جمالا من الريفييرا الفرنسية والايطالية .

وعلى اية حال قد اعجبت بروعة رحلتنا الى موسكو ولينينجراد ، بالنظر الى تنوع برنامجها وما اكتسبناه من مزايا ثقافية . وقد زرت الاماكن التاريخية في روسيا القديمة ، كالقصر الصيفي للقيصر وهو الذي تصدعت بعض اجزائه اثناء معركة لينينجراد ثم اعيد بناؤها على طراز بطرس الاكبر . ومن الاماكن التي زرتها ايضا متحف الارميتاج وكنوز الكرملين والكاتدرائيات ومدارس الرقص التوقيعي حيث كانت تتدرب بافلوفا واولانافا ونجنسكي . كما شاهدنا الاحياء الجديدة التي تقوم شاهدا على جهود الروس في التعمير ، وزرنا موسكو الجديدة ، والمترو وهو اشبه بقصر تحت الارض والمستشفيات الحديثة والمزارع الجماعية والمسارح والفرق الموسيقية التي توقع موسيقى الجاز الامريكية باسلوب عام ١٩٣٥ ...

وعلى الرغم من قصر فترة رحلتنا ، الا اننا استطعنا خلال ايامها القليلة ان نكون صورة حية لروسيا ، هذا البلد الذي يجمع شتى المتناقضات . فالاتحاد السوفييتي الذي يتجه الى المستقبل ، ما يزال في مظاهر عدة يرتبط بالماضي ارتباطا وثيقا . ان زيارة لينينجراد ليست الا اشبه برحلة تحملنا الى ماضي الزمان ، فهذه مدينة بطرس الاكبر بقصورها وبيوتها العتيقة وقنواتها وسمائها الداكنة ونهرها العظيم تحتشد بذكريات الماضي وتستحيل في الليل الى مدينة قديمة يخيل للمرء فيها انه يسير في حلم رائع . اما موسكو فتراها قد شيدت لتكون مدينة عام ٣٠٠٠ بشوارعها الممتدة التي يبلغ عرضها ٦٠ مترا .

وفي لينينجراد وموسكو نظمت لنا زيارات متنوعة هامة ، كزيارة المدارس والمعامل والمصانع والمستشفيات والمؤسسات العلمية ، فضلا عن المتاحف والآثار التاريخية ، وترك لنا اختيار الزيارات التي تتفق وميول كل منا . وقد استطاع افراد جماعتنا وكان يبلغ عددهم خمسمائة سائح من مختلف المهن ، ان يكتسبوا مزايا ثقافية من هذا النوع من الرحلات الدراسية . ولا نستطيع ان ننسى التسهيلات الجمة التي منحتها لنا السلطات اثناء انتقالاتنا . فلم نخضع لاي تفتيش جمركي سواء في دخولنا او في خروجنا من روسيا ، بل لقد اعفينا ايضا من تأشيرات الدخول والخروج . ولينطبق كل هذا على المبادىء التي تعمل اليونسكو على تحقيقها منذ سنين اثناء الرحلات الدراسية التي تنظمها في جميع انحاء العالم . ونعيد هنا كلمة للسيد انكودينوف ، رئيس السياحة هناك : « يجب ان نستخدم ابواق اريحا حتى تنهار جدران الشك فيجد البشر سبيلا الى التفاهم والتعاطف » .

جان مرابيني

حديث مع بشر فارس حول الشعر والادب

●

الدكتور بشر فارس من خيرة المحاضرين ، نال شهادة الدكتوره في الادب من جامعة السوربون ، واتم دراساته في معاهد المانيا وانكلترا . اهتم بالموسيقى والمسرح . فالف عدة كتب عنهما ، كان لها الصدى الكبير في الاوساط العالمية ، احترف الادب فخرج منه بنظرات شاملة في التاليف الحديث . وطاف في اوروبا والشرق العربي يبحث وينقب . لا يفل له عزم ، ولا يهدأ له قرار . مارس الصحافة وراس تحرير المقتطف ، كتب في المجلات العربية الكبرى . وراسل الغرب بمقالات احدثت هزات عنيفة في المحافل الادبية كلها ، وما تزال ... تشهد على ذلك مسرحية « مفرق الطريق » .. التي كتبها بالافرنسية والعربية . مثلت على مسارح فرنسا والمانيا والنمسا .

عضو في المجمع العلمي المصري بالقاهرة . وممثل الثقافة العربية في المعهد الافرنسي للآثار الشرقية . يجيد الافرنسية تماما . رئيس الشعبة المصرية في جمعية نقاد الفن الدولية . كانت محاضرته في مؤتمر استانبول للعام الفائت عن تاويل الزخرفية الاسلامية بآيات من القرآن . يطالعك في الدكتور فارس بشرة سمهرية فيها من صلابة المؤمن بنفسه ما يبعد عنه الشك المريب . له نغم في الالقاء طروب . محدث لبق يجيد التلاعب بالالفاظ والجمل ، يقضي ايامه الماتعة في مغازلة الطبيعة وما في صلب الطبيعة من محاسن ونواعم ... عنيت بدون قصد « حواء » ! ...

يفضل شتورا على سائر جبل لبنان . وله فيها اكثر من ذكرى تهيج في نفسه تحنانا ، فيتخيل ذات الوجه الصبيح ، التي اوحت له قصيدة « الى زائرة » .. فيعايش طيفها الجميل ...

قلت للدكتور بشر : ما رايك في تصنيف الاعضاء ، الذي نهجته جمعية اهل القلم في الاونة الاخيرة ؟

قال فورا : مما يؤلم الاديب ، ان تزلق ندوة كهذه الى مجاذبات ومنافرات يخسر معها الادب . فالادب قبل كل شيء اخلاص للفكرة ، وخدمة لامة ، ويشترط حنانا في النفس ، وسماحة في الصدر . فليست جولات الادب صولات ملاكمة .

قلت له : ما هي الحلول الناجعة للنهوض بهذه الجمعية ؟

قال : الخير ان تحل ، حتى تهدأ الانفس ، وتنجع العبرة . فيعود تاليف اهل القلم .

قلت : اعرف عن الدكتور انه يعني باللفظة في شعره مما يجعله انيقا على صعوبة ، فهل هو راض عن هذا الابهام ؟

– لا اقول في الشعر الا اللفظ الذي يحتاج اليه المعنى ، فلا ازيد عليه ، ولا استعمل تركيبا مطروقا ، واحاول الغوص على المعنى ، حتى استوفي اطرافه .

وشاقتني منه هذه اللفتة في الشعر ، فقلت له : ما رايك في شعرائنا اللبنانيين الاحياء وكيف تصنفهم ؟

قال دون لعثمة ، المقاييس الشعرية اختلفت في مدة الثلاثين سنة . فسيد الرمنطقية المستحدثة هو الشاعر المهجري ايليا ابو ماضي ، وليخائيل نعيمه فرائد فيها ، واوغل من بشاره الخوري في الرمنطقية العريقة هو الياس ابو شبكه . اما في الشعر المتماسك فسعيد عقل . وما بين الرمنطقية المستحدثة والتماسك سليم حيدر ، وصلاح لبكي . وامين نخله سيد الشعر المرصوص .

واستطرد قائلا : هنالك من جاء الى الشعر الرمزي الصرف فليوسف

غصوب عزمات له ـ ولسعيد عقل خطرات فيه ، ولصلاح الاسير لفتات ولالبير اديب رفتات اليه ... ولسنا في معرض الاستعراض ...

وانهى رده عن الشعر قال : اما الشعر العربي المحض ، بجلجلته وجزالته ، وعصفه لا هو في مصر ، ولا في لبنان . بل هو في جبل العلويين ! ... ولم يزد ...

يقال ان هناك ادبا حديثا ، وادبا قديما فهل هذا صحيح ؟ وما هي ميزتهما ؟

قال : هناك ادب قديم وحديث . ولكن الادب الحديث لا يقوم الا متكئا على ادب القديم ، راجع الى ادواته القديمة كاللغة ، والبلاغة ، والتصوير ، والايقاع ، وسياق التفكير . [المجالس]

غرائب وعجائب عين دارة في لبنان

●

الآثار التي شاهدتها في عيندارة ، والكهوف التي دخلتها تاريخ بحد ذاتها يوضح لنا ما جرى خلال الاجيال الغابرة من حوادث واضطرابات الى ادالة عهود وانقراض سلالات .

وعيندارة الحديثة بلدة يتجاوز عدد سكانها ٢٥٠٠ نسمة تحيط بها قرى العزرونية واغميد ونبع الصفا وبمهرين وعين زحلتا .

كانت البلدة لقرن خلا نقطة انطلاق للسياسة اللبنانية ، ففيها تعقد المؤتمرات وتحاك المؤامرات وتجري المعارك الطاحنة بين امراء الاقطاع اللبنانيين .

ومعظم بناياتها شيدها امراء الاقطاع لتكون قصورا لهم او ملاجيء للخدم والحشم حتى ان كنائس عيندارة يعود تاريخها الى ٣٠٠ سنة على اقل تقدير ، وفي مدخل كنيسة الموارنة نقوش سريانية قديمة لم استطع فهمها ومذابح بنيت من صخور نادرة الوجود .

لا بد لك ولاول وهلة ان تتساءل عن معنى كلمة « عيندارة » : فهذا الاسم يعود الى ٢٥٠٠ سنة يوم زحف ملك الفرس الشهير داريوس الاول على رأس جيش جرار ، وحط الرحال قرب العين المعروفة هناك ، ونسبة الى اسمه الفارسي « دارا » فقد اطلق على القرية الصغيرة يومذاك اسم عين دارا وما زالت حتى ايامنا هذه تسمى بهذا الاسم ؟

ومن عين داريوس الاولى انتقلنا الى بناية كبرى تتالف من طابقين ، وعلى مدخلها نقشت كتابات مزخرفة بالفسيفساء يستدل منها انها كانت مركز الامراء الاقطاع . والقصر هذا يضم مشنقة وسراديق للمؤونة وبهوا للاستقبال وغرفة للنساء واصطبلات للخيل وابراجا تحاصر فيها الجيوش اثناء الاضطرابات وقد يكون هذا القصر فريد من نوعه في العالم لكونه مبنيا من الحجارة البلورية الغريبة الشكل والنادرة الوجود ويعود تاريخه الى ٣٠٠ سنة على الاقل .

وبعد ثورة مشايخ آل الخازن والدحداح واصطدام الثوار مع جيش الامير بشير الشهابي الكبير وحليفه ابراهيم باشا ، وانهزام ابراهيم هذا ، اضطر الامير بشير للهرب الى عيندارة فاواه امراء الاقطاع في القصر المذكور الذي مكث فيه ٤ شهور دون ان يدري به احد واخيرا هاجمته الجيوش فحاصر مع اعوانه في ابراج القصر المذكور وتغلب على اعدائه العثمانيين ولكنه اضطر لمغادرة عيندارة واستسلم سنة ١٨٤٠ الى الاتراك وما زال بعضهم يطلق عليه اسم « قصر الامير » !

وفي عين دارا اثار ابراج حربية بعضها يقوم في وسط القرية شيدها آل ارسلان لتكون مركزا للحزب القيسي واخرى في ضاحية البلدة اعدها آل جنبلاط ليردوا هجوم خصومهم وليساعدوا حلفاءهم اليمنيين .

وقد شهدت هذه الابراج حربا ضروسا سالت فيها الدماء تروي اراضي عيندارة العطشى وسقط الوف القتلى والجرحى ولكن الحصون هذه لم تفن !

وشهدت ابراج عيندارة المعركة الرهيبة التي حصلت عام ١٧٢١ على اثر تسلم الامير حيدر شهاب الحكم فحاصر القيسيون في برج « الضيعة » واليمنيون في « برج العين » ونزل الجنود لساحة الوغى .. ولم يبق من هذه الابراج سوى اطلال مهملة نبتت فوقها الاعشاب وتكدست حولها الاوساخ .

وانتقلنا لضواحي عيندارة لنشاهد مسابك الحديد التي يعود عهدها الى ٢٠٠٠ سنة ، والتي بناها الرومان لاستخراج الحديد من اراضيها الغنية بهذه المادة . وهناك لا يقل عن ١٥ مسبكا مبنية من الصخور الصوانية السوداء والى جانبها صخور متحجرة يعتقد انها قسم من الحديد المصهور الذي كان يسيل في المسابك .

وقد عثر السيدان يوسف وضاهر بدر على قطع نقود تحمل رسم القديسة هيلانة والملك قسطنطين المشهور الذي قسمت الامبراطورية الرومانية على اثر وفاته . مما يدل على ان الرومان كانوا يتولون صنع عملتهم في عيندارة ويستخرجون حديدها ونحاسها في الوقت نفسه .

وقد ارسلت هذه النقود الى الولايات المتحدة لتحليلها فجاء تقرير الخبراء يثبت صحة الاعتقاد ويؤكد ان هذه الدراهم يعود عهدها الى ١٨٠٠ سنة !

وفي ضواحي عيندارة قصور وابراج قديمة جدا تعود الى الفرس والرومان . بدليل ان هناك كتابات رومانية على بعض صخورها .. وبدلا من ان ترمم هذه الاثار فقد بدأ المزارعون يحرثون ارضها ورفع حجارتها !

واشهر الاماكن الاثرية هي :

ابراج طيروش ، وفيها صخر نانئ يعرف باسم « حجر المشنقة » وهناك يعدم الثائرون ضد العبودية والظلم . وحجر المشنقة صخرة يبلغ علوها ١١ مترا وفيها ثقوب اعدت لوضع الحبال . وخرب الفسيدقة وهي قصور وبنايات عربية تعود الى عهد العباسيين وهي تحوي نقوشا خطت باللغة العربية .

وبجوارها « خرب تفاحتي » و « التوينة » وهي عبارة عن اروقة قديمة كانت معدة للخيول والجنود ومبنية من الصخور البيضاء القاسية التي قلما تجد لها مثيلا .

وشمالي عيندارة تقوم خرب اليهودية والنوبري والرخصية وجميعها اماكن اثرية لعشرات المنازل مما يدل على ان عيندارة كانت تمتد الى تلك السفوح وهناك كان يقيم امراء الاقطاع ، بينما يسكن العامة عيندارة الحديثة .

ولعل اغرب ما رأيته في عيندارة هو تلك المغارة التي يزيد طولها عن ١٢ كيلومتر .

ودخلت المغارة مستعينا بالمصابيح الكهربائية فلم استطع التوغل بعد ان قطعت علي الطريق الروائح الكريهة . ويؤكد السيد فارس حداد ان المغارة تتصل ببرج تفاحتي الذي يقوم في سفح الباروك وقد حفرها الاقدمون لتكون بمثابة ممر سري يستطيع فيه الجنود المرور عندما يشتد عليهم الحصار او يفقدون المؤونة وهذه المغارة العجيبة المدهشة التي هي محجة الزوار والعلماء ، والتي لم يستطع انسان ادراك نهايتها بعد ، تصل قصور امراء الاقطاع بالابراج الحربية وسقف المغارة مبني من الصخور الحمراء والسوداء .

وفي شرقي عيندارة تقوم « غابة الجوز » وهي عبارة عن حرج يضم ٢٥٠ شجرة جوز يعود عهدها الى الف سنة على اقل تقدير ، جعلوا منها اماكن يقصدها النسوة والخدم للنزهة . ويزيد محيط الشجرة عن ٧ امتار ! وتعتبر هذه الغابة من اشهر احراج لبنان واقدمها بعد غابة ارز بشراي .

وبعد جولة استمرت ٥ ساعات عدنا الى بيروت وقد اخذتنا الدهشة لما شاهدناه في تلك الربوع من عجائب وغرائب . [الدنيا ـ بيروت]



١١ نوفمبر ١٩٥٥ ـ تمرد الجيش في البرازيل وقام بانقلاب خلع فيه رئيس الجمهورية الموقت . واعلنت قوات البحرية والطيران تضامنها مع الرئيس ضد حركة الجيش ووقعت اشتباكات دامية بين قوات الطرفين وقد انتخب مجلس الشيوخ السيد نيرو راموس رئيس مجلس الشيوخ رئيسا موقتا للبرازيل خلفا لكارلوس كوامبا دالوز .

١٢ ـ اصدر السلطان محمد بن يوسف امره بواسطة مجلس الوصاية الرباعي بعزل الوزارة المراكشية الحاضرة التي تولت الحكم مدة نفيه من بلاده .

١٣ ـ اعتزل الحكم الجنرال ادوارد لوناردي رئيس جمهورية الارجنتين تحت ضغط القوات المسلحة وقد خلفه في الرئاسة الجنرال بيدرو ارامبورو احد قواد ثورة سبتمبر الماضية .

١٥ ـ انتخب البرلمان السوداني السيد أسماعيل الازهري رئيسا للوزارة الجديدة .

ـ دعا السير انطوني ايدن رئيس الحكومة البريطانية رؤساء وزارات دول الكومنولث الى مساندته في مسعاه لتسوية النزاع العربي الاسرائيلي .

ـ وصل الى الرباط سيدي محمد بن يوسف سلطان مراكش فجرى له استقبال شعبي بالغ الروعة .

١٦ ـ انتهى مؤتمر وزراء خارجية الدول الاربع الكبرى الذي عقد في جنيف بالفشل وصدر بلاغ قصير سجل فيه الوزراء الاربعة باسف فشلهم التام من اجل ايجاد الحلول اللازمة او تحقيق اي تقدم محسوس للمشاكل الكبرى المتنازع عليها بين الشرق والغرب

١٧ ـ جرت محاولة لاغتيال السيد حسين علاء رئيس الوزارة الايرانية وقد اصيب بجرح في عنقه من طلق ناري وقد اعتقل الفاعل وهو ينتمي الى جماعة فدائيان اسلام

ـ سافر الى الهند في زيارة رسمية الماريشال بولغانين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي والرفيق خروشتشيف السكرتير العام للحزب الشيوعي .

١٨ ـ اصدر شاه ايران مرسوما بحل مجلس النواب .

ـ اعلن سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف ان العلاقات الجديدة مع فرنسا تقوم على اساس الاحترام المتبادل والسيادة الوطنية.

١٩ ـ وصل جلالة الملك حسين الاول عاهل المملكة الاردنية الهاشمية الى بيروت في زيارة رسمية للبنان .

ـ اعلنت وزارة الخارجية الامريكية انها في سبيل انشاء ارتباط عسكري وسياسي مع منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط .

٢١ ـ قدم اشيرو هاتوياما رئيس الوزارة اليابانية استقالة حكومته .

ـ عقد مؤتمر الحلف التركي العراقي اجتماعه الاول في بغداد وقد حضره رؤساء وزارات العراق وتركيا والباكستان وايران ووزير خارجية بريطانيا وسفير امريكا كمراقب. وقد تقرر تسمية الحلف باسم حلف بغداد وجعل العاصمة العراقية مقرا دائما له .

٢٢ ـ قام الجيش البرازيلي باحتجاز السنيور ركافيه فيلهو رئيس الجمهورية بعد ان قرر مجلس النواب انه غير صالح للمنصب وكان الرئيس قد اعلن انه سيستانف اعماله بعد شفائه من النوبة القلبية .

٢٣ ـ صدر بلاغ عن مؤتمر حلف بغداد جاء فيه ان الحكومات الخمس اكدت اثناء المؤتمر عزمها على العمل بالتضامن ضمن اهداف موحدة لاقرار السلم والامن في الشرق الاوسط وللدفاع عن اراضيها ضد العدوان والمحاولات الانقلابية .

٢٥ ـ وصل وفد عسكري مصري برئاسة اللواء عبد الحكيم عامر الى دمشق لاتمام التنظيمات العسكرية التي بداها قائد الجيش السوري الزعيم شقير في القاهرة .

ـ رفضت بريطانيا العودة الى التحكيم في قضية البريمي وقد صرحت الدوائر السعودية بانها تعتبر هذا تهربا .

ـ وافقت اللجنة السياسية التابعة للامم المتحدة على مشروع قرار باسقاط قضية الجزائر من جدول اعمال الامم المتحدة .

٢٦ ـ اعلم الاتحاد السوفياتي ايران ان اشتراكها في ميثاق بغداد يشكل خطرا على الحدود السوفيانية .

ـ وصل جلالة الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية الى بومباي في زيارة رسمية للهند .

٢٧ ـ عهد سلطان مراكش الى السيد مبارك بن مصطفى البكاي بتاليف اول وزارة مراكشية وطنية .

٢٩ ـ خذلت الجمعية العمومية الفرنسية حكومة السيد ادجار فور عند اقتراحها على الثقة بشأن اجراء الانتخابات في شهر فبراير القادم .

٣٠ ـ قررت الحكومة الفرنسية حل الجمعية الوطنية الفرنسية واجراء انتخابات .

ـ وافقت مصر وبريطانيا على التعديلات التي ادخلت على الاتفاق بينهما بشان السودان وذلك لاجراء الاستفتاء الذي طلبه البرلمان السوداني لتقرير مصير البلاد .

ـ قدم عدنان مندريس رئيس الحكومة التركية استقالته وقد كلفه رئيس الجمهورية باعادة تاليف الوزارة .

٢ ديسمبر ١٩٥٥ ـ اقيل قائد الجيش الافغاني العام وهو وزير الحربية ايضا .

٥ ـ اعلنت وزارة الحربية البريطانية ان رئيس هيئة اركان حرب الامبراطورية قد توجه الى عمان للتشاور مع الحكومة الاردنية في الامور العسكرية التي تتصل بالدفاع .

٧ ـ الف السيد مبارك بن مصطفى البكاي الحكومة المراكشية .

٩ ـ قرر المجلس الاستشاري في الجزائر مقاطعة الانتخابات العامة في فرنسا .

١٠ ـ اعلن البكباشي جمال عبد الناصر رئيس الحكومة المصرية ان دستور مصر سيعلن في السادس عشر من يناير القبل .

١٢ ـ قامت القوات الاسرائيلية بهجوم كبير على القوات السورية في منطقة بحيرة طبريا وقد استشهد ٢٥ جنديا سوريا وفقد ٢٨ وكانت خسائر المهاجمين كبيرة .

ـ قبلت الحكومة البريطانية استقالة السير نوكس هيلم حاكم السودان العام .

ـ صدر بلاغ مشترك في مكة ونيودلهي بمناسبة انتهاء زيارة جلالة الملك سعود للهند وقد تحدث البلاغ عن تعزيز السلام العالمي والتعايش السلمي .

١٣ ـ طلبت سوريا من مجلس الامن الدولي الاجتماع لسماع شكواها من العدوان الاسرائيلي الاخير في منطقة طبريا .

١٤ ـ قدم السيد سعيد المفتي رئيس الوزارة الاردنية استقالته وقد كلف السيد هزاع المجالي بتاليفها .

ـ اقر مجلس الامن قبول ١٦ عضوا جديدا في هيئة الامم وهي البانيا وايطاليا وسيلان والاردن والبرتغال وايرلندا والنمسا وفنلندا والنيبال وليبيا واللاووس والكمبودج واسبانيا وهنغاريا وبلغاريا ورومانيا وقد ابعدت اليابان ومنغوليا الخارجية .

١٥ ـ بعث البكباشي جمال عبد الناصر بمذكرة رسمية الى الامين العام للامم المتحدة يبلغه فيها ان مصر قررت استخدام كامل قواتها العسكرية ضد اسرائيل اذا قامت باي هجوم على حدود مصر او سوريا .

مطبعة العمال اللبنانيين
الحازمية ـ بيروت